



هستوى دبیرین
تاریخ اورشالیم فی العصور الوسطی
(الحیة الإقصادیة والاجتماعیة)
ترجمہ و تحقیق: دہ علیہ القویسی

دار الفکر للطباعة والکتاب

Bibliotheca Alexandrina
0131908

تاریخ اُوربا فی العصور الوسطی

(الحياة الاقتصادية والاجتماعية)

الألف كتاب الثانى

الإشراف العام

د. سمير سرحان

رئيس مجلس الإدارة

مدير التحرير

أحمد صليحة

سكرتير التحرير

عزت عبدالعزيز

الإخراج الفنى

محسنة عطية

تاريخ أوربا في العصور الوسطى

(الحياة الاقتصادية والاجتماعية)

تأليف

هنري نيسايون

ترجمة وتحقيق

د. عطية القوصي



المؤسسة العربية للدراسات والنشر

١٩٩٦

الفهرس

الموضوع	الصفحة
تقديم	٧
مقدمة	٩
الفصل الأول :	
احياء التجارة	٣١
الفصل الثانى :	
المدن	٤٣
الفصل الثالث :	
الأرض والطبقات الريفية	٦١
الفصل الرابع :	
التجارة حتى نهاية القرن الثالث عشر	٨٧
الفصل الخامس :	
التجارة العالمية حتى نهاية القرن الثالث عشر	١٣٥
الفصل السادس :	
الاقتصاد الحضرى وتنظيم الصناعة	١٥٩
الفصل السابع :	
التغيرات الاقتصادية فى القرن	
الرابع عشر والخامس عشر	١٧٩
قائمة مصادر (ببليوجرافيا) عامة	٢٠٧

تقديم

لقد حاولت في صفحات هذا الكتاب التالية أن أرسم الحالة العامة والحركة العامة للتطور الاجتماعي والاقتصادي لغرب أوروبا منذ نهاية عهد الامبراطورية الرومانية حتى منتصف القرن الخامس عشر (الميلادي) . وقد جاء تصويري لتلك الحقبة الطويلة ككل واحد ، كانت أجزاءه على اتصال دائم مع بعضها البعض . وبمعنى آخر ، فقد اخترت وجهة نظر أممية ، وأردت ، قبل أي شيء ، أن أرسى السمة الجوهرية للمظاهر المرسومة ، بغض النظر عن الحالة الخاصة التي كانت عليها ، ليس في أقطار مختلفة فحسب ولكن في ذات القطر نفسه . لذلك فقد اضطررت ، بالطبع ، لأن أعطي بروزا خاصا لتلك الأقطار التي نما اقتصادها سريعا واكتمل في العصور الوسطى ، مثل إيطاليا والأراضي المنخفضة ، التي يلاحظ تأثيرها المباشر وغير المباشر على بقية أوروبا .

ويجب أن ننوه من أنه لاتزال هنالك ثغرات كثيرة في معلوماتنا عن هذا الموضوع ، مما اضطرني ، في حالات كثيرة ، أن ألجأ الى التعميم أو التخمين ، حتى أوضح الأحداث أو أتبع ترابطها . ولكنني كنت حريصا للغاية على ألا ألجأ الى تطبيق النظريات ، خشية أن أقحمها على الحقائق . ولقد كان هدفي أن يكون عملي هذا بداية لمن يجيء بعدي ويبحث في هذا الأمر ، ولذلك لا أستطيع أن أتملق نفسي وأمتدحها بأنني قد نجحت وبلغت الغاية . وأخيرا ، فلقد حاولت خلال كل عملي أن أكون واضحا ، بقدر الامكان ، حتى عند تعرضي للمشاكل التي دار حولها جدل كثير .

أما عن المراجع المهمة التي سوف تساعد الباحث على دراسة ما كتبتة أو نقد آرائني ، فانه سوف يجدها في القوائم الملحقة بكل فصل على حدة .

ولقد أوردت في هذه القوائم الأعمال المفيدة بالفعل في مجال هذه
الدراسة ، أما بسبب ثراء مادتها أو أهمية محتواها ، وذلك يفسر سبب
اختياري لعدد كبير من المقالات الواردة في الدوريات .

ويجب أن اعتذر ، مقدما ، عن السهو الذي وقعت فيه والذي سوف
يسهل اكتشافه ، ويرجع بعضه الى جهل ، ويرجع بعضه الآخر ، حقيقه ،
الى الأخطاء التي وردت في بعض الدوريات المختارة .

هنرى بيرين

مقدمة

التاريخ الاقتصادي والاجتماعي

- ١ -

لكي نفهم حركة اليقظة الاقتصادية التي جرت في غرب أوروبا من القرن الحادي عشر فصاعداً ، من الضروري قبل أي شيء أن نلقي نظرة على الفترة السابقة لهذا القرن .

ووجهة النظر التي علينا أن نتقبلها في هذا الخصوص ، هي الوجهة التي تقول بأن الممالك الجرمانية ، التي أسست في القرن الخامس على أرض أوروبا ، قد حافظت على طابع الحضارة القديمة الرائعة والعريقة ، ذلك الطابع الذي هو في الأصل طابع حوض البحر الأبيض المتوسط (١) . وحول تلك الأرض المحيطة بهذا البحر ولدت كل حضارات العالم القديم ، وبواسطتها اتصلت أجزاؤها بالأخرى ، وانتشرت بعيداً ووسعت أفكارها وتجارتها ، حتى أصبحت أخيراً بمعنى حقيقي محور الإمبراطورية الرومانية ، التي تحولت تجاهها نشاط كل مقاطعاتها من بريطانيا إلى البرافدين . لكن هذا البحر العظيم واصل في أن يلعب دوره التقليدي بعد الغزوات الجرمانية ، فبسبب استقرار البرابرة في إيطاليا ، أفريقية ، أسبانيا وغالة ، ظل هذا البحر طريق الاتصال مع الإمبراطورية

(١) هذه الحقيقة بدت معروفة اليوم حتى للمؤرخين الذين يعتبرون أن غزوات القرن الخامس قد أطلحت بالحضارة الغربية وغيّرت شكلها . انظر : ف . لوت في كتابه : تاريخ العمود الوسطى ، ر . A. Dopsch في كتابه :
Wirtschaftliche und soziale Grundlagen der Europäischen Kultur wicklung aus der Zeit von Caesar bis auf Karl den Grossen 2nd ed (Vienna, 1923-4, 2 vols).

ومن مزاياه الظاهر أنه لم يكن هناك تقطيع في التاريخ الاقتصادي ما بين الفترة السابقة وبعد تكوين الممالك الجرمانية في الإمبراطورية .

البيزنطية وظلت هذه الاتصالات تمكنه من أن يحتضن حياة اقتصادية ، كانت ببساطة استمرارا لتلك التي كانت في العالم القديم . ويكفى هنا أن نتذكر نشاط الملاحين السوريين من القرن الخامس الى الثامن بين موانئ الغرب وموانئ مصر وآسيا الصغرى . ولقد سجل الملك الجرمانى ذلك ، على نقود ذهبية رومانية ، كانت وسيلة ورعزا على الوحدة الاقتصادية لحوض البحر المتوسط . وأخيرا صار اتجاه التجارة العام نحو الشرق تجاه جوانب هذا البحر مما أدى بالأشخاص الذين يهتمون بأمره اطلاقهم عليه متلما أطلق الرومان عليه بالبحر النسطورى .

ولقد بوغت هذا البحر بالدخول المفاجيء للإسلام على مسرحه ، خلال القرن السابع الميلادى ، وبفتوحاته على الجوانب الشرقية له والجوانب الجنوبية والغربية لهذه البحيرة الأوربية الكبرى . ووضعت هذه الفتوح ذلك البحر فى وضع جديد تماما وأثرت نتائجها على مجرى كل التاريخ اللاحق (١) . ومن الآن فصاعدا ، صار المتوسط عائقا بعد أن كان رابطا بين الشرق والغرب طوال عشرة القرون الماضية . وإذا كانت الامبراطورية البيزنطية ، بسبب أنسطولها الحربى ، قد نجحت فى دفع اللطمة الإسلامية عن بحر ايجه ، والأدرياتيك ، وعن سواحل إيطاليا الجنوبية ، وعن البحر التيرانى ثارا من المسلمين ، وكل ما استطاع أن يستخلصه منهم ، إلا أنها بالنسبة لأفريقية وإسبانيا ، فإنها اكتفت بتطويقها من الجنوب والغرب ، وفى نفس الوقت وضعت يدها على جزر البليار ، وكورسيكا ، وسردينيا ، وصقلية ، وجعلتهم قواعد لأسطولها فى هذا البحر الأمر الذى أعاد لها سيادتها عليه . ومع مطلع القرن الثامن الميلادى ، عادت التجارة الأوربية الى هذا المربع البحرى الكبير . وبقيت الحركة الاقتصادية باتجاه بغداد حركة شرقية . ولقد قال ابن خلدون عن ذلك ، متأثرا : « لم يعد فى

H. Pirenne, Mahomet et Charlemagne, et 'Un contraste (١) économique : Mérovingiens et Carolingiens, dans Revue belge de philologie et d'histoire, t. I (1922) et II (1923) ; Les villes du Moyen Age, pp. 7 et suiv. (Bruxelles, 1927).

ولقد أثار هذا الموضوع وجهات نظر معارضة من المستحيل إيرادها هنا ، ومن الممكن لمن يريد معرفتها أن يطلع على عروض هـ لورنت H. Laurent ، فى

مقاله :

Le: travaux de M. Henri Pirenne sur la fin du monde antique et les débuts du Moyen Age. Byzantion, t. VII (1932), pp. 495.

استطاعة لوح خشب واحد (للمسلمين) أن يطفو على مياه هذا البحر ، (١) .
ولقد قامت على ضفتيه ، التي كانت تستقبل سلفا موجة بعد الأخرى من
طوائف وجماعات لها نفس العادات ، ونفس الاحتياجات ، ونفس الأفكار ،
حضارتان أو من الأفضل القول عالمان مخلصان للصليب وللصليبيين .
ولقد انهيار توازن العالم القديم الاقتصادي ، الذي حدث عند الغزو
الجرماني ، تحت أقدام الغزو الاسلامي . ورغم أن الكارولنجيين قد
أوقفوا المد الاسلامي شمال جبال البرانس ، إلا أنهم لم يستطيعوا ادراك
عجزهم ، ولم يجربوا استرجاع البحر من يد المسلمين . وحين يصبح
شارلمان امبراطورا على الغال الرومان وعلى الغال المورفنجيين ويكون
امبراطورية هائلة باتقان ، من الممكن القول عنها بأنها امبراطورية أوربية ،
يقوم بأهم أعماله العظيمة التي رأى أنها ضرورية وملحة ، وهو إيجاد نظام
اقتصادي جديد ، هو في الواقع قمة نظم العصر الوسيط .

المسلمون والمسيحيون في الغرب :

يجب ألا يثير التاريخ اللاحق ، الذي يوضح الاستفادة الكبيرة التي
قدمها المسيحيون الى حضارة المسلمين الزاهرة ، يجب ألا يثير الغرور
في أنفسهم بما وصل اليهم بصد ذلك من روايات تناقلها بعضهم عن بعض .
حقيقة أن البيزنطيين تقدموا وتقدمت مواقعهم على السواحل الإيطالية ،
وقامت كل من نابلي ، وأمالفي ، وباري ، والبندقية على وجه الخصوص ،
بنشاط تجاري ، قل أم كثر ، مع عرب صقلية ، وأفريقية ، ومصر ،
وآسيا الصغرى . لكن كل توجه هذا الاتجار ، بوجه آخر ، كان من ناحية
أوربا الغربية . في الوقت الذي كانت فيه العداوة قائمة آنذاك بين
المسلمين والمسيحيين وأن كلا منهما وقف وجها لوجه للآخر في حالة
حرب . ولقد أغار قراصنة المسلمين ، دون توقف ، على ساحل خليج
الأسد ، وعلى نهر جنوه ، وسواحل تسكانيا وقطالونيا . وقاموا بالاغارة
على بيزة سنين ٩٣٥ و ١٠٠٤ ، ودمروا برشلونة سنة ٩٨٥ .
ولا نستطيع ، أن نلاحظ قليل أثر للعلاقة بين هذه الاقاليم وموانئ أسبانيا
وأفريقية الاسلامية قبل بداية القرن الحادي عشر . ولقد كان عدم الأمان
كبيرا للغاية . على متن هذا البحر ، ووصلت اغارات القراصنة فيه الى

(١) Georges Marçais, Histoire et historiens de l'Algerie, p. 212 (Paris 1931).

وقال : « منذ الفتح العربي لبلاد البربر صارت هذه البلاد اسلامية تابعة للدولة
المركزية ، باستثناء بعض الفترات ، وقد ظلت الجسور تقريبا مقطوعة بينها وبين أوربا
المسيحية . وصارت أشبه بمقاطعة من عالم الشرق » . ويجب أن أعرف هنا بأن لنص
ابن خلدون علاقة طيبة بما أورده م. مارسيه .

مونبلييه : ولم تعد الأرض الراسخة نفسها في مآمن من أعمال الجدم .
ومن المعروف أن المسلمين كانوا قد أقاموا لهم في جبال الألب في القرن
العاشر الميلادي موقعا عسكريا - في جبال الألب عند « جاردفريني »
Garde-Freinet يأسرون منه أو يقتلون الحجاج والمسافرين العابرين من
فرنسا الى إيطاليا . وفي نفس الفترة أشباع المسلمون الرعب فيما وراء
البرانس بالانغارات التي قاموا بها هناك . وفي سنة ٨٤٦ تقدم عدد من
الشرقيين (المسلمين) نحو روما وحاصروا قلعة القديس أنج -
Saint Ange . وخلال هذه الظروف لم تستطع الأياكن المجاورة
للمسلمين أن تستميل المسيحيين الغربيين الذين كانت النيكبات التي وقعت
عليهم ليس لها ما يعوضهم عنها . وكانوا في منتهى الضعف الذي لم يسمح
لهم بالتفكير في رد الإهانة التي وقعت عليهم وتقوقعوا مرعوبين على
أنفسهم وتركوا البحر لخصومهم ليقدموا عبره على المزيد من مخاطرهم .
ومن الممكن القول حقيقة أن الغرب قد ازدحم من القرن التاسع عشر الى القرن
الحادي عشر بعدد كبير من السفراء الذين قذفوا من أماكن بعيدة جساءوا
الى القسطنطينية . كذلك توجهت أعداد كبيرة من الحجاج المسيحيين الى
بيت المقدس عبر ايليزيا والبحر التيراني حيث ينزلون في جنسوب
إيطاليا أو عند سفن باري اليونانية الراسية على الشاطئ الآخر للأدريانيك
حتى يصلوا ، بعد عناء ، الى غايتهم . ولم يكن هناك ما يخفف عنهم
رحلتهم ، كما كان يحدث في السابق ، ونستطيع القول ان الملاحة الغربية
في البحر المتوسط ، انهدمت تماما بعد الامتداد الاسلامي على جوانبه .

اختفاء التجارة في الغرب الأوربي :

ولم تبق الحركة التجارية آنذاك ، بسبب افتقادها للشريان الذي
يفنوها . ومن السهل أن نعرض أن هذا الشريان ظل غير فاعل لوقت
طويل ، الى أن قام من جديد بتموين حركة تجارة موانئ إيطاليا وأفريقية
واسبانيا وغالبا ، وبلاذهم الداخلية . وليس لدينا شك حين نقرأ
الوثائق التي جاءت ، لسوء الحظ ، قليلة ونادرة للغاية وترجع لذلك
الوقت ، أن نتبين أنه حتى الفتح العربي لم يكن لدى طائفة التجار
المحترفين في كل نواحيهم الوسطة التجارية لارتيساد واستيراد ما هو
ضروري لبلادهم وما هو معدوم عندهم ، بسبب ذلك ظلت المدن الرومانية
التي كانت مراكز للنشاط التجاري ونقاط تجنيع السفن الواقعة على
جانبى البحر قد اتجهت نحو الشبالي قريبا من وادى الراين ، وقد

قامت السفن بادخال البردى ، والتوابل ، ونبذ الشرق ، والزيت الذي
يجرى تفريفه على جوانب البحر المتوسط (*) (١) .

وكان اغلاق هذا البحر بسبب التوسع الاسلامى سببا فى توقف
نشاطه بأسرع ما يكون خلال القرن السابيع الميلادى . ولقد أدى توقف
التجارة فى القرن الثامن الى اختفاء التجار (*) . ولقد ساءت أحوال الحياة
المدنية فى نفس الوقت عما كانت عليه من قبل . ولقد عاشت المدن
الرومانية ، دون شك ، والتي كانت مراكز للإدارات الأسقفية ، حيث
حافظ الأساقفة على اقامتهم فيها وتجمعوا حول اثنين من المجموعات
الكهنوتية ، عاشت فى كساد ، وفقدت الأسقفيات كل عائد اقتصادى كان
يعود عليها من ادارتها للمجالس البلدية . واتضح فى هذه المدن حالة
الفقر العام . واختفت العملة الذهبية من الأسواق وحلت العملات الفضية
التي سكتها الكارولنجيون واستبدلوها مكانها . ولقد حط النظام المالى
الجديد الذى سنوه من قدر الدينار الذهبى الرومانى ، وكان ذلك دليلا
واضحا على قطع الملائق الاقتصادية القديمة . وعلى الخصوص منع اقتصاد
البحر المتوسط .

التدهور الاقتصادى زمن الكارولنجيين :

من الخطأ الشائع اعتبار عهد حكم شارلمان ، كما هو شائع
ومعروف ، فترة ارتقاء اقتصادى . فلقد كان ذلك آنذاك مجرد سراب
خادع . وفى الحقيقة ، لو قارنا فترة حكم المورفنجيين ، بفترة حكم
الكارولنجيين السابقة لها ، فاننا ننظر اليها من وجهة النظر التجارية كفترة
انحطاط وتدهور (٢) (*) . ولقد امتحن شارل نفسه فى هذا الموقف ،
ولم يستطع أن يمنع النتائج المجهتومة لتوقف التجارة البحرية واغلاق
هذا البحر المتوسط ، حقيقة أن هذه النتائج لم تؤثر على مناطق الشمال
نفس التأثير على تلك التى عند حوض البحر المتوسط . ولقد ظلت الموانئ
المتباعدة على بحر الشمال يرتادها الملاحون خلال النصف الأول من القرن

P. Scheffer-Boichorst. Die Syrer in Abendlaude, dans (١)
Mitteilungen des Instituts für Oesterreichische Geschichts forschung; t. VI
(1885), pp. 521 et suiv. ; L. Bréhier, Les colonies des Orientaux
en Occident au commencement du Moyen Age, dans: Byzantinische
Zeitschrift, t. XII (1903), pp. 11 et suiv. ; J. Ebersolt, Orient et Occident,
pp. 28 et suiv. (Paris, 1920); H. Pirenne, Le Commerce du Papyrus
dans la Gaule mérovingienne, dans comptes rendus des séances de
l'Acad. des Inscriptions et Belles-Lettres; 1928, pp. 178 et suiv.

L. Halphen, Etudes critiques sur l'Histoire de Charlemagne, (٢)
pp. 239 et suiv. (Paris, 1921); H. Pirenne, Op. Cit., p. 2.

التاسع الميلادي عند ابحارهم قرب شواطئ بحر الشمال (١) . لكن يجب التحفظ على الرأي القائل باعتبار هذه الأحداث أنها شاهد على عصر اليقظة . انها لم تكن سوى مجرد امتداد لنشاط يحدد الامبراطورية الرومانية. ويحتم بقاءها زمن المورفنجيين (٢) . ومن الممكن بل من المحتمل، أن قيام البلاط الملكي في أكس لاشايل بتجميع أعداده الخاصة الكبيرة قد ساهم ليس فقط في الحفاظ على بقاء الامبراطورية ، بل أيضا في توسيع دائرة التبعية لها في الأقاليم المجاورة ، وقيامها بتحريك تجارى جديد . والامر الذى علينا أن نعرفه ، هو أن النورمان آنذاك لم يتأخروا في وضع نهاية لهذا الوضع الأخير من هذا الماضى . فقتل قامت قبائل الكنتوف Quentovic والمدورستند Durrstede . بالاغارة والسلب والنهب والتخريب على أطراف الامبراطورية قبل نهاية القرن: العاشر الميلادي . وهو تدمير لم يحدث مثله من قبل أبدا في هذه الأنحاء . ولقد ظن البعض آنذاك أن وادى الدانوب قد قام مقام البحر المتوسط في كونه الطريق العظيم للاتصال بين الشرق والغرب . وإن هذا النشاط كان على يد الآفار أولا. ثم على يد الماخياري . وكل ما نستطيع أن نورد به صدد هذا النشاط على هذا الجانب هي دائرة بعض المراكب المحملة بالمح المستورد من ملاحات سالزبورج ، أما بخصوص الادعاء الكاذب بقيام السلاف الوثنيين بالتجارة آنذاك على شواطئ الالب والسال ، فانه قصده بذلك عمليات التهريب الخطرة للسلاح الذى كان البرابرة يشترونه ويعيدون بيعه من عبيد وأسرى حرب ممن كانوا يشكلون جماعات كارولنجية خطيرة مجاورة للامبراطورية . ويكفى القول بما أورده المتخصصون في تتبع هذا الموضوع أن الخطر الذى ساد تخومهم الحربية لم يبق على أى حركة تجارة طبيعية منتظمة .

- ٢ -

حالة الزراعة في مجتمع القرن التاسع :

من الجلى أن نعرف أن أوروبا الغربية ، ابتداء من نهاية القرن الثامن الميلادي ، كانت قد انتكست في زراعتها ولم تعد كبلاد زراعية محضه .

O. Fengler, QuentoWic, seine maritime Bedeutung unter (١)
Morow, Wernert und Karolingern, dans Hansische Geschichtsblätter,
1907, pp. 91 et suiv. ; H. Pirenne, Drap de Frise ou draps de
Flandre , dans Vierteljahrschrift für Social - und Wirtschaft-
sgeschichte, VII (1909), pp. 308 et suiv. H. Poelman, Geschiedenis
van den bandel van Noordnederland gedurende het Merrowingische
en Karolingische tijdperk (Amsterdam 1908).

F. Cumont, Comment la Belgique fut romaniste, 2e éd. (٢)
(Bruxelles, 1919).

ولقد كانت أرضها هي المصدر الوحيد للقوت والأصل الأوحى للعنى والثروة . ولقد عاشت جميع طبقات سكان الامبراطورية ، الذين لم يكن لهم أى ايراد غير ما تدره الأرض عليهم ، عيشة الأقتان المتواضعة ، بطريق مباشر أو غير مباشر على ما تنتجه الأرض من زرع سواء كان من نتاج عملهم أو نتاج المكوس المفروضة عليها . ولم تعد ملكية الأرض آنذاك استخدما اقتصاديا ، وقد كانت كل الحياة الاجتماعية فى الامبراطورية قائمة على امتلاك الأرض . وكان من المستحيل على الدولة أن تحافظ على نظامها العسكرية والادارى الا بالاعتماد عليها . وكانت الدولة لاتستطيع أن تجند الا الحائزين على الاقطاعات والموظفين الذين كانوا من كبار الملاك ، فى هذه الظروف أصبح من المستحيل حماية سيادة رأس الدولة . واذا ما وجدت رسميا الا أنها اختفت عمليا . والنظام الاقطاعى يمثل ببساطة انحلال السلطة العامة على أيدي ولايتها ، الذين ، بسبب اعتقاد كل منهم أنه باستحوذه على حصة من الأرض ، أصبح مستقلا واعتبر السلطان الذى أحرزه كجزء من ارثه . وفى الحقيقة فإن ظهور النظام الاقطاعى فى غرب أوروبا ، خلال القرن التاسع ، لم يكن سوى انعكاس فى المجال السياسى لعودة المجتمع لحكم حضارى محض .

ومن وجهة النظر الاقتصادية فإن الشيء الملفت للنظر والمميز لنظام هذه الحضارة هو الحالة العظيمة التى كانت عليها . وقد جاء أصل هذا التقدم الاقتصادى للدولة منذ القدم ، ومن السهل تتبع خطواته الأولى لو عدنا الى الماضى ، فلقد كان هنالك ملاك كبار للأرض فى غالة قبل حكم قيصر ، كذلك كان نفس الشيء فى ألمانيا قبل الغزوات . ولقد سمحت الامبراطورية الرومانية للدوليات الغالية الكبرى بالقيام ولقد وفقت هذه الولايات نفسها سريعا مع النظام العام الذى ساد كل ولايات الغزاة الفاتحين . ولقد ظلت المدينة الغالية فى العهد الملكى ، بتكوينها من عدة مستعمرات بها الكثير من الملاك ، تمثل نفس نمط السخرة الذى وصفه المزارعون الايطاليون على عهد كاتو . ويرجع ذلك الى فترة الغزوات الجرمانية ، مع تغيير طفيف ، فان فرنسا المورفينجية صيانت هذا النظام وقدمته الكنيسة الى ما وراء الراين ، خطوة بخطوة . حين تحولت هذه البلاد الى المسيحية (١) .

وهكذا ، فلم يكن نظام الدولة الكبرى ، على أى وجه من الوجوه ، واقعا جديدا . ولكن الجديد هو الطريقة التى عملت بها من لحظة اختفاء

(١) لكل ذلك فضلت أن احيل القارئ الى التقرير الهائى الذى كتبه M. Bloch

تحت عنوان :

Les caractères originaux de l'histoire rurale française, p. 67 et seq.

التجارة والمدن . وطالما كانت التجارة قادرة على تصدير منتجاتها والمدن عاقرة بأسواقها ، قادت الدولة الكبرى واستفادت من عائدات البيع الخارجية ، وشاركت في النشاط الاقتصادي الصام كمصدر للمواد الغذائية ومستهلك للسلع المصنوعة . وبمعنى آخر ، استمرت الدولة في مقايضة تبادلية مع العالم الخارجي . ولكنها توقفت الآن عن عمل ذلك ، لأنه لم يعد هنالك تجار ولا مديون . ولم تستطع البيع ، طالما لم يكن هنالك أى مشترين ، ومن أين لها أن تصرف منتجاتها التى لم يعد هنالك طلب عليها ، ولم تكن هنالك حاجة لها ؟ ، والآن وقد عاش كل شخص على أرضه ، لم يعد أى شخص قلقا حول شراء طعام من الخارج ، وبسبب رغبة الحاجة المحضة ، اضطر الملاك أن يستهلكوا انتاجهم الخاص . ولذلك ، فإن كل ولاية كرسست تقسها لنوع من الاقتصاد الذى وصفه بالاققتصاد المغلق للدولة ، وهو اقتصاد ، كان يتساقط ، اقتصادا بلا أسواق . ولم ينبثق هذا النظام طوعا ولكن الضرورة دعت اليه ، وليس لأن الدولة لم ترد أن تبيع ولكن لأن المشترين لم يعودوا يأتون الى داخل مجالها . ولقد قام اللورد بترتيبات لم تقتصر على أن يعيش على انتاج ناحيته وحاجات مزارعيه ، ولكنه أراد أن ينتج فى بلده ، ما لم يستطع استيراده من الخارج ، من الأدوات والآلات والملابس التى يحتاجها لزراعة أرضه ولللبس خادميهِ . ولذلك ظهرت الورش الصناعية الصغيرة التى ميزت نظام الدولة فى أوائل العصور الوسطى ، التى حلت بسبب غياب التجارة والصناعة . وبات من الواضح أن الدولة عرضت رجالها لمخاطر الجو التى لم يكن هنالك مفر منها . وإذا حدث أن ساء المحصول فإن العبد يقع على القلة المطحونة ويضيق من الضروري استخدام كل المهارات فى الحصول على الغلال اللازمة . ويرسل الأقتسان الى خارج الولاية للحصول عليها من المناطق المجاورة الأخصب تظا ، أو الى أى مناطق تكون خاضعة لحكمها . ومن أجل شراء هذه الغلال بالمال يقوم السيد بصهر فضياته لتسك عملة يشتري بها ، أو يستدين من رئيس أقرب دير له . وهكذا ، وتحت هذه الظروف النجوى ، وجدت تجارة متقلصة بين الحين والحين الآخر ، واستمرت حركة تجارية متقطعة على طرق البقوافل والبررات المائية . وبالمثل ، فقد بحث الناس ، خلال سنوات الانعاش ، أن يبيعوا الفائض من كرومهم أو محاصيلهم بنفس الطريقة ، وأخيرا ، فإن الملح ، كيهار ضرورى للحياة ، قد وجد فقط فى بعض المناطق ، حيث اضطرروا للذهاب اليها والحصول عليه . ولكن ليس هنالك فى كل هذا ما يمكن أن يعتبر نشاطا اقتصاديا ، بالمعنى المحدد والمفهوم . ومن الممكن القول بأن التاجر أصبح رهينة للظروف . ولم يعد البيع والشراء العرفة

الطبيعية لأي شخص ، بل صارتا وسائل لجلب ما يحتاجه الناس حين تضطربهم الحاجة الى ذلك . وتوقفت التجارة تماما على أن تصبح أحد فروع النشاط الاجتماعي الذي تطمح كل دولة في أن تتزود بواسطته من كل احتياجاتها . وهذا يفسر لنا سبب اننا نجد بعض الكنائس في المقاطعات بدون كروم ، مثلما في الأراضي المنخفضة ، لا تبذل أدنى مجهود للحصول على ما في وادي السين أو في أودية الراين والموسيل من كروم تسد بواسطتها ما تحتاج اليه مخازن نبيذهم في كل عام (١) .

ولقد بدت لأول وهلة معارضة الأسواق العالمية لشلل هذا العصر الاقتصادي ، لذلك فانها من بداية القرن التاسع بدأت في الزيادة التدريجية ، وبدأت أسواق جديدة أخرى تقام . لكن بعدها يثبت تفاهتها . والسوق الوحيد الذي ظهرت أهميته هو سوق سان دينيس ، بالقرب من باريس ، الذي كان يجلب مرة في العام ، من خلال حججه ، البائعين والمشتريين من مناطق بعيدة . خلاف ذلك ، لم يكن هنالك سوى أسواق أسبوعية عديدة صغيرة ، حيث يعرض فيها المزارعون القادمون من الضواحي للبيع قليلا من البيض ، والدجاج ، وأرطسالا من الصوف ، أو بعض الملابس المنزلية . وقد بدأ من طبيعة ما هو معروض للبيع عدم قيمته ، وما يقدر عنه بقليل من البنسات في القيمة (٢) . وباختصار ، فإن أوامر شارلمان لأقنان أرض ولاياته (بالآ يشغلوا أنفسهم بالأسواق) تظهر أنهم كانوا مشدودين لرغبتهم في الاستمتاع بالأسواق عن اهتمامهم بالتجارة ذاتها (٣) .

لذلك ، فنحن نبحث دون جدوى ، عن تجار محترفين . فلم يكن هنالك منهم سوى بعض اليهود ، الذين هم وحدهم ، قاموا بالتجارة منذ بداية العهد الكارولنجي ، حتى ان كلمة يهودي وكلمة تاجر صارتا تحيلان آنذاك معنى واحدا مترادفا . ولقد استقر عدد منهم في الجنوب ، ولكن غالبيتهم جاءت من أقطار البحر المتوسط الاسلامية ، ووصلوا الى غرب وشمال أوروبا عبر أسبانيا . وكانوا هم الرازانية (الريدانية) ، وهم مسافرون دائمون ظلوا على اتصال وثيق بالأقطار الشرقية (١) . ولقد

(١) H. Van Werveke, Comment les établissements religieux belge se procuraient — ils du in Revue belge de philovin au haut Moyen Age ? et d'hist, t. II (1023), p. 643.

(٢) Edictam Pistense 20. Boretius, Capitularia, t. II, (1923), p. 319. Capitulaire de Villis, 54, Ibid., t. I. p. 88.

(٣) عن اليهود انظر كتاب المسالك والممالك لابن خرداذبة (ت حوالي ٨٥٠ م) ، ترجمة ياربير دى منيار ، المجلة الآسيوية ، ١٨٦٥ .

تخصص هؤلاء فى الاتجار فى البضائع المرتفعة القيمة مثل التوابل والاقمشة اغالية الثمن التى كانوا يصدرونها ، بجهد زائد ، من سريريا ومصر وبيزنطة الى الامبراطورية الكارولنجية . ومن خلالهم ، استطاعت الكنيسة الحصول على البخور اللازم لاحتفال الصلوات الدينية ، كذلك على المنسوجات الغنية التى مازالت تشكل جزءا من كنوز الكاتدرائيات حتى يومنا هذا . ولقد جلبوا الفلفل ، وهو بهار كان نادرا وعزيزا ، حتى انه كان يستعمل فى بعض الاحيان بديلا عن النقود ، وجلبوا كذلك الخزف المثل بالمينا أو العاج أو المنتجات الشرقية ، التى كانت تمثل كماليات الارستقراطية . وهكذا فان التجار اليهود شكلوا طبقة محدودة للغاية من العملاء . ولذلك حققوا أرباحا وافرة ، ولكن رغم هذه الخصوصية لهم ، فاننا لا نستطيع أن نعتبر دورهم الاقتصادى أكثر من كونه دورا مساعدا . ولم يفقد المجتمع شيئا جوهريا باختفائهم .

وهكذا ، من وجهة النظر الأساسية ، فان غرب أوروبا ، من القرن التاسع فصاعدا ، بدا فى ضوء كونه مجتمعا فلاحيا فى جوهره ، البيع والشراء فيه وانتقال حركة البضائع عبره قد هوت الى ادنى حد ممكن . ولقد اختفت طائفة التجار فيه . وارتبطت آنذاك مصائر الناس بعلاقاتهم بالأرض ، التى تمتلكها أقلية علمانية وملاك كنسيون ، يعمل تحت وطأهم عدد كبير من الأجراء موزعين فى اطار الولايات الكبرى . وسمتلك الأرض فى ذلك الوقت ، كان فى نفس الوقت أن تمتلك الحرية والقوة ، لذلك كان مالك الأرض آنذاك لوردا أيضا . وأن تحرم من ذلك معناه أن تنزل الى العبودية ، لذلك فان كلمة (قن) كانت تطلق على المزارع الذى يعمل على أرض الحكومة أو يعيش فى العبودية . هذا وليس من الأهمية بمكان أن هناك عددا من الأفراد عاشوا هنا أو هناك احتفظوا بملكية أراضيهم وبعريتهم الشخصية . وكقاعدة عامة فان العبودية كانت الوضع الطبيعى لمجموعات المزارعين ، ومن الممكن القول انها كانت لكل المزارعين . ولقد كانت هنالك ، بالطبع ، درجات فى هذه العبودية ، فانه الى جانب أولئك الذين روئوا العبودية من نظام الرق القديم ، فاننا نجد هنالك أحفاد صفار الملاك الذين دخلوا برغبتهم تحت حماية الكبار . ولم يكن جوهر الحقيقة فى وضعهم الشرعى ولكنه كان فى ظروفهم الاجتماعية ، فلقد أصبح ، من الناحية الاجتماعية ، كل من يعيش على أرض اقطاع تابعين ، مسخرين وفى نفس الوقت تحت الحماية .

فى مثل هذا المجتمع الصارم الذى يتسيد فيه رجال الدين ، يصير الأولويات والأهمية الشديدة لكل ما يتصل بالكنيسة ، التى تملك الاقتصاد فى الحال والسطوة الاخلاقية . ولقد كانت ولاياتها التى لا تعد متوقعة

فى المكانة والدرجة عن تلك التى كانت لولايات النبلاء ، برغم تفوقها عنها فى التعليم • والكنيسة وحدها ، كانت لها مصادر مالية اضافة الى تبرعات الحجاج وصدقاتهم سمحت لهم ، فى أوقات الفاقة ، أن تقرض العاطلين المحتاجين • علاوة على ذلك ، ففى مجتمع كان قد انتكس فى جهل مطبق لا يتبقى الا هاتان الأداتان الضروريتان من أدوات الثقافة ، وهما القراءة والكتابة ، ومن رجال الكنيسة الذين اتخذ الملوك والأمراء وزراءهم ومستشاريهم وكتابهم ، كان ، باختصار ، من المستحيل على غيرهم من سائر المتعلمين أن يجدوا وظائف لهم • ومن القرن التاسع حتى القرن الحادى عشر كانت كل الأعمال الحكومية ، فى الحقيقة ، فى يد الكنيسة ، فقد كانت لها فى ذلك اليد العليا ، مثلما كانت لها فى الفنون • ولقد كان تنظيم ولاياتها مثاليا ، وقد حاولت ولايات النبلاء ، دون جدوى ، أن تتساوى معها فيه ، ذلك لأنه كان فى الكنيسة فقط رجال ادارة ممتازون ، يستطيعون ترتيب الأمور المالية ويحتفظون بسجلات الحسابات ، ويقدرون الإيرادات والمعونات وبالتالى يوازنون بينها • وبذلك لم تكن الكنيسة فقط سلطة العصر الأخلاقية ، ولكنها كانت أيضا القوة المالية الكبرى •

زيادة على ذلك ، فان تصور الكنيسة للعالم ، كان متوائما مع الظروف الاقتصادية لذلك العصر ، الذى كانت فيه الأرض الأساس الأوحى للمسلم الاجتماعى • فلقد أعطى الله الأرض للناس ليعيشوا فى الحياة تحت ظل عبوديتها • وهدف العامل ليس هو فى أن ينمى ثروته ويفتنى ولكن ليبقى فى الوضع الذى ولد عليه ، حتى تنتهى هذه الحياة الفانية ويعود الى الحياة الأبدية • وحياة التصوف هى الحياة المثلى التى على كل المجتمع أن يوجه نظره اليها • ولكى نطلب الفنى عليك أن نفع فى شروق البخل والشح • والفقر أصل الهى فرضته العناية الإلهية على العباد ، ولكن وجب على الأغنياء أن يرفعوا من معاناة الفقراء منه بالصدقة والإحسان ، وقد ضربت لهم الأديرة المثل فى ذلك : « دع الفائض من محصولهم ، ثم خزنه ووزعه بالمجان على الناس ، تماما كما تفعل الكنائس نفسها حين تعطى سلفيات من عندها للمحتاجين وقت الحاجة » •

الاقراض وقت الحاجة بالفائدة (بالربا) عمل مكروه • وقد كان ذلك مكروها منذ بداية الاكليروس ، ومنذ القرن التاسع نجحت الكنيسة فى تحريمه لسواد الناس وفى استبقائه من اختصاص المحاكم الاكليريكية • اضافة الى ذلك ، فان التجارة عموما كانت أقل ضررا بالسمعة من الاتجار فى المال ، لأن الاتجار فى المال خطير على الروح ، التى انصرفت عن التفكير

فى نهايتها الحتمية • « فروح التاجر فى المال تنصرف تماما عن التفكير فى خالقها » (١) •

ومن السهل أن نرى كيف أن هذه المبادئ تناسقت مع الحقيقة وكيف أن المثل الاكليريكية ، قد وفقت نفسها مع الحقيقة • ولقد زودت هذه المبادئ الدولة وأعطتها التبرير لتصرفاتها بالأشياء التى بواسطتها كانت الكنيسة أو المستفيدين منها • ما هو الشيء الأكثر طبيعية من استهجان الربا ، والتجارة ، والربح لذات الربح ، فى تلك القرون التى كانت فيها كل ولاية تعتمد على مواردها الذاتية ، وكانت ، من الطبيعى ، تكون لنفسها عالما صغيرا لها ؟ وهل هنالك فائدة أكثر ، من القول بأن المجاعة وحدها هى التى تجبر الناس على الاقتراض من جيرانهم ومن ثم تفتح الباب لكل تصسف فى المضاربة التجارية ، والربا والاحتكار ، الى الاغراء الذى لا يقاوم لاستغلال الحاجة ، اذا لم تحرم الآدب الدينية هذه التصسفات الزائدة ؟ بالطبع ، فان هنالك تفاوتا كبيرا بين النظرية والتطبيق ، والأديرة نفسها كانت من النادر أن تتجاوز أوامر وتعاليم الكنيسة • ولكن ، من أجل كل ذلك ، كان تأثيرها الروحى عميقا على العالم ، جعل الناس لقرون يعتادون الممارسات الجديدة التى يتطلبها الاحياء الاقتصادى للمستقبل وليتعلموا أن يتقبلوها كتشريع ، دون تحفظ عقل ، ومكاسب تجارية ، وتوظيف للأموال ، والاقتراض بالفائدة •

الفصل الاول إحياء التجارة

١ - في البحر المتوسط (١)

لقد أغلق الغزو الاسلامي لحوض البحر المتوسط في القرن السابع الميلادي هذا البحر أمام مسيحيي الغرب ، ولكنه لم يغلقة أمام كل المسيحيين . حقيقة أن البحر التيراني ، أصبح بحيرة اسلامية ، ولكن ذلك لم يكن مصير المياه التي يسبح فيها الجنوب الايطالي ، أو مياه الأدرياتيكي أو بحر ايجه . ولقد رأينا كيف أن الاساطيل البيزنطية في هذه العروض نجحت في صد الغزو الاسلامي ، وبعد الاختبار الذي وجهه عند حصار القسطنطينية سنة ٧١٩ م ، فإن تزايد الهجوم الاسلامي لم يزد بعد ذلك في البسفور . لكن الصراع بين العقيدتين استمر ، مع تناوب النجاح والافاق . ولقد صمم العرب ، سادة افريقية ، على حصار صقلية ، التي استولوا عليها تماما بعد سقوط سراقسة في أيديهم سنة ٨٧٨ م ، وقد كان ذلك الحد لغزوهم . ولقد واصلت مدن جنوب ايطاليا : نابلي وجنوه وأمالفي وسالرنو في الغرب ، وباري في الشرق ، ولاهها للامبراطور البيزنطي ، كذلك فعلت البندقية ، التي كانت على رأس الأدرياتيكي ، ولم تكن تبدي أى خوف من هجمات المسلمين .

ولم يكن الرباط الذي ربط هذه الموانى بالامبراطورية البيزنطية في حقيقته رباطا قويا ، ولكنه كان رباطا ضعيفا . ولقد قام النورمان الذين أنشأوا دولتهم في ايطاليا وصقلية (١٠٢٩ - ٩١) بقطع هذا الرباط نهائيا . أما البندقية ، لما كان الكارلنجيون لا يستطيعون احكام قبضتهم عليها في القرن التاسع ، فقد رغبت في أن تظل تحت سلطة باسيلئوس ، لأنه فطن الى ذلك ، وسمح للمدينة أن تتحول بالتدريج الى جمهورية مستقلة . أما عن الباقي ، فاذا كانت علاقات الامبراطورية السياسييه مع

Bibliography — W. Heyd and A. Schaube, The general bibliography, p. 227. (١)

H. Kretschmayer, Geschichte von Venedig, Gotha, 1905-34, 3 vo's — R. Heynen, zur Entstehung des Kapitalismus in Venedig, Stuttgart - Berlin, 1905 — L. Brentano, Die byzantinische Volkswirtschaft, in Jahrbuch für Gesetzgebung, Verwaltungen, etc. t. XLI, 1917. Pirenne, Medieval Cities : Their Origin and the Revival of Trade, trans'ated by : Frank D. Halsey, Prince'ton, 1925 — French édition, Les Villes du Moyen Age, Brussels, 1927.

ملحقاتها الإيطالية البعيدة غير نشطة ، فانها تقوم بتعديلها بواسطة القيام بتجارة نشطة معهم للغاية . وفى هذه الحالة ، يسرون فى ركايتها ، وكما يقال ، يديرون ظهرهم للغرب ويتجهون بأنظارهم نحو الشرق . وأما عن تمويل وامداد القسطنطينية التى كان يزيد عدد سكانها عن المليون نسمة آنذاك ، فانها كانت تستقبل وتستوعب صادراتها ، وفى المقابل تقوم مصانعها وأسواقها بمدهم بما يحتاجون من منسوجات حريرية وتوابل لم يكن لهم غنى عنها .

أما عن الحياة المدنية ، بكل ما تتطلبه من ترف ، فان هذا الترف لم يختف فى الامبراطورية البيزنطية كما حدث فى امبراطورية الكارولنجيين . والعبور من الأخيرة الى الأولى ، كان كالعبور الى عالم آخر . هنا ، تطور اقتصادى لم يتأثر بتقدم الاسلام ، وتجارة بحرية مهمة استمرت فى امداد المدن العامرة بالسكان بالصناعات والتجار المحترفين . وليس هنالك مزيد من التباين الملفت للأنظار يمكن تصوره من ذلك الذى كان بين غرب أوروبا ، حيث كانت الأرض هى كل شئ والتجارة لاشئ ، والبندقية المدينة التى لا أرض لها ، تعيش على التجارة فحسب .

ولقد توقفت القسطنطينية والموانئ المسيحية الشرقية عن أن تكون المنظور الوحيد لملاحه مدن إيطاليا البيزنطية والبندقية . ولقد كانت روح الاقدام والبحث عن المكسب أشد قوة وأكثر ضرورة من أن يسمحا للمتدينين المتشددين أن يمنعوا التجار لوقت طويل من تجديدهم علاقاتهم التجارية السابقة مع افريقية وسوريا ، برغم أن هذه البلاد صارت الآن فى يد (الكفار) . ولقد عادت الاتصالات التجارية من القرن التاسع ونمت بعد ذلك وازدادت ولقد كانت ديانة عملائهم تعنى القليل لهم مقابل ما كانوا يحصلونه منهم من نفع مادي . وان حب الكسب ، الذى دمغته الكنيسة ووسمته باسم الشح ، ظهر هنا فى أفطح مظاهره . ولقد صدر البنادق الى (حريم) مصر وسوريا صغار الرقيق ، الذين حملوهم أو ابتاعوهم من الساحل الدلاشى ، ورزح هؤلاء فى العبودية وأسهم ذلك فى ثراء هذه البلاد ، كما فعلت تجارة الرقيق فى القرن الثامن عشر على يد الشاحنات الانجليزية والفرنسية الكثيرة . يضاف الى ذلك تصدير الخشب والحديد ، اللذين لم يكونا متوافرين فى الأقطار الاسلامية ، برغم عدم شك هؤلاء فى أن هذا الخشب سوف يستخدمه المسلمون فى بناء السفن الحربية والحديد فى السلاح المستخدم ضد المسيحيين ، وربما كان ضد سفن البنادق الحربية . والتاجر هنا دائما لا ينظر الا لكسبه المادى ، وعقد الصفقات التجارية المربحة . ودون جدوى ، جاء تحذير البابا وتهديده بتحريم بيع الأرقاء المسيحيين ، أو تهديد الامبراطور البيزنطى بمعاذلة كل

من يمد الكفار بأدوات تستخدم في الحرب • ولقد استعاد البندقانيون ،
التجار البيض ، في القرن التاسع من الاسكندرية مخلفات القديس
مارك ، وحفظوها تحت حمايتهم ، واعتبروا تقدم الثروة الذي أحرزوه هو
ثمننا لهذا العمل العظيم الذي قاموا به •

ولقد استمر هذا التقدم بالطبع • وبكل الوسائل ، فان مدينة
المستنقعات كرسست نفسها بنشاط وهمة مدهشة في تقدم هذه التجارة
البحرية ، التي صارت أساس وجودها • ولقد مارس كل سكانها تلك
التجارة واعتمدوا عليها ، كما اعتمد رجال اليابسة في حياتهم على
الأرض • وهكذا فان عبودية الأرض ، النتيجة الحتمية لحضارة الفلاحين
الريفية آنذاك ، لم تكن معروفة في هذه المدينة ، مدينة البحارة والصناع
والتجار • ولقد أقامت مجازفات الثروة فقط بينهم فوارق اجتماعية
مستقلة عن الأوضاع الموهودة • ومنذ عهود بعيدة ، خلقت أرباح التجارة
طبقة من أغنياء التجار ، الذين أفرزت عملياتهم التجارية نمطا رأسماليا
محققا • ولقد كان ظهور الجمارك في القرن العاشر في هذه المدينة نتيجة
تأثير واقتباس من نظام الجمارك البيزنطي •

ولقد كان استخدام الكتابة أمرا مهما بالنسبة للأشغال التجارية ،
وشاهدا على النمو الاقتصادي • فلقد شكل « كاتب الحسابات » جزءا من
أدوات كل تاجر يبحر على سفينة ومن ذلك نستطيع أن نستنتج أن
أصحاب السفن التجارية أنفسهم قد تعلموا سريعا أن يحتفظوا بدفاتر
حسابات لهم وأن تكون لهم خطاباتهم مع مراسليهم (١) • وليس هنالك
أى لوم يذكر في هذه الكتابات بصدد الأعمال التجارية الواسعة
الحجم • ولقد قام بذلك أكثر العائلات أهمية وشهرة • وضرب السجلات
أنفسهم المثل في ذلك ، وظلوا يقومون بذلك منذ منتصف القرن التاسع ،
ولقد استنكر ذلك في عصره الأب لويس التقي • وفي عام ١٠٠٧ م أفرز
بطرس الثاني أورسيليو زكاة للفقراء من ربح حصل عليه من الاتجار
مقداره ١٢٥٠ جنيها • وعند نهاية القرن الحادى عشر ، امتلأت المدينة
بالبطارقة الأغنياء ، أصحاب نصيب في السفن المتاجرة ، الذين امتدت
حوالياتهم ومخازنهم التجارية جنبا الى جنب على خليجان الجزيرة العائمة •

Heynen, Op. cit., p. 92.

(١)

أقدم الامثلة على ذلك يرجع الى سنة ١١١٠ م ، لكن من الواضح أن ذلك كان أقدم
من ذلك التاريخ •

ولقد كانت البندقية آنذاك قوة بحرية عظمى • ونجحت قبل عام ١١٠٠ م واستطاعت أن تطور الجزء الدماشي من الأدرياتيك من قرصنة البحر الذين كانوا منتشرين هناك ، وأن تحكم قبضتها على كل ساحل البحر الشرقي ، ذلك الجزء الذي اعتبرته ضمن نطاقها وظل كذلك لمدة قرون • ولكي تحافظ على السيطرة على مداخلها الى البحر المتوسط ، ساعدت سنة ١٠٠٢ م الأسطول البيزنطي في طرد المسلمين من جزيرة بارى • وبعد ذلك بسبعين عاما ، حين قامت دولة النورمان في جنوب إيطاليا على يد روبرت جيسارد ، وهددتها بمخاطر بحرية عليها وعلى الامبراطورية اليونانية ، قامت بالتحالف مع البيزنطيين لمحاربته والتغلب على النورمان الخطرين • وبعد موت روبرت (١٠٧٦) تبدد حلم هذا الأمير الطموح بالتوسع في البحر المتوسط • وانقلبت الحرب لصالح البندقية وفي نفس الوقت تخلصت من المنافسة مع نابلي وجنوة وسالرنو ، وفوق ذلك مع أمالفي • هذه المدن التي كانت قد انحازت لدولة النورمان ، انهارت معها، وتركت أسواق القسطنطينية والشرق للبيزنطيين •

وبسبب ذلك تمتع البنادقة بتفوق وانتعاش كبيرين لمدة طويلة في هذه الأسواق • وفي سنة ٩٩٢ م حصل الدوق بيترو الثاني أورسيلو على مرسوم من الامبراطور باسيل والامبراطور قسطنطين بإعفاء المراكب البندقائية من الرسوم التي كانوا يدفعونها في ميناء أيبندوس • وظلت العلاقات نشطة بين البندقية وموانئ البسفور ، بحيث قامت للبيزنطيين مستعمرة في البسفور ، كانت لهم فيها امتيازات قضائية صادقة عليها الأباطرة • وفي الأعوام التالية ، أقام البنادقة لهم مستعمرات أخرى في أنطاكية وأطنة وطرسوس وافسوس وهرقليا وسالونيك وأثينا وكورفو • وفي كل مواضع الامبراطورية تملك البندقية قواعد امداد ونفوذ ، قامت بتأمين سيادتها التجارية • ومنذ نهاية القرن الحادي عشر ، يمكن أن يقال انها قد أحرزت احتكارا عمليا للتصدير في كل أقاليم أوروبا وآسيا التي مازالت في حوزة حكم القسطنطينية • ولم يحاول الأباطرة أن يتصدوا لمكانتها ولم يكن من مصلحتهم أن يتنازعوها • وان الامتياز الذي منحه اياها الامبراطور اليكسيس كومنين في مايو ١٠٨٢ يمكن أن يعتبر أقصى تخصيص للسيادة البندقائية في الامبراطورية البيزنطية • ومنذ ذلك التاريخ كان البنادقة معقنين ، داخل الامبراطورية • من كل المكوس التجارية ، وبذلك تميزوا عن سائر عناصر الامبراطورية • وان الاتفاق الذي استمروا على القيام به بصدد ادخال البضائع الأجنبية الى الامبراطورية كان دليلا كافيا على أن كل تجارة الجانب الشرقي البحرية للبحر المتوسط

كانت في أيديهم وبرغم ما عرفناه عن تقدم تجارتهم مع بلاد الاسلام منذ القرن العاشر الميلادي ، فإن كل شيء يشير أنها نمت بنفس الطريقة ، ان لم تكن بنفس القوة .

٢ - في بحر الشمال وبحر البلطيق (١)

كان المنظر الذي عليه البحران الداخليان : بحر الشمال وبحر البلطيق ، اللذان يغسلان شواطئ أوروبا الشمالية على البحر المتوسط ، الذي كانا ذيلا له ، من منتصف القرن التاسع الى نهاية القرن الحادي عشر مختلفا تماما عن الحال الذي هو عليه الآن ، ولا يتشابه معه في أي سمة جوهرية . لأننا هنا ، وأيضا ، على الساحل ، ويمكن القول على الطرف الأوروبي ، نجد نشاطا بحريا وتجاريا ملفتا للأنظار مبينا لنشاط القارة الاقتصادية الزراعية .

ولقد رأينا من قبل كيف أن نشاط ميناء كينتوف ودورستيد قد توقف بعد غزو الفايكنج في القرن التاسع . وبسبب نقص الأسطول ، لم تستطع الامبراطورية الكارولنجية أن تدافع عن نفسها ضد غزوات برابرة الشمال ، كما دافعت الامبراطورية البيزنطية عن نفسها ضد هجوم المسلمين . ولقد استغل الاسكندنافيون النشطاء هذا الضعف جيدا لأكثر من نصف قرن ، في شن غارات سنوية ، ليس فقط عن طريق مصبات الأنهار الشمالية ولكن أيضا عن طريق أخوار المحيط الأطلنطي . لكن رجال الشمال لم يقوموا بالسلب والنهب . ولقد استطاع سادة البحر أن يبرروا عدوانهم ، على أن قصدهم لم يكن منه الغزو ، رغم أنهم كسبوا مناطق استقرار صغيرة لهم على القارة وفي الجزر البريطانية ، وهذا أقصى ما كانوا يستطيعون فعله . وقد صاحب اغاراتهم على داخل أوروبا في جوهرها تخريب كبير . وكان تنظيم الفايكنج ، كما يتضح ، معدا بعناية تامة ، وكانوا جميعهم قد انطلقوا من معسكر رئيسي حصين ، وقد جمعوا في هذا المعسكر غنائمهم وأسلابهم التي غنموها من المناطق المجاورة

Bibliography — A. Bugge, Die nordeuropäischen Verkehrswege (١) im frühen Mittelalter und die Bedeutung der Wikinger für die Entwicklung des europäischen Handels und der europäischen Schifffahrt, in Vierteljahrsschrift für Social-und Wirtschaftsgeschichte, t. IV, 1906. — W. Vogel, Geschichte der deutschen Seeschifffahrt, Berlin, 1925. — J. Kulischer, Russische Wirtschaftsgeschichte, t. I, Berlin, 1915. — E. Paléon, Du commerce des Arabes dans le nord de l'Europe avant des croisades, in Athénée Oriental, Paris, 1882. — O. Montelius, Kulturgeschichte Schwedens, Leipzig, 1906. — K.T. Stra ser, Wikinger und Normannen, Hamburg, 1928.

وكدسوها في انتظار ارسالها الى الدانمرك أو النرويج . ولقد كان الفيكنج في حقيقتهم ، قراصنة ، والقرصنة هي المرحلة الأولى للتجارة . وقد ثبتت صحة ذلك في نهاية القرن التاسع ، حين توقفت غاراتهم ، وتحولوا ببساطة الى تجار .

ولتفهم غارات الاسكندنافيين ، علينا أن نتذكر أنها لم تكن جميعها موجهة نحو الغرب . ففي الوقت الذي ألقى فيه الدانيون والنرويج بأنفسهم على أراضي الامبراطورية الكارولنجية ، وانجلترا ، واسكتلندة وايرلندة ، فإن السويديين اتجهوا نحو روسيا . ومن وجهة نظرنا ، ليس مهما أن نعرف اذا ما قد كانوا قد طلبوا المساعدة من أمراء السلاف في وادي الدنيبر أثناء صراعهم مع البشناق ، أو سواء ، في البحث عن نصر ، قد قاموا باندفاع تلقائي نحو شواطئ البحر الأسود البيزنطية ، عبر الطريق الطبيعي والكبير الذي كان قد سلكه تجار اليونان منذ عهود بعيدة من خرسونيز وبحر آزوف في طلب كهرمان البلطيق . ويكفي أن نقرر أنه منذ منتصف القرن التاسع قد أقاموا معسكرات حصينة على طول نهر الدنيبر وروافده ، مثل تلك التي أقامها اخوتهم الدانيون والنرويجيون في ذات الوقت في أراضي أنهار الشيلد والميزوالسين . ولقد أصبحت هذه المواقع الحصينة البعيدة بعدا كبيرا عن أرضهم الأم قلعا دائمة ، أحكم منها مهاجموهم الهجوم والحرب على من جاؤهم . ومن هناك جمعوا الضرائب من الشعوب المغلوبة وأخذوا العبيد ، كذلك جمعوا العسل والفراء من غاباتهم البكر والغنية بخيراتها التي لم تكن قد استغلت بعد . ولكن قبل فوات وقت طويل ، دفعهم الوضع الذي صاروا عليه الى أن يتحولوا الى تجار .

وجنوب روسيا ، حيث استقر الفيكنج ، يقع ، في حقيقته ، بين منطقتين حضاريتين زاهرتين . فالى الشرق ، أسفل البحر الأسود ، تمتد الخلافة العباسية حتى الجنوب ، والبحر الأسود يسبح في شواطئ الامبراطورية البيزنطية حتى القسطنطينية . ولقد شعر الاسكندنافيون في حوض الدنيبر في الحال بهذا الجذب المضاعف . ولقد بين لهم قبل العرب واليهود والبيزنطيين ، الذين كانوا يترددون على هذه المناطق قبل مجيئهم اليها ، الطريق الذي عليهم اتبعه . ولقد وضعت البلاد التي فتحوها تحت تصرفهم سلعا جاهزة للتجار بها مع الامبراطوريات الغنية وتحقق لهم حياة مترفة ، وهذه السلع هي : العسل والفراء ، ويأتي الدقيق قبلها ، الذي يحتاج اليه المسلمون ، كما أغرت أرباحه العالية تجار البندقية .

ولقد ترك لنا قسطنطين بروفيروجينيتوس ، في القرن العاشر ، صورة للاسكندنافيين ، أو بالأحرى الروس (وهو الاسم الذى عرفهم السلاف به) ، وهم يجمعون فى كل عام قواربهم عند كييف ، بعد ذوبان الجليد . وينزل أسطولهم الصغير ببطء الى الدنيبر الذى تظهر فيه منحدراته واضحة وتتجنبها المراكب الشراعية على ضفته (١) . وحين يصل البحر ، يبحر عبر الساحل الى القسطنطينية ، هدف الرحلة الطويلة الخطرة . وهناك كان للروس حى خاص ، وانتظمت علاقاتهم التجارية مع المدينة الكبيرة بمعاهدات ، يعود أقدمها الى القرن التاسع الميلادى (٢) . ولقد اعترفوا بنفوذ القسطنطينية عليهم ، وقد أخذوا المسيحية عنها (٩٥٧ - ١٠١٥ م) ، ومنها استعاروا فنونهم ، وكتابتهم ، واستغلال الأموال وجزءا طيبا من تنظيماتهم . وليس هنالك شاهد ملفت للنظر عن التجارة التى قاموا بها مع البسفور . وفى نفس الوقت ، شقوا طريقهم ، عبر وادى الفولجا ، الى البحر الأسود وتعاملوا مع تجار اليهود والعرب الذين كانوا يترددون على موانيه .

ولم يتوقف نشاطهم على هذا الحد . فلقد صدروا بضائع من كل الأنواع الى الشمال ، صدروا : التوابل والخمور والحراير والمشغولات النحاسية والذهبية وغيرها ، التى حصلوا عليها مقابل ما كانوا يصدرونه من عسل وفراء ودقيق . والدليل على هذه التجارة ما اكتشف من عدد هائل من العملات العربية والبيزنطية فى أسواق روسيا ، وكذلك الطرق التجارية التى ارتادوها عبر نهر الفولجا ، أو من الدنيبر الى البحيرات التى تتصل بخليج البوسنة . هنالك تشهد تجارة البحر الأسود مع مياه البلطيق وتواصل سبورها فى مياهه . وعبر أطراف القارة العديدة ارتبطت البحارة الروس الاسكندنافيون بعالم الشرق . وان الذخائر التى وجدت فى جزيرة (القوط Gothland) من عملات عربية وبيزنطية أكثر مما وجد مثلها فى روسيا تظهر أنها كانت المركز التجارى الكبير لهذه التجارة ، وتشير الى الاتصال مع شمال أوروبا . ومن الممكن الاقتناع بأن القوائم التى جمعها رجال الشمال فى انجلترا وفرنسا كان يتم تبادلها مع السلع الثمينة الواردة من روسيا .

w. Thomson, Der Ursprung, p. 55.

(١)

(٢) يصدد العثور على العملات العربية والبيزنطية فى روسيا ، انظر :

E. J. Arne, Op. Cit., and R. Vasmer, Ein im Dorfe Staryi Dedin in Weissrussland gemachte Fund Kufischer Münzen (Fornanneri of the Academy of History of Stockholm, 1929).

فى كل الأحوال ، فانه من المستحيل أن نشكك فى الدور الذى لعبه الاسكندنافيون كوسطاء ، فى الوقت الذى نلاحظ فيه تقدمهم المذهل فى الملاحة فى القرنين العاشر والحادى عشر ، فى خلال الفترة التى نجح فيها الغزو الدانى والنرويجى فى الغرب • ومن الواضح تماما أنهم نوفعوا عن أن يكونوا نراصنة وأن يصبحوا تجارا محتذين فى ذلك حذو اخوانهم ، من التجار البرابرة ، الذين تحولوا وصاروا تجارا فى أعلى البحار (١) • ولقد حملت سفنهم الفارغة وقتذاك أدوات التجارة القادمة من أرض القوط وغيرها • ولقد أسست مراكز تجارية على الساحل السويدي وشواطئه التى ظلت سلافية حتى ذلك الوقت ، حتى السواحل الممتدة ما بين الالبي والفستولا ، وفى جنوب الدانمرك ، تم التنقيب عند هيثابو *Haithabu* (شمال تيبيل) ، وقد كشف ذلك النقب عن وجود سوى تجارى هناك ، نشهد خرابته على أهميته خلال القرن الحادى عشر (١) • ولقد امتد هذا النشاط التجارى ، طبيعيا ، الى موانى بحر الشمال ، وصار معروفا لبحارة الشمال الذين كانوا قد خربوا المنطقة الداخلية الحلقية منذ زمن بعيد • ولقد أصبحت موانى هامبورج على الالب وتيبيل على الوال ، فى القرن العاشر ، موانى النشاط الزائد لسفن رجال الشمال • ولقد طلت انهم انهم تستعمل عددا كبيرا منهم وعادت عليهم التجارة المحمولة على يد الدانين بالضرورة التى لم يستطع الأنجلوسكسون مقاومتها ، والى وصلت الى قبةيا حين وحده الملك كانت الأعظم *Conute the Great* (١٠١٧ - ١٠٣٥ م) انجلترا والدانمرك والنرويج فى اسباطورية لم تعمر طويلا • ولقد أكد اكتشاف عملات انجليزية وفلمنكية والمانيه من أحواض الباطرق وبحر الشمال قيام هذه التجارة من منابع التاييز والراى الى دفييا (Dvina) • ولا زالت قصص البطولة الاسكندنافيه تسرى قصص المغامرات التى وقعت على يد رجال البحر البواسل ، الذين خاضوا بالحدب بسيما الى آيسلندة وجرينلاند • ولقد ذهب شبابهم الأعزاز لينتافوا الى مواطنهم فى جنوب روسيا ، وقد وجد الأنجلو سكسون والاسكندنافيون فى القسطنطينية ضمن حرس الأباطرة الخاص • وباختصار ، فالقد أثبت الشعب النورمانى فى ذلك الوقت نشاطهم وروح الاقدام والجرأة التى تذكرنا بالاغريق فى العصر الهومرى • ولقد تميز فهم بالطابع البربرى ، الذى تأثر بالتأثير الشرقى الذى نشأ عن علاقاتهم

(١) هنالك تفصيلات مهمة عن تجارة السويديين فى القرن التاسع نجدها فى :

E. de Moreau, Saini Anschaire, Louvain, 1930.

(٢) O. Scheel and P. Paulsen, Quellen zur Frage Schleswig —
Haithabu im Rahmen der frankischen, sachsen und
nordischen Beziehungen (Kiel, 1930).

التجارية ببلاده • لكن النشاط الذي أظهروه كان نشاطا بلا مستقبل • ولم يبق ليهؤلاء الشماليين الا النزر جدا من النقود على المساحات التي أبحرت اليها سفنهم ، اذ كان عليهم أن يتركوا الميدان لمزيد من غيرهم من المنافسين الأقوياء ، الذين جلبهم المد التجاري الى القارة وزاحم نشاطهم البحري نشاطهم •

٣ - تنشيط التجارة (١)

لقد اضطرت قارة أوروبا سريعا أن تشعر بقوة حركتين تجاريتين عظيمتين ظهرتتا على أطرافها ، واحدة في غرب البحر المتوسط والأدرياتيك ، والأخرى في بحر البلطيق وبحر الشمال • واستجابة لروح المغامرة وحب الكسب الموروثة في طبيعة البشر ، فإن التجارة في جواهرها ناقلة للعدوى • فضلا ، عن أنها بطبيعتها نافذة التأثير على من يشتغلون بها • وهي بالطبع تعتمد عليهم في علاقة التبادل التي تتم بينهم والاحتياجات التي تتطلبها ، بينما يكون من المستحيل الكلام عن التجارة دون الكلام عن الزراعة ، ذلك لحاجتها اليها لتمد بالطعام أولئك الذين توظفهم والذين تدولهم •

هذه الضرورة المتعذر اجتنابها كانت مفروضة على البنداقية التي تقوم على بحيرات ولا ينمو بها زرع ولا ضرع • ولكي يضمن سكانها قوتهم

Bibliography — See the works of W. Heyd, A. Schaub, H. (١)
Kreischmayr, H. Pirenne cited in Bib., p. 16 — C. Manfroni, Storia della marina italiana invasione barbariche al trattato di Minteo, t. I, Livourne, 1899 — G. Garo, Genua und die Mächte am Mittelmeer, Halle, 1895 - 9, 2 vols. — G. J. Bratianu, Recherches sur le commerce génois dans la mer Noire au XIIIe siècle Paris 1929 — A.E. Sayous, Le rôle du capital dans la vie local et le commerce extérieur de Venise entre 1050 et 1150, in the Revue belge de philol et d'histoire, t. XIII, 1934.

E. H. Byrne, Genoese Shipping in the twelfth and Thirteenth Centuries, Cambridge (Mass), 1930. — R. Davidson, Geschichte von Florenz, t. I, Berlin, 1896 — A. Sayous, Le Commerce des Européens à Tunis depuis le XIIe siècle, Paris 1929 — E. H. Byrne, Genoiese Colonies in Syria, in the crusades and other Historical Essays presented to D.C. Munro, New York 1928. — I. de Mas-Latrie, Traité de paix et de comerce ... concernant les relations des chrétiens avec les Arabes de l'Afrique septentrionale du Moyen Age, Paris, 1866. — H. Pirenne, Histoire de Belgique, t. I, 5th ed. Bru sels, 1929. — R. Hapke, Bruges Entwicklung zum mittelalterlichen Weltmarkt, Berlin, 1908 — H. Pirenne, Draps de Frise ou draps de Flandre ?, see above, p. 6, n. 2. ? R.L. Reynolds, Merchants of Arras and the Overland Trade with Genoa, in Revue Belge de philol et d'histoire, t. IX, 1930 — Id., The Markets for Northern Textiles in Genoa, "79 - 1200. Ibid, t. VII, 1929 — F. Rousseau, La meuse et le pays mosan en Belgique in Annales de la Société archéologique de Namur, t. xxxix, 1930.

كانوا مضطرين أن يبادلوا الملح والسكك مع جيرانهم في القارة مقابل القمح والكروم واللحوم وهي أشياء لا تتوافر لديهم . لكن هذه المقايضة البدائية تطورت الى تجارة جعلت المدينة غنية ومشهورة ، وفي نفس الوقت زادت متطلباتها وحدثت من مغامراتها . وعند نهاية القرن التاسع ، كانت البندقية تشرف على مقاطعة فيرونا وفوق ذلك كل وادي البو ، الذي كان متجرا سهلا لتزويده داخل ايطاليا . وبعد مرور قرن اتسعت علاقاتها الى عديد من النقاط على الساحل وفي داخل القارة : في بافيا ، وتريفيزو ، وفيسانتزا ، ورافنا ، وسيزينا ، وانكونا ، وكثير غيرها .

ومن الواضح أن البنادقة ، تاجروا معهم ، وتأقلموا على ذلك ، حتى انه يمكن القول ، حيثما ذهبوا . وبالتدريج لقي تجارهم من قام بتقليدهم . ومن المستحيل ، في غيساب وجورد شواهد ، أن نتتبع نمو البذور التي بذرها التجار وسط الشعوب الزراعية . ولقد عارضت الكنيسة هذا النمو ، دون شك ، وكانت معادية للتجارة ، حيث أصبح هنا عدد الأساقفة أكبر وأقوى مما في جنوب الألب . وهناك قصة اضطرابية غريبة وقعت في حياة القديس جيرالد St. Gerald of Aurillac (ت ١٠٩٠) تشهد على تناقض المستوى الأخلاقي للكنيسة حيال روح الكسب ، أو ما يمكن أن نسميه ، روح العمل . فبينما كان هذا الأب التقى عائدا من الحج الى روما ، قابل في بافيا بعض التجار البنادقة ، الذين سألوه أن يشتري لهم بعض القماش الشرقي والتوابل ، وكان هو نفسه قد اشترى طيلسانا فخما انتهز الفرصة وجعلهم يرونه عليه وذكر لهم المبلغ الكبير الذي دفعه في شرائه . ولكن حين هناؤه على صفقته الطيبة ، وكانوا يعلمون أن الطيلسان يساوي في القسطنطينية أكثر من ذلك الثمن بكثير . لكن جيرالد لام نفسه لغبنه البائع حقه وبين لهم أنه لا يستطيع أن يأخذ لنفسه الفرق في السعر دون الوقوع في اثم الشح (١) .

وتوضح هذه النادرة على نحو رائع التضارب الأخلاقي الذي أحدثه انتعاش التجارة في كل مكان ، والذي لم يتوقف بالطبع خلال كل العصور الوسطى . ومنذ البداية حتى النهاية استمرت الكنيسة في اعتبار أرباح التجارة خطرا مثل خطر الاسترقاق والعبودية . ولقد جعلها مفهومها التمسكي دائما في شك من التغيرات الاجتماعية ، التي لا تستطيع منعها ، والتي أجبرتها الضرورة على الاستسلام لها ، ولكنها لم تدعن أبدا لقبولها . ولقد ناء عبء الحياة الاقتصادية في القرون المتأخرة بسبب تجريمها

S. Gerald comitis, Aureliaci fundatoris Vita (written by (١)
Odo cluny, c. 925) in Migne, Patrologia, t. CXXXIII, col. 658, on
which see F.L. Ganshof in Mélanges Iorga, p. 295 (Paris, 1933).

للفائدة . ولقد منعت التجار من أن يصيروا أغنياء بضمير مرتاح ودون اعتبارها أعمالهم أمورا مخالفة للدين . ولائبات ذلك نحتاج فقط أن نقرأ العديد من وصايا الصيارفة والمضاربين ، وهم يصرحون بأن الفقراء الذين احتالوا عليهم سوف يعرضونه من قبل رجال الكنيسة بجزء من ممتلكاتهم التي يشعرون في باطن قلوبهم أنها حرام . وإذا لم يستطيعوا أن يتطهروا من الشر والاثم ويمسكوا عنه فعلهم أن يظل اعتقادهم ثابتا وأن يعتمدوا عليه للحصول على الخلاص لأنفسهم يوم الحساب . وعلى أية حال ، فأننا يجب أن نعترف بأن هذا الاعتقاد المتأجج قد عاون كثيرا في التوسع الاقتصادي في الغرب . فقد لعب دورا كبيرا حين اتخذ البيزيون والجنويون موقفا معاديا للإسلام في القرن الحادي عشر ، فعلى العكس منهم ، فإن البندقانيين ، الذين تغلبت عليهم روح الكسب ، لم يقوموا بما قام به أهل بيزة وجنوة من معاداة ومواجهة جريية بينهم وبين الإسلام في البحر التيراني .

ولقد اندلعت هنالك حرب متأججة بين الديانتين وجها لوجه . وفي البداية كان الصراع لصالح المسلمين ، ففي سنة ٩٣٥ ، وثانية في سنة ١٠٠٤ ، قام المسلمون بنهب بيزا ، بقصد منع مجهوداتها المحدودة الأولى في التوسع الحربي هناك . لكن البيزيين أصروا على التوسع في الحرب ، وفي العام التالي هزموا الأسطول الإسلامي في مضائق مسينا . ولقد قام العدو بالانتقام منهم بغزو وتدمير مينائهم الحصين ، لكن البيزنطيين بتحريض من الباباوات وغرورا وطمعا في ثروة غريمهم ، عزموا على مواصلة الحرب التي كانت حربا دينية وفي نفس الوقت حربا تجارية . وقد قاموا مع الجنويين بمهاجمة سردينيا ونجحوا في تثبيت أقدامهم هناك سنة ١٠١٥ م . وفي سنة ١٠٣٤ م ، وقد شجعهم نجاحهم ، اجتروا على مهاجمة الساحل الأفريقي ، وتسيدوا لبعض الوقت على بون (قنسطنطينة) . وبعد ذلك بقليل ، بدأ تجارهم يرتادون صقلية ، ولحماية هؤلاء التجار ، قام الأسطول البيزي في سنة ١٠٥٢ باقتحام مدخل ميناء بالرمو وتحطيم ترسانته .

ومنذ ذلك الوقت تحولت الدفة لصالح المسيحيين . ووجهت حملة سنة ١٠٨٧ م إلى المهديّة بقيادة أسقف مودينا بمساعدة وعون كبير من الكنيسة . ولقد ارتأى البحارة في السماء طيف الملاك ميخائيل والقديس بطرس يقودانهم في المعركة . ولقد قاموا بالاستيلاء على المدينة ، وذبخوا (« قسس محمد ») (*) ، وهدموا مسجد المدينة وفرضوا معاهدة تجارية مخزية على المنهزمين . ولقد بنيت كاتدرائية بيزا بعد هذا النصر ، رمزا

(*) يقصد الكاتب : رجال الدين المسلمين .

لاتمام البيزين لنصر عقيدتهم ونصر ثروتهم اللذين بدأ نصرهم يجعله اليهم . ولقد حمل البيزيون الى بلادهم من بالرمو والمهدية : أعمدة ، ورخام ثمين ، وتحف ذهبية وفضية ، وستائر من الأرجوان وذهب زينوا به مدينتهم . وقد رغبوا في أن يرمز بهاء هذه الأسلاب الى انتقام المسيحيين من المسلمين الذين اعتبروا ثروتهم نوعا من الحق والعار (١) .

ولقد تراجع المسلمون أمام المسيحيين ، وفقدوا سيطرتهم على البحر التبراني ، الذي كان بحيرة اسلامية . ولقد أبان الهجوم الصليبي سنة ١٠٩٦ انكسارهم النهائي هناك . وفي سنة ١٠٩٧ ، أرسل الجنويون أسطولا بالتعزيزات والامدادات للصليبيين المحاصرين لأنطاكية ، وحصلوا في العام التالي مقابل ذلك على فندق لهم ولتجارهم في الأراضي المقدسة من بوهيموند (Bohemond of Tarento) ، الذي كان واحدا من سلسلة المكاسب التي حققتها المدن البحرية المحاربة على ساحل الأراضي المقدسة . وبعد استيلاء الصليبيين على بيت المقدس ، تزايدت العلاقة بين جنوة وشرقي البحر المتوسط سريعا . وفي سنة ١١٠٤ م ، امتلكت مستعمرة عند سان جون في عكا ، احتوت على ثلث المدينة الذي تنازل لهم عنه الملك بلدوين ، وعن شارع عند البحر ، فضلا عن اعفائهم من مكوس قنبرها ستمائة بيزنت ذهب . ولقد أقامت البندقية لها مكاتب محاسبة وعقد صفقات في طبرية وصيدا ، وسان جون في عكا ويافا . وقد كرسست بيزا جهودها في تزايد نشاطها في تزويد الامارات التي أقامها الصليبيون في سوريا . زيادة على ذلك ، فإن النشاط الاقتصادي الذي كان قد بدأ على الساحل الايطالي وصل آنذاك الى بروفانس . ففي سنة ١١٣٦ ، احتلت مرسيليا مكانا مهما ، وأسس مواطنوها مقرا لهم في سان جون في عكا . ومن الناحية الأخرى لخليج ليون ، كانت برشلونة قد أعلنت عن مستقبل رخائها ، فكما كان المسلمون يشتغلون في السابق بالاتجار في الرقيق المسيحي ، فإن مسلمي أسبانيا تاجروا في رقيق المغرب الذي وقع لهم وزودهم بسلعة مهمة من سلح تجارتها .

وهكذا فإن كل البحر المتوسط كان مفتوحا ، أو بالأحرى ، أعيد فتحه للملاحة الغربية . وكما كان في عهد روما ، فقد تمت الاتصالات بين طرف هذا البحر والطرف الآخر في هذا البحر الحيوى لأوروبا . وقد انتهى من عليه الاستغلال الاسلامي . فلقد استعاد المسيحيون السيطرة على الجزر التي تؤمن سيادتهم عليه ، استعادوا سردينية سنة ١٠٢٣ ،

(١) هناك شعر حماسي معاصر نشره E. Du Méril في :

Poésies populaires latines du Moyen Age, p. 251 (Paris, 1874), p. 6.

يمكننا من تقدير قيمة الدور الذي لعبه الحماس الديني في التوسع البيزي .

وكورسيكا سنة ١٠٩١ ، وصقلية سنة ١٠٥٨ - ١٠٩٠ م ، ولا يعنى ذلك كثيرا اذ أن الأتراك (السلاجقة) قد قاموا بهدم الامارات المؤقتة التي أسسها الصليبيون ، فقد استولى المسلمون على الرها سنة ١١٤٤ ، ودمشق سنة ١١٥٤ ، واستولى صلاح الدين على حلب سنة ١١٨٣ ثم على عكا سنة ١١٨٧ ، وعلى الناصرة وقيسارية وصيدا وبيروت وعسقلان وأخيرا بيت المقدس ، وبرغم جهود المسيحيين فانهم لم يستطيعوا حتى يومنا هذا استعادة سوريا التي كانوا قد استولوا عليها فى الحرب الصليبية الأولى من يد المسلمين . ومهما كانت أهمية هذه الأحداث بالنسبة للتاريخ العام ، وكيف كانت نتائج هذه التغيرات على مصائر العالم ، فان انتصار الأتراك لم يؤثر على المكاسب والوضع الذى أحرزته المدن الإيطالية فى الشرق . ولقد اهتم هجوم الاسلام الجديد بالتوسع فى الداخل لا فى البحر . فلم يكن للأتراك السلاجقة أسطول ولم يحاولوا أن يؤسسوا أسطولا لهم . ودون أن يسببوا ضررا للتجار الإيطاليين ، فان الأتراك سمحوا لهم أن يقوموا بالاتجار مع سواحل آسيا الصغرى ، وبذلك استمر نقل التوابل القادمة عبر تجارة المرور من الصين الى الهند الى سوريا الى الغرب على متن السفن الإيطالية . وليس هنالك ما هو أكثر فائدة من ثبات الملاحة التي ساعدت فى الحفاظ على النشاط الاقتصادى لدول الأتراك والمغول .

ودون شك فان الأساطيل الإيطالية واصلت تعاونها النشط مع الصليبيين حتى الهزيمة التي حلت بالقديس لويس (١٢٧٠ م) ، فلقد كانت هذه الهزيمة نهاية لهذا النشاط ووضعت حدا فاصلا فى المجال السياسى والمجال الدينى . ومن الصحيح القول بأنه بدون عون البندقية وبيزا وجنوة ، كان من المستحيل المثابرة طويلا فى هذه الأعمال العقيمة . وكانت الحملة الصليبية الأولى قد اتخذت طريق البر ، وكان ذهاب مجاميع الرجال المتجهين الى بيت المقدس عن طريق البحر ليس من السهولة بمكان آنذاك . ولم تعاون السفن الإيطالية بشئ الا بإيصال المؤن للجيش . ولكن اعتماد الصليبيين على السفن الإيطالية الحربية أخضع حياتهم على الفور الى نشاط غير معقول . ولقد كانت الأرباح التي حققوها من متعهدي الجيوش كثيرة فى كل العصور ، وليس هنالك شك فى أن البنادقة والبيزانيين والجنوئين والبروفنساليين ، وقد وجدوا أنفسهم فجأة أثرياء ، سارعوا فى وضع سفن جديدة تحت تصرف الصليبيين . وان اقامة الامارات الصليبية فى الشام أكدت أهمية استخدام هذه الوسيلة البحرية للنقل ، التي بدونها لم يكن للفرنجة أى وجود فى الشرق . ولهذا فقد حصلوا على امتيازات كثيرة فى المدن التي كانت خدماتها ضرورية لهم ، وقد حصلوا منذ نهاية القرن الحادى عشر على تسهيلات ساعدتهم فى اقامة فنادقهم

ومرافقتهم على طول سواحل فلسطين وآسيا الصغرى وجزر البحر الايجي . وبالطبع ، قبل أن ينقضى على ذلك وقت طويل أخذوا فى استخدام هذه القواعد والاستفادة منها فى عملياتهم العسكرية . وخلال الحرب الصليبية الثانية حملت السفن الايطالية قوات لويس السابع وكونراد الثالث الى ساحل الأناضول ومنه الى الأراضى المقدسة . ولقد قدمت الحرب الصليبية الثالثة اثباتا حقيقيا لكبر حمولة السفن الايطالية والبروفنسالية ، فقد كانت هذه السفن كافية لحمل قوات ريتشارد قلب الأسد وفيليب أغسطس الكبيرة العدد . ومنذ ذلك الوقت فصاعدا ، فقد تم نقل كل الحملات الصليبية التالية بأكملها عبر طريق البحر . ومن المعروف ، كيف استغل البنادقة الموقف بتحويلهم الى القسطنطينية الأسطول المعد للحملة الصليبية الرابعة ، حين عجز قادته عن دفع الثمن المتفق عليه للرحلة ، فاضطروا لترك كل المشروع واستسلموا ، فى النهاية ، الأسطول فى حصار القسطنطينية والاستيلاء عليها . عندئذ قامت الامبراطورية اللاتينية ، القصيرة العمر ، على شواطئ البسفور ، وكان مولدها على يد الساسة البندقائين ، ، وحين اختلعت (١٢٦١ م) هذه الامبراطورية ، أذعنّت البندقية وسمخت لجنوة بأن تنافسها وتعمل على أن ينازعها مينشيل باليولوجوس السيادة الاقتصادية على الشرق .

وهكذا فإن النتيجة الجوهرية والدائمة للحروب الصليبية هى اعطاء المدن الايطالية ، وبدرجة أقل ، لمدن بروفانس وقطالونيا ، السيادة على البحر المتوسط . ورغم عدم نجاحهم فى تخليص الأماكن المقدسة من أيدي المسلمين ، ورغم بقاء قلة من الأماكن على ساحل آسيا الصغرى وفى الجزر فى أيديهم منذ حملاتهم الأولى ، لكنهم على الأقل مكثوا غرب أوربا ليس من احتكار كل التجارة من البسفور الى سوريا الى خلجان جبل طارق فحسب ، ولكن ليقوموا بتنمية نشاط اقتصادى وأسمى دقيق استطاع أن يفرض نفوذه على كل البلاد الواقعة شمال الألب .

ولم يكن للاسلام رد فعل تجاه هذا النجاح الاقتصادى حتى القرن الخامس عشر ، كذلك اضطرت الامبراطورية البيزنطية التى لم يكن لها حول ولا طول آنذاك أن تسلم به . ولقد كانت سيادتها على شرق البحر المتوسط قد انتهت منذ مطلع القرن الثانى عشر . فلقد سقطت هذه المناطق بالتدريج تحت نفوذ المدن البحرية الحربية ، التى احتكرت الآن تجارتها الصادرة والواردة . وفى بعض الأحيان ، للتخلص من نيرها ، حاول الامبراطور البيزنطى أن يحرض البيزيين والجنوئين ضد البنادقة وأن يوقع بينهما ، أو أن يسمح للعامة باغتيال الأجانب غير المرغوب فيهم دون تمييز ، كما حدث على سبيل المثال ، فى سنة ١١٨٢ م . ولكن

البيزنطيين لم يستطيعوا ، رضوا . أو لم يرضوا ، أن يتخلوا في تجارتهم عنهم ، تماما مثلما فعل الأسبان الذين لم يتخلوا عنهم الا في القرن السابع عشر ، حين تخلوا عنها للهولنديين والانجليز والفرنسيين . ولقد صاحب الانتعاش البحري التجارى انتعاشا سريعا في داخل القارة . ليس فقط بسبب الحاجة في التبادل التجارى للزراعة وللحاصلات الزراعية ولكن أيضا للحاجة للمصنوعات الجديدة التي صارت معدة للتصدير . وقد كان السبق لسهل لمبارديا في كلا الاتجاهين ، بسبب موقعه البديع بين مراكز القوى التجارية الثلاثة : البندقية وبيزا وجنوة . ولقد ساهم الريف والمدن بالتساوى في الانتعاش ، الأول بفلاحة وبنبيذ ، والآخر بلاهسة ومنسوجاته الكتانية والصوفية . ولقد تخصصت لوقا في المشغولات الحريرية ، وكانت المواد الخام تأتي إليها بواسطة البحر منذ القرن الثاني عشر . وفي تسكانيا ، اتصلت سيينا وفلورنسا مع بيزا بواسطة وادي أرنو وقاسمتها ازدهارها . ووراء جنوة امتدت الحركة الى ليون عند ساحل الغال ووصلت الى حوض الرون . ولقد تاجرت موانئ مرسيليا ومونبلييه وناربون عبر كل اقليم بروفانس ، كما فعلت برشلونة عبر اقليم قطلونيا . ولقد كانت تجارة الاقطار البحرية نشطة للغاية لدرجة أنها بدأت في القرن الحادى عشر في الانتشار عبر ممرات الألب التي كانت تتعرض لهجمات المرابطين المسلمين في القرن العاشر . ومن البندقية وصلت الى ألمانيا بواسطة وادى برينز ولأودية السامون والراين بواسطة سبتمبر وسان برنارد وإلى الرون بواسطة مونت جنيس . ولم يكن عبور سان جونارد لمدة طويلة ، لكن منذ ذلك الوقت علق جسر من صخرة لأخرى عبر المضيق وصار أيضا طريقا لتجارة المرور (١) . وفي النصف الثانى للقرن الحادى عشر نسمع عن وجود ايطاليين في فرنسا . والاكثر احتمالا أنهم كانوا يترددون على أسواق كامبانيا في تلك الفترة وقابلوا هناك التدفق التجارى من ساحل الفلاندر (٢) .

(١) كان ذلك أول طريق معلق قد اقيم حسب معلوماتنا ، ومن المحتمل أن يرجع تاريخه الى بداية القرن الثالث عشر .

(٢) انظر الخطاب الذى كتبه جورجى السابع الى رؤساء اساقفة واساقفة فرنسا ، في ١٠ سبتمبر ١٠٧٤ م ، مدينا الملك فيليب الاول ، متهما اياه بأنه انتشل منه : « التجارة ذات الأرباح الوفيرة في فرنسا » .

(E. Caspar, Das Regidter Gregors VII, M. M. G. G., p. 131).

وفي خطاب ثان اطلق البابا على التجار « الملاحين الايطاليين » (Ibid, p. 150)

وفي خطاب ثالث ، تكلم عن « الايطاليين وحلفائهم التجار البروفنسيين » (Ibid, p. 168) ومن الممكن اعتبار اصراره دليلا على تقدم التجارة العالمية في ذلك الوقت . واذا ، كما يرى شوب (Op. Cit., p. 91) ان الحادثة وقعت في سوق لنديت القليل الأهمية ، فإنه يكون من الصعب تبين فداحة الخسارة التى وقعت على التجار .

وبالطبع ، فان الانتعاش الإقتصادي الذي كان في مراحل تمامه في البحر المتوسط ، قد توافق مع الانتعاش الذي وقع عند بحر الشمال ، وبرغم اختلافه عنه في حجه وفي طبيعته ، فانه نشأ نتيجة نفس الأسباب وأثر نفس النتيجة . وكما رأينا سابقا كيف أن رجال الشمال قد أقاموا عند الأخوار المتكونة عند فروع الراين والميز والشيلد ، سوقا سرعان ما جذب التجار من أماكن بعيدة ومتطرفة عن هذه الأنهار . وفي القرن الحادي عشر ظهرت تيبيل Tiel كمركز تجاري يتردد عليه كثير من التجار ويرتبط بطريق عبر وادي الراين بكونلونيا ومينز ، اللتين شهدتا آنذاك نشاطا تجاريا ملحوظا . ولسنا في حاجة الى دليل أكثر من وصول ستمائة تاجر الى هذه المدينة سنة ١٠٧٤ م والى هذه المدن حسبما ذكر لامبيرت صاحب هرسفيلد Lampert of Hersfeld ، برغم شكنا في الرقم المذكور وعدم معرفتنا لمستوى الثروة التي كانوا عليها (١) . وفي نفس الفترة ارتقت التجارة في وادي الميز ، وامتدت الى فيردن Verdun عبر طريق باستريخت ، لياج Liège ، هاي Huy ودينانت Dinant . ولقد مكن نهر الشيلد مدن : كامبراي Cambrai وفالنسيا Valenciennes وتورناي Tournai ، وجنت Ghent . وانتورب أن تتصل بالبحر والأنهار التي تصب مياهها في بحيرات زيلنده . ولقد بدأ ميناء بروجر Bruges على خليج زوين (Gulf of Zwyn) في التكوين آنذاك ، وأصبح ملائما للغاية للملاحة ومنذ نهاية القرن الحادي عشر بدأت السفن تحط فيه وتفضله عن موانئ أخرى ، وتأكد ازدهار هذا الميناء مع الأيام .

ومن المؤكد أنه منذ نهاية القرن العاشر أن تجارة الاسكندنافيين ظلت على علاقات وثيقة مع بحر الشمال وأقاليم بحر البلطيق . ولقد اكتشفت في الدانمرك وبروسيا ، وحتى في روسيا ، عملات كان قد سكها الكونت أرنولد الثاني وبلدوين الرابع (٩٦٥ - ١٠٣٥ م) . ولقد ظلت تجارتهم من الطبيعي نشطة مع انجلترا . وإن تعريف لندن الجمركية ما بين سنوات ٩٩١ و ١٠٠٢ ذكرت أن الفيلمنج كانوا من ضمن الأجانب الذين تاجروا مع المدينة (٢) . وكان تردد السفن على القنال الانجليزي أقل من ترددها على بحر الشمال ، ولكن كانت هناك تجارة منتظمة بين النورمان والسواحل الانجليزية ، عبر طريق الرون وأخوار السين ، ومن ثم عبر النهر الى باريس والى حدود كمبانيا وبرجانديا . وبسبب بعد نهري اللوار والجارون ، لم يشعرا بهذا النشاط التجاري في البحار الشمالية الا مؤخرا .

Lamperti Hersfeldensis opera, ed. O. Holder-Egger, p. 192.. (١)

F. Liebermann, Die Gesetze der Angelsachsen, t. I, p. 232. (٢)

وسرعان ما احتل اقليم الفلاندر المكانة المتميزة ، التي ظل محتفظا بها حتى نهاية العصور الوسطى . . . وهنا نلتقى بعامل آخر ، وهي الصناعة ، التي لم تقل في دورها الاقتصادي المبكر عن الزراعة ، والتي لعبت هذا الدور منذ وقت مبكر وكانت لها نتائج ملحوظة . ومن قبل فلقد قام المورينيون Morini والميناويون Menapii في منطقة الكلت في اودية اليز Lys والشيلد Scheldt بتصنيع الصوف من قطعان الماشية الكبيرة التي احتفظوا بها في اقليم المرامي الخصبة . ولقد تقدم تصنيع ملابسهم خلال فترة الاحتلال الروماني لبلادهم ، حين عرفهم حكام الرومان بطرق تصنيع البحر المتوسط الفنية المتميزة . ولذلك جاء التقدم في هذه الصناعة سريعا ، حتى ان الفلاندر صاروا يصدرون منتجات صناعة ملابسهم الى الخارج ووصلت بعيدا حتى إيطاليا (١) . ولقد تابع الفرنجة الذين غزوا المنطقة في القرن الخامس ، اثر سابقهم في هذا الخصوص . وحتى مجيء البورمان في القرن التاسع ، كان الملاحون الفريزيون يحملون بانتظام الملابس الصوفية المنتجة والمصنعة في اقليم الفلاندر عبر أنهار الاراضي المنخفضة ، تحت اسم Pallia Fresonica « طيالة الفريزين » ، ولقد جاءت شهرتها من ألوانها الجميلة حتى ان شارلمان لم يجد أحسن منها ليرسله هدية الى الخليفة هارون الرشيد (٢) . ولقد أوقف تدمير التجارة على يد الغزوات الاسكندنافية بالطبع هذا التصدير . ولكن ، في خلال القرن العاشر ، عندما تحول الغزاة الى تجار وأخذت سفنهم وقواربهم تعود للظهور في أنهار الميز والشيلد طلبا للتجارة ، وجدت صناعة الملابس سوقها ثانية في الحال . ولقد تسببت جودة هذه الملابس في ازدياد الطلب عليها على طول السواحل العديدة التي تردد عليها ملاحو الشمال ، ولتلبية هذه المطالب ، زاد انتاج هذه الملابس الى نسبة لم تبلغها حتى الآن . ومن الملاحظ تقريبا أن انتاج الصوف المحلي في نهاية القرن العاشر كان غير كاف ولا يلبي الاحتياجات ، وصار الصوف يصدر من إنجلترا . ولقد زادت شهرة الصوف الانجليزي من ثمن الملابس المنتجة والمصنعة منه . وفي خلال القرن الثاني عشر صار كل اقليم الفلاندر نساجين وصناع أقمشة صوفية . وقد ظلت صناعة الملابس ، التي لا زالت تشتهر بها هذه البلاد وحتى الآن ، ظلت محصورة في المدن التجارية ، التي أسست في كل الأنحاء وتسببت في نمو زائد لهذا الاقليم . ولقد كان تصنيع القماش

Camille Julian, Histoire de la Gaule, t. II, p. 282 ff.

(١)

H. Pirenne, Draps de Frise ou draps de Flandre

(٢)

هو الذى صنع الثروات الناشئة لمدن : غيننت Ghent ، بروجرز Bruges ، يبرس Ypres ليل ، دويى Douai وأرس Arras . وسرعان ما تحولت هذه السلعة البحرية الى سلعة برية مهمة . ومنذ بداية القرن الثانى عشر ، كانت الملابس الفلمنكية تؤخذ بحرا الى أسواق نوفجورود ، فى وقت يجرى فيه الايطاليون الى الفلاندرز ليشتروا مقايضة بما معهم من توابل وحرير ومشغولات ذهبية وأشياء جاءوا بها من جنوب الألب . لكن الفلمنكيين أنفسهم ترددوا على أسواق كميانيا الشهيرة ، التى تقع فى منتصف الطريق بين بحر الشمال والألب ، وقابلوا هنالك مشترين من لمبارديا وتسكانيا . وقد قام هؤلاء بحمل الملابس الفلمنكية بكميات هائلة الى ميناء جنوة ، تحت اسم « الطيالة الفرنسيسكانية *panni francesi* » وأخذونها بالبحر الى موانئ الشرق البعيدة :

وبالطبع ، لم يكن اقليم الفلاندر وحده هو الذى يصنع الملابس . فالغزل بطبيعته ، حرفة منزلية ، عرفها الانسان منذ ما قبل التاريخ ونجدها حيثما نجد الأصواف فى كل الاقطار . وكل ما تحتاجه هذه الحرفة هو تحريك انتاجها واتقان صنعتها حتى تصبح صناعة حقيقية . ولم يكن هذا الأمر مهما . فى القرن الثالث عشر ، ولقد أوردت صكوك جنوة الشرعية أسماء عدد من المدن كانت ترسل ملابس الى ذلك الميناء وهى مدن : أميان Amiens ، بوفييه Beauvais ، كامبراى Cambrai ، لياج Liege ، مونتريل Montreuil ، بروفينس Provins ، تورناى Tournai ، شالون Chalons وغيرها . ومع ذلك ، فإن الفلاندرز ، وبعد ذلك بقليل ، جارتها باربانث Barbant احتلوا مكان الصدارة بين هؤلاء المنافسين . ولقد مكنتهم القرب من انجلترا من جلب صوف فاخر بشروط معقولة وبكميات كبيرة عن الآخرين . ولقد انعكس ازدهار الصناعة الفلمنكية وتفوقها فى التجارة اعجاب الأجانب . ولم يماثل وادى الشيلد فى تقدم صناعة ملابس اقليم آخر خلال تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى . وهو يذكرنا فى هذا الحال بما كانت عليه انجلترا فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر . لكن ليس هنالك مجال للمقارنة بين الحالين فى الموازنة بينهما من حيث التشطيب والبرونة ونعومة الألوان هذه المشغولات . لقد كانت ملابس الفلمنك والبربانث ، بالطبع ، ملابس فاخرة ، وهذا هو سر نجاحها وانتشار شهرتها فى العالم أجمع . وفى العصر الذى كانت فيه وسائل المواصلات لم ترتق بما فيه الكفاية لتكون مهيئة لدائرة البضائع الرخيصة والثقيلة ، كان المكان الأول فى التجارة الدولية ينحصر البضائع ذات القيمة العالية والأوزان المتوسطة . باختصار ، فإن نجاح الملابس الفلمنكية يجب أن يفسر على أنه مثل التوابل ، فى سعرها المرتفع وسهولة استيرادها . وفى

تناقض لافت للنظر عن المدن الإيطالية ، نرى الفلاندرز والبربانتي ، في الوقت الذي تقدمت فيه الصناعة عندهما ، نراهم أقل اهتماما بالتجارة البحرية ، وذلك ربما لأن موقعهم الجغرافي قدر عليهم ذلك ، فلقده تركوا ذلك للأجانب الذين جلبت الصناعة أعدادا كبيرة منهم الى ميناء بروجر Bruges من الاسكندنافيين في القرن الحادي عشر ، وأخيرا من الهانز . في هذه الحال من الممكن أن نقارنهم بالبلجيكيين المحدثين ، مع فاروق أن نقارن العصور الوسطى بعصورنا الحالية ، واضعين في حسابنا تقسيمهم الاقتصادي النسبي . وفي نفس المنطقة التي احتلها ألا يقدم البلجيكيون اليوم نفس المنظر القديم لتقدم صناعي غير عادي ممزوجا بحرية حقيقية مهمة ؟

الفصل الثاني المدين

١ - انتعاش الحياة المدنية (١)

طالما استمرت تجارة البحر المتوسط تجر غرب أوروبا الى فلها ،
فان الحياة المدنية تستمر في غاليا ، كما كانت في ايطاليا واسبانيا
وأفريقية . ولكن بعد أن حجز الغزو الاسلامي موانئ البحر التيراني بعد
احكام قبضته على سواحل أفريقية واسبانيا ، انقرض فيها النشاط المحلي
سريعا . ولقد اختفى هذا النشاط من كل مكان عدا جنوب ايطاليا والبندقية
اللتين ظل النشاط فيهما بفضل التجارة البيزنطية . ولقد ظلت المدن

-
- Bibliography — H. Pirenne, *Le villes du Moyen Age*, see (١)
p. 2, n. 1. — G. Von Below, *Der Ursprung der deutschen Stadterfassung*, Dusseldorf, 1892 — K. Hegel, *Stadter und Gilden der Germanischen Volker im Mittelalter*, Leipzig, 1891, 2 vols. — Id. *Die Entstehung des deutschen Städtewesens*, Leipzig, 1898. — F. Keulgen, *Untersuchungen über den Ursprung der deutschen Stadterfassung*, Leipzig, 1898. — S. Rietschel, *Die civitas auf deutschem Boden*, Leipzig, 1894. — Id., *Markt und Stadter ihrem rechtlichen Verhältniss*, Leipzig, 1897. — F. Beyerle, *zur typenfrage in der Stadterfassung*, in *Zeitschrift für Rechtsgeschichte*, Germ. Abt., 1930. — G. Espinas, *La vie urbaine de Douai au Moyen Age*, Paris, 1913, 4. vols. C. Gross, *The Guild Merchant*, Oxford, 1890, 2 vols. F. W. Maitland, *Township and Borough*, Cambridge, 1898. C. Petit Dutailly, *The Origin of the Anglo-Saxon Borough*, in *Eng. Hist. Rev.*, 1930. Id., *Borough and Town, a study of urban origins in England*, Cambridge (Mass.), 1933.
- H. Pirenne, *Les Villes Flamandes avant le XIIe siècle*, in *Annales de l'Est et du Nord*, t. I. 1905. Id., *Les anciennes démocraties des Pays-Bas*, Paris 1910. G. Des Marez, *Etude sur la propriété foncière dans les villes du Moyen Age et spécialement en Flandre* Ghent, 1898. F. Vercautern, *Etude sur les civitates de la Belgique Seconde*, Brussels, 1934. L. von Heinemann, *Zur Entstehung der Stadt — Verfassung in Italien*, Leipzig, 1898. G. Mengozzi, *La città italiana nell'alto medio evo*, 2nd ed, Florence, 1931.

قائمة ، ولكنها فقدت سكانها من الحرفيين والتجار ، وفقدت مع ذلك كل ما خلفه وراءه تنظيم الامبراطورية الرومانية المدني .

و « المدن » ، التي كان قد أقام في كل منها أسقف ، أصبحت الآن لاتزيد عن كونها مجرد مراكز لإدارة دوقاتها الكنسية . وبذلك احتفظت بأهمية ملحوظة ، دون شك ، من وجهة النظر الدينية ، أما من وجهة النظر الاقتصادية فلم تعد لها أية أهمية . وفي معظم هذه المدن ، يوجد سوق محلي صغير ، يزود الفلاحين بما يحتاجونه ، ويملك الأعداد الكبيرة من قسوس الكاتدرائية والكنائس أو الأديرة المتجمعة حوله والعبدة الذين في خدمتهم باحتياجاتهم اليومية . وفي الأعياد السنوية الكبيرة يتجمع سكان الدوقيات والحجاج في المدينة محدثين نشاطا محدودا ، لكن لا تبدو في أي منها أي أمارات النشاط الملحوظ . وفي الحقيقة فإن هذه المدن الأسقفية كانت تعيش وتعتمد في حياتها على الريف . ويعيش الأساقفة والرهبان داخل أسوارهم على الأيجارات والاستحقاقات التي يتحصلون عليها من ولاياتهم ، وبقي كياناتهم في جوهره قائما على الزراعة . ولم تكن المدن مراكز للعبادة فقط بل كانت أيضا مراكز إدارية للريف .

وفي وقت الحزب فإن حصون هذه المدن القديمة تصبح ملجأ لمن جاورها من السكان . لكن أثناء مرحلة الخطر التي بدأت خلال تفكك الامبراطورية الكارولنجية ، أصبحت الحاجة للحماية هي الضرورة الأولى للناس في الجنوب الذين تتهددهم غارات المسلمين وفي الشمال والغرب يتهددهم النورمان ، يضاف إلى ذلك ، منذ بداية القرن العاشر ، الغارات المفزعة التي يشنها الفرسان المجريون . وقد أدى هذا الغزو من كل الجوانب إلى تشييد أماكن جديدة للاحتباء . في تلك الفترة أصبح غرب أوروبا مغطى بقلع حصينة ، شيدتها أمراء الاقطاع ليستخدموها كملاجئ لرجالهم . هذه القلاع ، أو خسبما كانت تعرف به آنذاك ، تلك الأبراج ، كانت تتألف من حواجز أرضية أو حجرية ، يحيط بها خندق وتخترقها بوابات . وكان على السكان المجاورين لهذه الأبراج حمايتها . وتقيم داخل البرج حامية من الفرسان ، وقد كان البرج المحصن سكنا للورد ، وهناك كنيسة مشروعة تنظر في احتياجات الدين ، وحواصل وصوامع أقيمت لتخزن القلال ، وتجفيف اللحوم وكل أشكال الاحتياجات اللازمة التي يحتاج إليها المزارعون في الأرياف ، والتي تساعد في تزويد الحامية والسكان ، الذين في أوقات الخطر ، يهرعون هم وقطعانهم إلى القلاع . وبذلك فإن وضع الأبراج ، كمدينة دينية ، ظل قائما . ولم يكن لهذه الأبراج أي حياة اقتصادية . وكانت خيانتها موأمة تماما للحضارة الزراعية ، ومن الممكن القول انها ساهمت في الدفاع عنها .

لكن الانتعاش التجارى سرعان ما غير من هيئتها تماما . ولقد لوحظت أول أعراض هذا التغيير خلال النصف الثانى من القرن العاشر . فخلال ذلك التاريخ وفى ذلك الوقت الذى كان السلب والنهب فيه سبب وجود النبالة الصغيرة ، دفع ذلك الأمر التجار الجوالين والمعرضين لكل أشكال المخاطر فى البداية الى البحث عن حماية المدن الحصينة والأبراج التى قامت على مراحل على طول الأنهار والطرق الطبيعية التى كانوا يسافرون عليها . ولقد خدمتهم هذه الأماكن وكانت لهم محطات خلال فصل الصيف ، وكانت لهم مشاتى خلال الشتاء الشديد البرودة . وكانت أحب المواقع اليهم تلك التى كانت تقع عند دالات مصبات الأنهار أو عند الأودية الضيقة ، وعند ملتقى نهرين ، أو عند نقطة تتوقف عندها ملاحه النهر والنقل عبره ، ولقد كانت جميع هذه المناطق مناطق محببة لسكن التجار والمتاجرين .

وسرعان ما تصبح هذه المساحة التى تقدمها المدن والأبراج لهؤلاء القادمين الجدد ، الذين تزايدت أعدادهم بشكل هائل بسبب تزايد تجارتهم ، غير كافية . ولذلك يضطر هؤلاء الى السكن خارج أسوار هذه المدن وأن يبتغوا لأنفسهم أبراجا جديدة الى جوار الأبراج القديمة ، أو يقوموا ببناء ما عرف بالضواحي . ونتيجة لذلك ، فانه قامت الى جانب المدن والقلاع الاقطاعية تكدسات تجارية ، الذين خصتهم مراسمهم بنوع من الحياة مناقض تماما لتلك التى كان يعيشها الناس بداخل المدينة . وكانت كلمة (أهل الموانى) Portus ، الواردة فى وثائق القرنين العاشر والحادى عشر على هؤلاء النازحين ، تعبر تماما عن طبيعتهم (١) . وهى لا تعنى فى الحقيقة الموانى بمعناها الحديث ، ولكن تعنى المكان الذى تحمل اليه البضائع ، وهو لذلك يكون مكانا نشطا للنقل . ومن هذه الكلمة سمي سكان الموانى فى انجلترا والفلاندرز باسم رجال المرافىء أو رجال الموانى (poorters, portmen) ، التى ضارت مرادفة لكلمة برجوازي ، وبرجوازيين التى تطورت عن مفهوم معنى تلك الكلمة الذى كان يطلق فى السابق على المشتغلين بالتجارة . والسبب فى اطلاق هذه التسمية ، قبل نهاية القرن الحادى عشر ، وتعريفهم بكلمة البرجوازيين ، وهى التسمية التى عبرت عنهم تماما أكثر مما عبرت عن سكان الأبراج القديمة حيث استقروا ، توجده فى حقيقة أن الجماعات التجارية أحاطت نفسها منذ زمن بأسوار أو سياج بهدف الحماية والأمان ، وبذلك دخلت كلمة (بورج) فى تسميتهم . ولقد فهم التوسع فى مفهوم هذه الكلمة بسهولة منذ ألفت

H. Pirenne, Les villes flamandes avant le XIIe siècle, in (١)
Annales de l'Est et du Nord, t. I (1905).

هذه الأبراج الجديدة بظلالها على الأبراج القديمة . وفي معظم المراكز
النشطة للحياة التجارية ، مثل الأبراج ، أحيطت هذه الأبراج عند بداية
القرن الثاني عشر بالقلع ، التي أصبحت بمثابة القلب لها ، من كل
الجهات . ولقد صارت هذه الملحقات جوهرية ، وتغلب النازحون الجدد على
السكان القدامى . وفي هذا المعنى من الصحيح تماما أن نقول أن المدينة
في العصور الوسطى ، وتبعاً لذلك المدينة الحديثة ، كان ميلادها على
ضواحي الأبراج ، أو أن الأبراج هي التي حددت موقعها . وسرعان ما دفع
تجميع التجار في مواقع مناسبة الحرفيين أيضاً إلى أن يجتمعوا هناك . ولقد كان
الحشد الصناعي في المدين مائلاً في القدم للحشد التجاري . ونستطيع
أن نلاحظ ببساطة خاصة في إقليم الفلاندرز . فلقد هاجر صناع الملابس
الذين قاموا بهذه الصناعة في هذا الإقليم ، إلى الأماكن التي حملوا إليها
منتجاتهم . هنالك وجد النساجون الصوف المستورد على يد التجار ،
ووجدوا الغزلين والصيغيات اللازمة للتلوين . ولقد صاحبت هذا التحول ،
الذي لا نعرف لسوء الحظ تفاصيله ، صناعة ريفية داخل مجتمع مدني .
ولقد تحولت الحياكة التي كانت في يد النساء إلى يد الرجال ، وفي نفس
الوقت تحول الطيلسان القديم الصغير إلى قطع من الملابس الطويلة ،
التي صارت ملائمة للتصدير وظل طولها الطول المثل الذي صارت عليه
منتجات الملابس حتى اليوم . وهنالك سبب طيب أيضاً لافتراض وقوع
مثل هذا التغيير في ذلك الوقت في الأنوال التي كان يستخدمها النساجون ،
وهو تغيير مقاس سداة النسيج من عشرين ذراعاً إلى ستين ذراعاً حتى تتواءم
بذلك مع العارضة الخشبية للنول .

ومن الممكن أن نلاحظ تطوراً مماثلاً حدث في صناعة الملابس
الفلمنكية في مجال الصناعة في وادي الميز وتطورها عموماً . فلقد تلبقت
صناعة النحاس التي كانت نشطة هنالك منذ شغل البرونز وكانت نشطة
أيام الاحتلال الروماني ، لقيت دفعة قوية حين أعطاها انتعاش الملاحه في
النهر الفرصة لإنتاج ما يمكن تصديره منها . وفي نفس الوقت ، أصبح
تركز هذه الصناعة قائماً في مدن نامور Namur وهاي Huy وفوق ذلك
في دينانت Dinant ، وهي المدن التي قصدها التجار وكان أصحابها
يجلبون النحاس من مناجم بيكسونيا لصناعتهم في القرن الحادي عشر (١) .
وبالمثل ، فكان الحجر الكريم الذي تكاثر وجوده في تورناي Tournai
كان يصنع في هذه المدينة ، وأصبح إنتاج وتصنيع أحواض المعمودية

نشطاً حتى نلتقى بها فى أماكن بعيدة مثل سوٲ هامبتون ووينشستر (١) .
ولقد تكررت نفس القصة فى إيطاليا . فلقد جمعت المنسوجات الحريرية
القادمة من الشرق عبر البحر عند لوقا Lucca ، بينما تخصصت ميلان
ومدن لمبارديا وقلدتهم فى ذلك تسكانيا فى وقت قريب ، فى صنع
الفستيان (نسيج قطنى) .

٢ - التجار والبورجوازيون (٢)

لقد كان الاختلاف الجوهرى بين التجار والحرفيين فى المدن الناشئة
والمجتمع الزراعى ، فى أوسط أشكاله ، أن شكل حياتهم لم يحدد طويلا
بعلاقاتهم بالأرض . فى هذه الحالة ، فلقد كونوا ، بمعنى الكلمة ، طبقة
ذات جذور . فلقد أصبحت التجارة والصناعة حتى ذلك الوقت مجرد أشغال
عارضة أو مؤقتة لوكلاء أرض الأشراف (الجفالك) ، الذين تأكد وجودهم
على يد ملاك الأرض الذين وطفوهم عندهم ، وقد أصبحت الآن مهنا
مستقلة . ولقد كان هؤلاء الوكلاء « رجالا جددا » . ودائما ما كانت تبذل
محاولات لآخراجهم من تبعية اتصالهم بخدم السادة وعمالهم ، أو بالأقنآن
المكلفين باطعام أسيادهم فى زمن المجاعات أو فى زمن الوفرة يقومون
بتصدير زائد انتاجهم الى الخارج لكن مثل هذا التطور لم تذكره المراجع ولم
يرجح بعد (٣) . وليس هنالك شك فى أن ملاك الأراضي هنا وهناك قد
أحرزوا امتيازات اقتصادية فى المدن الناشئة لمدة طويلة الى حد ما ، وعلى
سبيل المثال ، اجبار السكان على استخدام فرن السيد وطاحونته ، أو
احتكار بيع نبيذه لعدة أيام بعد تصنيعه ، أو حتى بعض الحقوق المعينة
الخاصة بالجباية من المصنوعات المموهة بالذهب . لكن بقاء هذه الحقوق
على الرعية ليس دليلا على اثبات الأصل الزراعى للاقتصاد المبنى . بل على
العكس من ذلك ، فالذى نلاحظه فى كل مكان أنه من اللحظة التى ظهر فيها
هذا الاقتصاد ، يبدو أنه ظهر فى ظروف من الحرية وليس فى ظل
العبودية الزراعية .

-
- (١) P. Rolland, L'Expansion tournaissienne aux XIe et XIIe siècles, (١)
Art et commerce de la pierre in Annales de l'Académie royale
d'archéologie de Belgique, 1924.
(٢) Bibliography See above, p. 40, n. I, W. Vogel, Einseefahrender
Kaufmann um 1100, im Hansische Geschichtsblätter, t. XVIII, 1912.
H. Pirenne. Les périodes de l'histoire du capitalisme, in Bull. de
l'Acad. roy. de Belgique, Cl. des Lettres, 1914.
(٣) R. Eberstadt, Der Ursprung des Zunftwesens und die älteren
Handwerksverbande des Mittelalters, Leipzig, 1915, and in a
modified form, F. Keutgen, Amter und Zünfte, Jena, 1903.

لكن السؤال الذى يطرح نفسه الآن علينا ، هو كيف لنا أن نوضح تكوين طبقة التجار والحرفيين الحرة الخالصة عن مجموع طبقات المجتمع الريفى ، حيث كانت العبودية هى السمة الطبيعية للناس آنذاك ؟ وتمنعنا نلة المعلومات عن الاجابة على تلك المبادرة التى تتطلبها أهمية المشكلة ، ولكن من الممكن على الأقل أن نشير الى العوامل الرئيسية . أولا ، فانه من المحقق أن التجارة والصناعة قد انتعشت على يد أجراء الأرض ، الذين كانوا يعيشون ، كما يقال ، على هامش المجتمع الذى كانت الأرض فيه هى أساس وعصب الحياة . ولقد كان عدد هؤلاء آنذاك كبيرا للغاية . وينضاف الى هؤلاء ، أولئك الذين فى وقت المجاعات أم الحروب قد تركوا أرضهم بحثا عن الحياة فى أى مكان ثم عادوا ، وعلينا أن نتذكر كل الأفراد الذين لم يكن فى استطاعة مجتمع الملاك الزراعيين (الجفالك) أن يعولهم . وقد كان امتلاك أرض المزارعين مجرد قدر يضمن الأداء المنتظم لما عليهم من استحقاقات . ولهذا كان الأبناء الصغار للرجل الذى يعول عددا من الأولاد يجبرون فى الغالب على أن يتركوا والدهم ليسكنوه من أن يدفع ما عليه من استحقاقات لسيده . حينئذ ينضاف الى هؤلاء جموع المشردين الذين يهيمنون داخل البلاد مترددين ما بين كنيسة وأخرى لأخذ نصيبهم من الصدقة المخصصة للفقراء ، ويعملون أجراء للمزارعين وقت الحصاد روقت تصنيع النسيج ويتطوعون كجند مرتزقة فى الفرق الاقطاعية فى أوقات الحروب .

وسرعان ما استفاد هؤلاء الرجال من وسائل العيش الجديدة التى عرضت عليهم عن طريق وصول السفن والتجار على طول السواحل وفى أخوار الأنهار . ولقد جند كثير من المغامرين خاصة أنفسهم لسفن البنادق والاسكندنافيين كبجارة ، والبعض الآخر انضم لقوافل التجار التى شقت طريقها مرارا وتكرارا الى « الموانى » . وللمحظ ، فإن النخبة من بينهم استطاعت أن تنجح فى انتهاز الفرص العديدة لتكوين الثروة ، التى قدمتها الحياة التجارية للمشردين والمغامرين الذين ألغوا بأنفسهم خلالها بهمة ونشاط وذكاء . وهناك احتمال كبير يكون كافيا لاعادة النظر فى مثل هذه الحقائق ، اذا لم يكن لدينا نموذج له قيمته ، فى قصة سان جودريك St. Godric of Finchale عن الطريقة التى تكونت بها طبقة الأغنياء الجدد (١) . ولقد ولد جودريك حوالى نهاية القرن الحادى عشر فى لنكولنشير

(١) عن سان جودريك ، انظر مقال فوجيل الوارد فى الببليوجرافيا ، ص ٤٥
 حاشية ٢ .

The Libellus de vita et miraculis S. Gordici, heremitae de Finchale, auctore Reginaldo monacho dunelmensi, edited in London in 1948 by Stevenson for the Surtees Society.

Lincolnshire من أصل ريفي فقير وأجبر ، دون شك ، على أن يترك أرض والديه ، واستخدم كل مهارته في كسب عيشه . ومثله مثل كثير من غير المحظوظين في سنه أصبح متسكعا على الشواطئ ، باحثا عن حطام مركب قذفت بها الرياح الى الشاطئ . ولقد كان تحطم السفن كثيرا ، وفي أحد الأيام الطيبة لاحت له فرصة حظ قدمت له كسبا مفاجئا مكنه من أن يحصل على رزقه ليصبح واحدا من التجار الجائدين . واستطاع أن يجمع رصيда قليلا من المال ، حين التحق بمجموعة من التجار . وبعد ذلك انتعشت أعمال هؤلاء التجار واستطاع جودريك أن يحقق ربحا مكنه من أن يدخل في مشاركة مع آخرين ، شاركوا في تحميل السفينة ، واشتغل في التجارة الساحلية على شواطئ انجلترا واسكتلندا والفيلاندوز والنامرك . وانتعشت هذه المشاركة . وصارت عملياتها تتكون من تصدير بضائع الى الخارج عرف عنها أنها نادرة وجلب في مقابلها حمولة ، كانت تصدر آنذاك الى أماكن يعظم الطلب عليها ، وتحقق ، في المقابل ، من ورائها المكاسب الطائلة .

وقصة جودريك هي بالتأكيد قصة آخرين كثيرين مثله . وفي عصر استمرت فيه المجاعات ، لا يسع المرء الا أن يشتري كمية قليلة من الحبوب بسعر بخس في المناطق التي تتوافر فيها ، لتحقيق مكاسب خرافية ، من الممكن أن تتزايد بنفس الطريقة . وهكذا فإن المضاربة التجارية التي كان ينطلق منها هذا النوع من الأعمال ، قد عاونت بشدة في تكوين أول ثروات تجارية . وإن مدخرات أي بائع جائل صغير ، أو ملاح ، أو نوتي ، أو عامل في الميناء تجهز رأس مال كاف لأي منهم ، فقط اذا ما عرف كيف يستغلها (١) . ومن الممكن أن يحدث أيضا أن مالكا يوظف جزءا من دخله في التجارة البحرية . ومن المؤكد غالبا أن نبلاء ساحل ليجوريا قد قدموا رأس المال الضروري لبناء السفن الجنوية وقاسموا الأرباح من بيع الشحنات في موانئ البحر المتوسط . ولقد حدث نفس الشيء في مدن ايطالية أخرى ، وعلى الأقل نحن بصدد افتراض ذلك حين نلاحظ أن في ايطاليا عددا كبيرا من النبلاء كانوا يعيشون دائما في المدن ، على عكس اخوتهم في شمال الألب . ومن الطبيعي فقط الافتراض أن عددا معيناً منهم كانوا بشكل ما مهتمين بالانتعاش الاقتصادي الذي كان ينمو حولهم . في هذه الحالات فإن رأس مال ملاك الأرض ، دون الحاجة الى سؤال ، قد أسهم في تكوين رأس المال السائل اللازم للتجارة . وهما

(١) ولضرب امثلة قليلة من الممكن بسهولة أن تزداد ، انظر مقال :

Les périodes de l'histoire sociale du capitalism, in the : Bulletin de la Classe des Lettres de l'Académie royale de Belgique, 1914.

كان الأمر ، فلقد كان دورهم ثانويا ، وبرغم أنهم قد اكتسبوا من وراء انتعاش التجارة ، فمن المؤكد أنهم ليسوا هم الذين أنعشوها .

ولقد بدأت أول دوافع الانتعاش من الخارج ، فى الجنوب بالبندقة وفى الشمال بالملاحه الاسكندنافية . ولم يستطع الغرب الأوربي محسدا فى حضارته الزراعية أن يعرف سريعا نوعا جديدا من الحياة ، فى غياب دافع وقندوة خارجية . ولم يكن موقف الكنيسة ، أقوى مالكة للأرض آنذاك ، تجاه التجارة ، مجرد موقف سلبي بل موقفا معاديا للخياة ، وبرهانا كافيا على ذلك . وإذا كانت بدايات الرأسمالية التجارية تغرب جزئيا عن خاطرها ، فانه من السهل أن نتتبع تطورها خلال القرن الثانى عشر . وهى تقارن فى تطورها بالنشيط النسبى ، دوث غلو ، بأثورة الصناعية فى القرن التاسع عشر . ولقد كان لنوع الحياة الجديدة الذى عرض نفسه على الأعداد الهائلة من أجراء الأرض المتسكفين جذب خاص لهم لم يستطيعوا مقاومته بسبب الوعد بالكسب الذى قدمه لهم . وكانت النتيجة لذلك هجرة حقيقية من الريف الى المدن الناشئة . وسرعان ، ما اتخذ هذه الخطوة الكثير من المشردين من أمثال جودريك . ولقد كان الإغراء شديدا لدرجة جعلت أعدادا من الأقتان يهربون من مزارعهم التى ولدوا ونشأوا فيها الى المدن ، ليعملوا كحرفيين أو يعملوا موظفين عند التجار الأغنياء الذين انتشرت شهرتهم فى الآفاق . ولقد قام اللوردات بتعقبهم ونجحوا فى إعادة بعضهم الى أراضيهم ، حين تمكنوا من وضع أيديهم عليهم . ولكن كثيرا منهم أفلتت من قبضتهم ، وتبعوا لتزايد سكان المدن ، أصبح من الصعب عليها أن تضع يدها على الهاربين المحتمين بها .

وبالتركيز فى المدن استطاعت صناعة هذه المدن أن تزود تجارتها الخارجية أكثر فأكثر . ونتيجة لذلك ازدادت بثبات أعداد السلع وازدادت تبعا لذلك أهمية وأرباح أعمالها . وفى ذلك الوقت الذى نمت فيه التجارة ، لم يكن من الصعب على الشباب أن يجدوا أعمالا لهم كمساعدين لبعض السادة الأغنياء ، ليشاركوهم فى أعمالهم وفى النهاية يكونون ثرواتهم الخاصة . ولقد قصت لنا حكاية مغامرات أسقف كامبرى (The Gesta) بالتفصيل قصة رجل يدعى ويريمبولد Werimbold الذى دخل ، فى عهد الأسقف بيرتشارد Burchard (١١١٤ - ١١٣٠) فى خدمة تاجر غنى ، وتزوج ابنته وعمل على تنمية ثروته وأعماله حتى أصبح هو نفسه ثريا . ولقد قام بشراء قطعة كبيرة من الأرض فى المدينة ، وبنى بيتا فخما ، وابتاع عوائد

المُروور التي كانت تحصل عند إحدى البوابات ، وابتنى جسرا على نفقته وفي النهاية ترك النصيب الأكبر من ممتلكاته للكنيسة (١) .

ولقد كان أساس الثروات الكبيرة ، دون شك ، في هذه الفترة ظاهرة عادية في كل المراكز التي كانت التجارة الخارجية مزدهرة فيها . وكما أغدق ملاك الأراضي في الماضي بهبات الأرض على الأديرة ، فإن التجار آنذاك أخذوا بحظهم في تأسيس أبرشيات الكنائس ، والمستشفيات ، والتكايا (ملاجئ العجزة) ، وباختصار فقد صرفوا أنفسهم في الأعمال الدينية أو الخيرية لصالح مواطنيهم ولخير أنفسهم وأرواحهم . وبالطبع ، فإن الديانة حثت كثيرا منهم على تحقيق الثروة ، بقصد أن تكرر لخدمة الله ، ويجب أن لا ننسى أن بيسير والدو Pierre Waldo مؤسس جمعية « فقراء ليون » Poor Men of Lyons سنة ١١٧٣ م ، التي بعد قليل أقامت فرقة الولداوية (*) ، كان تاجرا . وعلى وجه التقريب ولد القديس فرنسيس St. Francis في أسيسي Assisi في بيت تاجر آخر (٢) . وعدد آخر من الأغنياء الجدد ، الطموحين بمعنى الكلمة ، فكروا في أن يرفعوا مكانتهم في السلك الاجتماعي بتزويج بناتهم إلى الفرسان ، وسوف يكون بذلك حظهم من الثروة كبيرا وسوف يكبح ذلك اشمئزاز الآخرين بصدددهم .

هؤلاء التجار الكبار ، أو بالأحرى الأغنياء الجدد ، كانوا طبيعيا قادة البرجوازية ، لأن البرجوازية نفسها كانت وليدة الانتعاش التجاري ، وقد كانت كلمة تاجر mercator وكلمة بورجوازي burgensis في البداية كلمتين مترادفتين . ولكنها حين ارتقت البرجوازية كطبقة اجتماعية وضعت نفسها شرعيا في إطار طبقة من عنصر عالي الأصل ، علينا أن نحسب حسابها الآن .

(١) *Gesta episcoporum cameracensium continuata*, ed. G. Waltz, M.M.G.G., t. XIV, p. 214 et seq.

(*) الولداوية. أو الولدويون ، فرقة نصرانية نشأت في جنوبي فرنسا بعد عام ١١٧٠ م ، بزعامة بييرولدو Pierre Waldo .

(٢) تحكى حياة القديس جاي Guy (في القرن الحادى عشر) انه وظف نفسه للتجارة حتى يستطيع الحصول على المزيد من المال لينفقه في الاحسان .
Acta Sancti. Boll., Sept., t. IV, p. 42.

٣ - التنظيمات والقوانين المدنية

كانت احتياجات وميول الطبقة البرجوازية مغايرة للتنظيم التقليدي لغرب أوروبا ، مما أثار حيالها معارضة عنيفة • وقد دارت هذه الاحتياجات والميول عكس جميع اهتمامات وأفكار المجتمع الذي تسلط ملاك الأراضي الواسعة عليه ماديًا وتسلطت عليه روحياً الكنيسة التي لم تتغلب على كراهيتها للتجارة (١) • وليس من العدل أن نعزو إلى « الاستبداد الاقطاعي » أو « الطغيان الكهنوتي » أية معارضة تفصح عن نفسها ، رغم أن هذا العزو قد تم في الغالب بالفعل • وكالعادة ، فإن أولئك المستفيدين من النظام القائم قد دافعوا عنه باستماتة ، ليس فقط بسبب أن هذا النظام يحمي مصالحهم ، ولكن بما بدا لهم من أن هذا الدفاع ضروري للحفاظ على المجتمع • زيادة على ذلك ، فإن البرجوازيين أنفسهم كانوا أبعد ما يكونون عن القيام بموقف ثوري حيال هذا المجتمع • فلقد أخذوا سلطة أمراء الأراضي وامتيازات النبلاء كمنحة لهم ، وفوق كل ذلك سلطة وامتيازات الكنيسة • ولقد أقروا كذلك مبادئ أخلاقية تصوفية ، تتعارض مع أسلوبهم في الحياة • لقيد رغبوا ليس إلا أن يكون لهم مكان تحت الشمس ، وانحصرت مطالبهم في احتياجاتهم الضرورية •

ومن هذه الاحتياجات والأكثر ضرورة لهم كانت حريتهم الشخصية • وبدون حرية ، ممكن القول ، بدون القوة أن تغدو وتروح ، لأداء الأعمال ، لتبيع السلع ، وقوة لا تقتزن بالعبودية تجعل التجارة مسنحيلة • وهكذا طالب البرجوازيون باستمرار نظام العبودية بسبب فوائدها التي تمنحها لهم فقط لا غير ، وقد كان ذلك على وجه الخصوص أمراً مفيداً لهم بعد أن صرفوا عن أذهانهم أي فكرة عن الحرية الشخصية كحق طبيعي للأفراد • إلى جانب ذلك ، فإن كثيراً من البرجوازيين اعتبروا الاسترقاق حقاً شرعياً لهم ، ولقد كان هؤلاء الأرقاء من المهاجرين ، الذين جاءوا من أماكن بعيدة فراراً من تتبع أسيادهم لهم ، والذين أرادوا ألا يستمروا في العبودية ، وتطلّعوا للحرية رغم أنهم ولدوا من آباء غير أحرار • لكن الرغبة يجب أن يتغير شكلها إلى حقيقة • ومن الضرورة بمكان أن المواطنين ، الذين جاءوا ليسكنوا المدن بحثاً عن حياة جديدة ، أن يشعروا بالأمان ولا يخافوا من أن يعادوا ثانية بالقوة إلى ملاك الأرض التي هربوا منها • وكان عليهم أن يتخلصوا من أعمال السخرة ومن كل الأعباء الكريهة التي حملوها على عواتقهم من قبل ، وعلى سبيل المثال إجبارهم على أن يتزوجوا

(١) مؤلف كتاب حياة القديس جاي St. Guy المذكور سابقاً ، أطلق على التاجر الذي نصّب القديس بالعمل في التجارة « القسيس الشيطان » ، diaboli minister •

فقط من نساء من طبقتهم وأن يتركوا للورد جزءا من ميراثهم . ولقد استحوذ هؤلاء على هذه المطالب المقبولة في القرن الثاني عشر بعد وقوع بعض النورات الخطيرة . ولقد أضاف معظم المحافظين المتشددين ، أمثال جيويرت دى نونت Guibert de Nogent ، سنة ١١١٥ ، الى كلمة انتقام ، الحديث عن هؤلاء « الصامة الكريهين » الذين نصبتهم العبودية ليهربوا من سيطرة أسيادهم وليتخلصوا من أهم حقوقهم الشرعية (١) . ولقد أصبحت الحرية المنزلة الشرعية للبرجوازيين ، للدرجة التي لم تعد فيها مجرد امتياز شخصي ، بل هو امتياز اقليمي وراثي في التربة المدنية مثلما كانت العبودية امتيازا وراثيا في تربة الجفالك الزراعية . وللحصول عليها ، تكفى الإقامة لسنة ويوم داخل أسوار المدينة . وكما تقول الحكمة الألمانية : « هواء المدينة يجعل المرء حرا » (Stadtluft macht frei) .

ولكن اذا كانت الحرية هي أول احتياجات البرجوازية ، فان هنالك أشياء كثيرة الى جانبها . ولم تعد القوانين التقليدية بإجراءاتها الشكلية الضيقة ، وتجاربها ، وقائمه القضائية وقضائيه المجندين من بين الفلاحين ، ووجود أعراف فصلت تدريجيا لتنظيم علاقات الرجال الذين يعيشون على الزراعة أو ملاك الأراضي ، لم تعد وافية بالضرر للسكان الذين صار وجودهم معتمدا على التجارة والصناعة . مزيد من القوانين السريعة كانت ضرورية لاثبات سرعة الاستجابة وسرعة استغلال الفرصة ، ولقد كان القضاة الذين كانوا هم أنفسهم على معرفة بأشغال أولئك الذين حكموا بينهم ، يستطيعون اتخاذ أقصر الطرق لوضع هذه القوانين لمعرفتهم بالقضية التي هي قيد الانجاز . ومنذ وقت مبكر ، وعلى الأقل مع بداية القرن الحادى عشر ، قاد ضغط الظروف الى وضع تشريع تجارى "Jus mercatorum" . يعد جنينا للقانون التجارى . ولقد تألف هذا التشريع من مجموعة أعراف ولدت من تجارب أعمال ، وهي نوع من أنواع العادات الدولية ، التي استخدمها التجار بين أنفسهم وبين صفقاتهم .

(١) Guibert de Nogent , Histoire de sa vie, ed. G. Bourgin, p. 156 (Paris, 1907).

ومرة ثانية كتب جاك دى فيتري في القرن الثالث عشر مقالا بعنوان :

"Violent and pestiferous communitates" :

كذلك كتب في إنجلترا :

A. Giry, Documents sur les relations de la royauté avec les villes en France, p. 59 (Paris, 1885).

Richard de Devizes : "Communia est tumor pelbis, timor regni tepor sacredotti". W. Stubbs, Select Charters, p. 252 (Oxford, 1890).

وخلوا من كل شرعية قانونية من الصعب علينا أن نستحضرها في المحاكم القائمة ، واتفق التجار فيما بينهم أن يختاروا من بينهم قضاة عرفيين تكون لديهم القدرة على فهم نزاعاتهم وفض مشاكلهم على الفور . ونحن هنا دون شك يجب أن نبحث عن أصل هذه المحاكم التي أخذت في إنجلترا اسم محاكم « الأقدام المتربة » *courts of piepowder (pied poudré)* ، لأن أقدام التجار الذين ردت اليهم كانت لا تزال متربة من الطريق (١) . وسرعان ما صارت هذه المحاكم الطارئة محاكم دائمة معترفا بها من السلطة العامة . وعند يريس *Ypres* ، في سنة ١١١٦ م ، أبطل كونت الفلاندرز المجادلات القضائية ، ومن المؤكد أنه في نفس التاريخ نظم في معظم مدنه محاكم « القضاة منكوشى الشعر » *échevins* ، المختارين من بين البرجوازيين وهم الوحيدون المخولون بالقضاء بينهم . وسرعان ما حدث ذلك في كل الأقطار . في إيطاليا ، وفرنسا ، وألمانيا ، وإنجلترا ، حصلت المدن على محاكم تشريعية ، جعلتهم جزرا لقضاء مستقل ، تقع خارج العرف الاقليمي .

ولقد صاحبت هذه المحاكم الذاتية ادارة ذاتية . ولقد استلزم وجود أكادس من الأحكام المدنية وجود عدد من الترتيبات الملائمة للدفاع الذي كان عليهم أن يزودوا أنفسهم به في غياب السلطات التقليدية التي لم تكن لديها الوسائل أو الرغبة في مساعدتهم . ومن البيانات القوية لنشاط واستهلال البرجوازيين جهودهم في تثبيت أقدام نظام المجالس البلدية ، الذي ظهرت بوادره في القرن الحادى عشر ، وصارت في يده كل عناصر الحيوية في القرن الثانى عشر . وهكذا فان العمل الذى أنجز يدوجميعه للاعجاب ، لأنه كان فى الحقيقة خلقا أصيلا . وليس هنالك شيء فى النظام القائم يمكن استخدامه كنموذج ، طالما أن الاحتياجات التى قصد أن يوفىها كانت جديدة .

وكانت الحاجة للدفاع عن النظام هى أكثر الأمور إلحاحا . ولقد كان التجار وتجاراتهم ، بالطبع ، من الأشياء المغرية للنهب ، لذا كان من الضرورى حمايتهم من اللصوص بجدار قوى . لذلك فان بناء الاسوار حول المدن كان من أول الأعمال العامة التى تعهدت بها المدن ، وهو عمل كانت تكلفته المالية كبيرة حتى نهاية العصور الوسطى . بالطبع ، وبما قيل حقا انها كانت بداية التنظيم المالى ، لذلك ، على سبيل المثال ، فان اسم

(١) "Extraneus mercator vel aliquis transions per regnum non kebens certam mansionem infra vicecomitatum sed vagans, qui vocatur piepowdrous" (1124-53). Ch. Gross, The Court of Piepowder, in the Quarterly Journal of Economics, t. XX (1906), p. 231, n. 4.

بيت المال *Firmitas* ، الذى كانت تجمع فيه المكوس العامة فى مدينة لييج *Liège* ، وفى بقية المدن (لبناء التحصينات) كانت من احدى الجزاءات النقدية التى فرضها مجلس المدينة على السكان . وحقيقة أن دروع الأسلحة المحصنة حاليا تبين أهمية الأسوار فى الدفاع عن المدن . لذلك لم تكن هنالك مدينة غير محصنة أو مسورة فى العصور الوسطى . ولقد جمعت الأموال للحصول على النفقات التى سببتها الاحتياجات الدائمة للتحصينات ، وقد جمعت هذه الأموال بيسر من سكان المدن أنفسهم . ولقد اهتم الجميع بالدفاع العام وكان عليهم جميعا مواجهة تكلفته . وقد قدرت القيمة المقدرة على كل فرد على أساس ثروته ، وعد ذلك بدعة كبيرة . وبخصوص الضريبة الاقطاعية الجائرة التى كانت تدفع للسيد الاقطاعي ، والتى كانت تحصل لحسابه ، فقد استبدلت بدفع ضريبة مناسبة على حدة بقصد النفع العام . وبذلك استعاد النظام الضرائب نفسه فى شكل عام ، بعد ان كان قد اختفى خلال الحقبة الاقطاعية . ولتقدير وجمع هذه الضريبة ، كذلك لتزويد المدينة باحتياجاتها العادية التى تزايدت مع الوقت مع التزايد المستمر لسكان المدينة ، مثل : انشاء الموانى والأسواق ، وبناء الجيوش وأبرشيات الكنائس ، وتنظيم الطوائف الحرفية ومراقبة امدادات الطعام ، أصبح من الضروري انتخاب أو السماح بقيام مجلس من الحكماء ، والقناصل فى ايطاليا وبروفانس ، ومن المحلفين فى فرنسا ومن الشيوخ فى انجلترا . ولقد ظهوروا فى القرن الحادى عشر فى مدن لمبارديا ، حين ورد ذكر قناصل مدينة لوقا سنة ١٠٨٠ م . وفى القرن التالى ، أصبحوا فى كل مكان نظاما مجازا من السلطة العامة ومشاركة فى كل تنظيم بلدى . وفى كل المدن ، مثلما كان الحال فى الأراضى المنخفضة ، صار منكوشو الشعير *échevins* فجأة ودون سابق انذار القضاة والأوصياء على سكان المدينة .

وسرعان ما اكتشف الأمراء العلمانيون مدى خطورة نمو المدن عليهم . وتبعاً لنمو تجارتهم فى البر والبحر وتزايد صفقات أعمالهم ، فلقد كانوا فى المقابل فى حاجة الى زيادة السيولة النقدية . فى أرصدتهم . وقد رأوا الدخول من كل أنواع المكوس وكذلك من المناجم تندفق فى زيادة الأموال السائلة فى خزانة السيد (اللورد) . ولذلك فليس من المستغرب أن يأخذ اللوردات على عاتقهم تشجيع كل اتجاه خيرى نحو

سكان المدينة : زيادة على ذلك ، فإن هؤلاء الأمراء ، وقد عاشوا كحكام فى قلاع بلادهم ، لم يصطدموا بسكان المدن وبذلك تجنبوا كل أسباب الصراع معهم . وقد كان ذلك على العكس تماما بالنسبة للأمراء الكنسيين . فقد دعوا المواطنين لمقاومة الحركة البلدية ، تلك المقاومة التى تطورت مع الوقت الى صراع سافر . والحقيقة أن الأساقفة كانوا قد أجبروا على الإقامة فى مدتهم ، وقد حثهم ، على وجه الخصوص ، رجال السياسة المعتدلون فى حكومة الدوقيات ، على أن يستعيدوا سلطتهم وأن يتصدوا لطموحات البرجوازيين بكل تصميم ، لأنهم نهضوا على يد التجار ووجهوا من قبل التجار ، الذين كانوا موضع الشك دائما فى عيون الكنيسة . وفى النصف الثانى من القرن الحادى عشر ، أعطى الصراع بين الامبراطورية والبابوية الفرصة لسكان مدن لمبارديا للثورة ضد المطارنة السيمونية (*) . ومن ثم انتشرت الحركة عبر وادى الراين حتى كولون . وفى سنة ١٠٧٧ ، ثارت مدينة كمبراى ضد الأسقف جيرالد الثانى ، وأقامت أقدم الكميونات التى نلتقى بها شمال الألب . وحدث نفس الشيء فى دوقية ليج . وفى سنة ١٠٦٦ أجبر الأسقف ثيودين Théoduin أن يمنح البرجوازيين فى هاى Huy عقد حريات ، وهو يسبق العهد الأخرى المكتسبة فى باقى أجزاء الامبراطورية بعدة سنين . ولقد وقعت ثورات مدنية فى فرنسا ، فى بوفيه حوالى سنة ١٠٩٩ ، وفى نيون Noyon فى سنة ١١٠٨ - ١١٠٩ ، وفى ليون سنة ١١١٥ .

وهكذا كسبت بعض المدن النظم البلدية الملائمة لحياة سكانها فى البداية والبعض الآخر خلال القرن الثانى عشر بالمقاصد المعتدلة أو بالمقاصد القدرة بالسلم أم بالقوة .

ولقد توسعت السكنى فى « المراكز الجديدة » فى الموانى ، حيث تجمع التجار والحرفيون لتشمل سكان « المراكز القديمة » و « المدن » التى صارت أسوارها القديمة محاطة من جميع جوانبها بالأحياء الجديدة ، فتهاكت هذه الأسوار القديمة تهالك تشريعاتها القديمة نفسها . ومن ذلك الوقت فصاعدا ، قاسم كل من سكن داخل أسوار المدينة ، هذا القساوسة ، امتيازات البرجوازية .

ولقد كانت السمة الجوهرية للبرجوازية هى ، بالطبع ، أنها كونت طبقة مميزة وسط باقى السكان . من وجهة النظر هذه فلقد قدمت مدن

(*) السيمونى هو مشترى المنصب الكهنوتى أو بائعه .

العصور الوسطى تناقضا ملفتا للنظر لكل من المدن القديمة ومدن تلك الأيام ، التي تختلف فقط عنها في كثافة سكانها وتعدد ادارتها ، خلافا عن ذلك ، فان سكانها لا يشغلون وضعا خصوصيا في الدولة . لا في التشريع العام أو في التشريع الخاص . على العكس من ذلك ، فان برجوازي العصور الوسطى ، كان نوعا مغايرا لكل الذين عاشوا خارج أسوار المدينة . وفجأة صار خارج بوابات المدينة وخندقها نجد أنفسنا في عالم آخر ، أو أكثر تحديدا ، في أملاك تشريع آخر . ولقد جلبت -ميازة المواطن معها نتائج مشابهة لتلك النتائج التي تبعت الفارس أو الكاتب عندما أنعم عليه بحلق قمة رأسه بمعنى أنه أنعم عليه بمنزلة شرعية خصوصية . وعلى غرار الكاتب أو النبيل ، فان البرجوازي تهرب من القانون العام مثلما وانتمى الى منزلة خاصة ، عرفت مؤخرا « بالمنزلة الثالثة » . ولقد ميزت الأرض التابعة للمدينة حسب سكانها . ولقد كانت الحصانة التي تحمي الرجل الذي يلجأ الى المدينة من السلطة الخارجية كذلك التي كان يطلبها عند اللجوء الى الكنيسة . وباختصار ، فان البرجوازيين كانوا بمعنى الكلمة طبقة مستثناة وفوق العادة . ولقد كونت كل مدينة من مدنها ، ما يقال عنه ، دولة صغيرة داخل نفسها ، متحمسة لامتيازاتها ومعادية لكل جيرانها . ومن النادر جدا أن يستطيع خطر عام أو غاية عامة أن تفرض على خصوصياتها المدنية الحاجة للتحالف أو عقد معاهدة دفاعية ، مثلما حدث ، على سبيل المثال ، مع الهانز الجرمان . وعموما ، فان سياسة المدن كانت مصممة بنفس الأثرة الدينية المقدسة التي ألهمت مؤخرا سياسات الدول . وبالنسبة للبرجوازيين فان سكان الاقليم ظلوا ليكونوا مجرد مسخرين . وبسبب منعهم من مشاركتهم امتيازاتهم فانهم دائما ما كانوا يرفضون بصلابة كل مشاركة لهم فيه . ولم يستبعد شيء أبعد من روح الديمقراطية الحديثة عدا الموانع التي استمرت بواسطتها تدافع مدن العصور الوسطى عن امتيازاتها ، حتى ، وبالطبع قبل كل شيء ، تلك الفترات التي حكمها فيها الحرفيون .

الفصل الثالث

الأرض والطبقات الريفية

١ - نظام الجفالك وعبودية الأرض (السخرة) (١)

لقد كان نفوذ البرجوازية في كل فترة من فترات العصور الوسطى منيرا للدهشة ، ذلك لأنه كان في تناقض قوى مع أهميته العددية . ولقد كانت المدن تحتوى على أقلية من السكان . وفي غياب المعلومات الإحصائية في الفترة السابقة للقرن الخامس عشر ليس هنالك تقدير محكم . يمكن بالطبع أن نكونه في هذا الخصوص ، ولكننا من المحتمل ألا نكون مخطئين . تماما في افتراض أن عدد السكان المدنيين في كل أوروبا في الفترة ما بين القرنين الثاني عشر والخامس عشر يزيد عن عشر المجموع الكلى

Bibliography - Inama-Stenegg, Lamprecht, H. Ste and M.

Bloch, the general bibliography K. Lamprecht, *Stude sur l'état économique de la France pendant la première partie du Moyen Age*, trans. Marignan, Paris, 1889 — L. Delisle, *Etudes sur la condition de la classe agricole et l'état de l'agriculture en Normandie au Moyen Age*, Paris, 2nd ed. 1903. A. Hansay *Etude sur la formation et l'organisation économique du domaine de Saint-Trand jusqu'à la fin du XIIIe siècle* Grand 1899 . — L. Verriest *Le servage dans la comté de Hainaut. Les sainteurs. Le meilleur catel*, Brussels, 1910 (*Mém. de l'Académie de Belgique*) — G. des Marex, *Note sur le manse brabant au Moyen Age* in *Mélanges Pirenne*, Brussels, 1928. F. Seeborn, *The English Village Community*, London, 1883. P. Vinogradoff, *The Growth Century*, Oxford, 1908 G. — G. Coulton,

The Medieval Village, Cambridge, 1925 — G. F. Knapp, *Grundherrschaft und Rittergut*, Leipzig 1887 . — W. Wiltich, *Die Grundherrschaft in Nordwestdeutschland*, Leipzig 1896. O. Siebeck, *Der Frondienst als Arbeitssystem*, Tübingen, 1904. R. Gaggese, *Classi e comuni rurali nel medio evoitaliano*, Florence, 1906-9, 2 vols. — H. Blink, *Ge chiedenis van den boerenstand en den landbouw in Nederland*, Groningen, 1902-4, 2 vols. G. Roupnel, *Histoire de la Cappagne française*, Paris 1882, M. Bloch, *Liberté et servitude personnelles au Moyen Age*, particulièrement on France, in *Annario de Histoire del Derecho Español*, 1933 . — G. E. Perrin, *Recherches sur la seigneurie rurale en Lorraine* Paris, 1935.

للسكان (١) . وفقط في بعض الضواحي القليلة ، مثل الأراضي المنخفضة ، لمبارديا أو تسكانيا ، أن هذه النسبة قد زادت إلى درجة ملحوظة . على أي حال ، فإن من الحقائق التي لا شك فيها من وجهة النظر الديموجرافية (السكانية) ، أن مجتمع العصور الوسطى كان في جوهره مجتمعا زراعيا . فوق هذا المجتمع الريفي وضعت العقارات الكبيرة بعمق كبير علامة لم تختف آثارها في النصف الأول من القرن التاسع عشر . ونحن لسنا في حاجة هنا إلى العودة إلى أصل هذا المجتمع ، الذي ورثته العصور الوسطى من العصور القديمة . وكل ما هو ضروري هو أن نصف بلوغه مكانته خلال القرن الثاني عشر ، وكما يقال ، في وقت كان لا زال ناشئا فيه ولم يبدأ في التغير تحت نفوذ المدن (٢) . وربما يكون من غير الضروري أن نضيف هنا أن نظام الجفالك لم يكن قد حمل على سكان الريف ، وأنه قد أبقى على عدد محدود من الممتلكات القليلة المعفاة ، وفي الضواحي المعزولة نلتقي بقري خرجت عن قبضتها في كثير أو قليل . لكن تلك مجرد استثناءات . لا يمكن أن تعتبر شكلا متسعا للتطور العام لغرب أوروبا .

ومن وجهة نظر الأحجام ، فإن العقارات الكبيرة في العصور الوسطى كانت متسعة الأحجام بمعنى الكلمة . وكان فيما يبدو أن العقار الواحد كان يتألف في المتوسط من ثلثمائة عربة (mansel) ، أو حوالي ١٠٠٠٠ فدان . وكثير من هذه العقارات كان دون شك أكبر من ذلك وأعظم ، لكن أراضي هذه العقارات لم تكن كلها مجمعة في منطقة واحدة . فهي دائما ما تكون مبعثرة . كذلك كانت البيوت المنفردة ذات الحدائق (Villas) لنفس الملاك منفصلة عن بعضها بمسافات بعيدة للغاية ، وكانت أبعد ما تكون عن مركز أرض الشريف (جفلكه الخاص) . ولقد كان دير سان ترونود Saint-Trond على سبيل المثال ، سييدا على ممتلكات واسعة ، وكان حجم الممتلكات حوله كبيرا ، ولكن كانت بينها وبعضها مسافات بعيدة ، وكان حدها من الشمال ضواحي نيموجين Mimwegen

(١) F. Lot, L'Etat des paroisses et de feux de 1328, in the Bibliothèque de l'Ecole des Chartes, t. xc (1929), p. 301.

اعتبر لوت أن سكان فرنسا في بداية القرن الرابع عشر كان عددهم يتراوح ما بين ٢٠/١ إلى ٧/١ من مجموع السكان أما بالنسبة لبرابانت Cuvelier, Les dénombrements de foyers en Brabant, p. cxxxv). فإنه يقرر

أن في سنة ١٤٢٧ كانت ثلثا البيوت في كل الأراضي الهولندية توجد في الأرياف .

(٢) من الواجب هنا أن نلفت النظر إلى حقيقة أنه منذ أن تقسم تنظيم الجفالك إلى أقسام مختلفة في أوروبا ، نستطيع هنا أن نصف بشكل عام فقط ، الملامح الرئيسية والنمذجية التي أجملت ولخصت .

وجنوباً ضواحي ترير Trier (٦) . ولقد نتجت هذه الطبيعة المبعثرة للعقارات من نسج معد من جانب ملاك الجفالك ، لدرجة أن قرية واحدة تكون في النال من ممتلكات لوردين أو ثلاثة لوردات . ولقد ظل الوضع أكثر تعقيداً حين تتوسع المقاطعة ، كما كان يحدث مراراً ، وتمتد إلى أراض تكون تحت حكم عدة أمراء ، أو إلى مقاطعات تتكلم بلغات مختلفة . ولقد نتج هذا الوضع عن وجود أكداش من العقارات بسبب هبات متتابعة من جمهور المحسنين في حالة الكنيسة ، أو حدوث تحالفات بين ملاك الأراضي أو في حالة الميراث عند النبلاء . ولم يكن هنالك أسلوب واحد نتج عنه تكوين العقارات الكبيرة ، فلقد جاءت كما صنعها التاريخ ، مستقلة عن أي اعتبارات اقتصادية .

وبرغم تبعثرها ، فإن هذه العقارات لم يكن لها تنظيم قوى ، وهي في جوهرها كانت متشابهة في كل الأقطار . ولقد كان مركز العقار في الإفادة مسكناً للسيد المالك ، سواء أكان كاتدرائية أم كنيسة أم بعة ، أو قلعة حصينة . وكانت كل الأرض متسمة إلى عدد من الأقسام ، يحتوى كل قسم منها على قرية أو أكثر من قرية تحت اختصاص جفالك سيد curtis (ويطلق عليه Cour في الأراضي التي تتحدث باللسان الروماني ، و hof في تلك التي تتحدث الألمانية و monor في تلك التي تتحدث الانجليزية) . وهنا تتجمع مباني المزرعة ، وأجرانها . وحظائر قطعانها ، واسطبلاتها ، وغير ذلك ، كذلك يتجمع الأقنان الذين يقومون بخدمتهم . وهنا أيضاً يعيش الوكيل نائباً عن الإدارة ، ويعرف بمايكوس the villicus أو major (وهو mayor ، maire في القارة الأوروبية ، و seneschal ، steward أو bailiff في إنجلترا) ، مختاراً من بين الرؤساء ministeriales ، ويمكن القول أن الأقنان التصقوا كرجال مخلصين لبית السيد (اللورد) . وبسبب تأثير التطور العام الخاص بفترة العصور الوسطى الزراعية ، سرعان ما أخذ هذا الوكيل ، الذي كان في البداية عرضة للإبعاد ، حقا وراثياً لمنصبه .

ولقد قسمت كل الأرض تحت حكم الكنيسة في الكور أو الجفالك إلى ثلاثة أجزاء : أرض مملوكة ، أرض مستأجرة وأرض مشاع . وتتكون

(١) انظر خريطة هذا العقار في القرن الثالث عشر في كتاب :

H. Pirenne, Le Livre de l'abbé Guillaume de Ryckel, Polyptique et comptes de l'abbaye de Saint-Trond au milieu du XII^e siècle (Brussels, 1896).

الأرضين الممثلة (terra indominata, mansus indominicatus) فائض أرض
السيد الإقطاعي ، تتكون من كل الأراضي المخصصة وللغائبة المطلقة
للسيد الإقطاعي . ومن المستحيل أن نجد تفسيرا أهميتها التناسبية ،
التي اختلفت اختلافا كبيرا في مختلف المناطق . وكقاعدة عامة ، فهي
تشكل من مساحات وقطع مبعثرة تقع بين الأراضي المستأجرة ، وعلى الجانب
الأخرى ، فإن سطح الأراضي المستأجرة ، يظهر عينا مملوفا على كل قرية ،
بذلك أنهم غالباً ما يختلفون اختلافا ملحوظا في المناطق المختلفة ، وهم
يشكلون حقيقة سطح الأرض الكافي لاحتياجات الاسواق ، وتقع ذلك
لها تختلف في داخلها بصفة الخصوبة الثرية (6) يهاولها مملوفا في
mansus ، في اللاتينية ، و hufe في الألمانية و virgate

أو Yardland في الانجليزية ، وكانوا جميعهم مثقلين بعناء الخدمات
والمكوس لصالح السيد الإقطاعي . وقد أعطى جميعهم السكان المقيمين
على أرضهم الحق العام في استعمال المراعى الطبيعية ، والأحراش ،
والمروج أو الغابات التي كانت تحيط بالأرض الزراعية والتي عرفت في
الوثائق باسم communia أو Waica capia . وبذلك جهود
سدى للعثور على آثار ما يسمى بالملكية التضامنية في هذه الأراضي
الشاع . وفي الحقيقة فإن ملكيتها كانت مخولة للسيد الإقطاعي
(اللورد)

وباستثناء اللورد ، فإن كل من يسكن في أرض الجفالك سواء كان
من الأقران أو كما يقال من أشباه الأقران ، ورغم أن الرق كان قد اختفى
في العالم القديم ، إلا أن بقاياها ظلت في شكل أشباه الأقران والتابعين
(mancipia و servi quotidiani) ، وهم الأشخاص الذين ينتمون إلى
اللورد والذين يلتحقون بخيمته ويحتفظ بهم . ومن بينهم يقوم بتجنيدهم
العاملين في عقاره وملحقات قصوره ، ومراعيه واسطبلاته والعاملين من
الجنس الذين يستخدمون في الجنس « gynēcea » ، التي تحت اسمها
تكونت وتشكلت دون تمييز ورش ضيعة الشريف ، حيث كان ينتج
الكتان والصوف ويغزل ، وحيث يعمل أيضا هناك صائغو المخلات
والعربات ومصالحوها ، والصاغة ، وصناع الجمرة وغيرهم من الصناع .
ولقد ظلت العبودية بشكل أقل بين المستأجرين ، أو (باستعمال التعبير

(١) وفقا لـ Des Marez الوارد في الجيوبجرافيا (ص ٥٨ ، حاشية
رقم ١) ، فإن تقديري برابنت يتكون من ١٢ قطعة استوائية حجم القطعة
الواردة . فتراجع بين ١٢ إلى ٢٠ هكتار (١٢ إلى ٢٠ هكتار) ، (١٢ إلى ٢٠ هكتار) ،
أو ١٢ إلى ٢٠ هكتار (١٢ إلى ٢٠ هكتار) ، (١٢ إلى ٢٠ هكتار) ، (١٢ إلى ٢٠ هكتار) ،
بين ٥ إلى ٣٠ هكتار ، والمتوسط هو ١٢ هكتار .

الذي كان عاماً في القرن الثاني عشر) وهو Ocasati على المستأجرين رغم وجود فوارق كثيرة بين اللفظين . لكن في الحقيقة الكل في النهاية اكتسب ملكية الأرض التي يزرعها بالوراثة ، رغم أن كثيراً قد أمسك بها في البداية بالاسم دون ثبوت . وبينهم يوجد في الغالب أحرار سوابقون كانوا قد فقدوا حريتهم عن اضطرار لدفع ما عليهم من خدمات وواجبات تراكبت على عاتقهم . وفي أرض الأديرة وحقائقها كانت طبقة ممتدة وسط سكان الجفلك ، وهم الـ *Cerocensuales* . وهم سلاله نساء أرازل من أصل حر وضعوا أنفسهم تحت حماية البع ، مانحها ملكية عقاراتهم شريطة أن يمتنع من أنفسهم من إرادتها مقابل أن يدفع ثمن التمتع لاختلاف الكنيسة السنوية الكبرى (١) . ويختلف هؤلاء اختلافاً طفيفاً عن المستأجرين ، وربما كانوا هم الذين عرفوا باسم *Cotters* أو *borders* الفلاحين سيابكي الأكوخ (*caotari, bordarii*) ، أوهم رقيقين تمسكوا برقعة مجردة من الأرض ، وكانوا قد وظفوا من قبل لخدمة السيد الإقطاعي وإقطاعيته . ولقد تزايد اعتماد سكان الجفلك على اللورد ، وكان ، حقيقة ، يمارس حقه في الحكم عليهم والتقاضى بينهم . ولقد أدين كل الأقنان بدون استثناء ، لذلك ، بينما لم يتبع الإجراء الآخرون إلا في النادر التقاضى أمام المحاكم العامة في حالة الجرائم والجح . وقد تنوع اختصاص السلطان القضائي الإقطاعي في الأقطار المختلفة تبعاً لمدى الجور الإقطاعي على سؤدد الملك . ولقد بلغ ذروته في فرنسا ووصل إلى أدنى مستواه في إنجلترا . ولكن أينما كان فإنه شمل على الأقل كل المسائل التي تخص الإجراء والعمل المستخرجين والمكوس ، ووزارة البرية . وقد كان لكل صاحب جفلك بلاطة ، المكون من الفلاحين الذين يشرف عليهم بواسطة حاجب أو *villicus* وكان يقضى بينهم وفقاً لـ «عادة الجفلك» . بمعنى القول ، بالطريقة التقليدية التي مع المراحل الطويلة أعلن السكان التابعون للسيد الإقطاعي ، أنهم اعتادوا عليها وتقبلوها .

وكما كون كل صاحب جفلك وحدة قضائية ، كذلك كون وحدة دينية . ولقد ابنتى اللوردات بالقرب من مقرهم الرئيسي بيعة أو كنيسة وأوقف عليها الأرض ، التي حدد مساحتها بنفسه . وكان ذلك أصل عدد كبير من الأبرشيات الرفيعة ، لدرجة أن التنظيم الكنسي قد حفظ لمدة طويلة حدود «المتن» الرومانية ، وقد ظلت هذه الأبرشيات باقية حتى اليوم خارج نطاق الأراضي الواسعة التي كانت موقوفة عليها في العصور الوسطى .

(١) وكان يطلق عليهم في Hainault والناطق المجاورة اسم *Saintreurs* (القيسات ، الطاهرات) .

وهكذا ، فان نظام الجفالك لم يكن تنظيما اقتصاديا فحسب بل كان ايضا تنظيما اجتماعيا . ولقد فرض نفسه على كل حياة سكانها . فلقد كان فلاحو الجفالك عاملا طيبا فعلا أكثر من كونهم مجرد أجراء لسيدهم ، لقد كانوا رجاله بكل ما في الكلمة من معنى ، ومن الملاحظ تماما أن السلطة الاقطاعية ظلت لفترة طويلة تشتمل على خاصيات رئاسة الجماعات التي عادت بالنعمة على أصحابها أكثر من كونهم ملاكا للأرض . ولقد كان نظام الجفالك في جوهره نظاما بطريركيا . وتشهد اللغة نفسها على ذلك . وهل هنالك من معنى لـ *seigneur* senior (غير أنه الأكبر ، الذي تمتد سلطته على العائلة (familia) التي يقوم بحمايتها ؟ دون أدنى شك هو يقوم بحمايتهم . ففي وقت الحرب هو يدافع عنهم ضد العدو ويأويهم داخل أسوار قلعته ، ومن الواضح أنه يفعل ذلك لفائدته هو ، طالما هو يتعيش على عملهم . وربما تكون الفكرة التي اعتدنا أن نكونها بصدد الاستغلال الاقطاعي فكرة قليلة جميلة . ويتضمن استغلال الانسان الرغبة في استغلاله كأداة للحصول على أقصى إنتاج . وإن الاسترقاق الذي تمثل في زنوج أفريقية في القرنين السابع عشر والثامن عشر ، أو في «أرواف السمال في الانقلاب الصناعي الكبير في النصف الأول من القرن التاسع عشر ، يقدمان لنا أمثلة مشابهة للاسترقاق الريفي في العالم القديم . لكن كل ذلك كان مخالفا تماما لما كان عليه الاسترقاق في جفالك العصور الوسطى ، حيث حددت كل الأعراف الراسخة كل حقوق الانسان والالتزامات التي عليه . هذه الحسيمة رسدها كافية أن تسع الخدمة التي لا ترحم التي يقيمها النشاط الحر للتفوق الاقتصادي من أجل تحقيق الربح . زيادة على ذلك ، فإن كل الأفكار عن الربح ، ومنها بالطبع امكانية الربح ، كانت متناقضة مع الوضع الذي احتله ملاك العصور الوسطى الكبار . وحين يكون المالك الاقطاعي غير قادر على أن ينتج ما يبيعه حاجة السوق ، فهو ليس في حاجة في أن يقدح ذهنه من أجل أن ينتزع من رجاله رأضه فائضا من الممكن أن يكون عبئا عليهم ليس الا ، وكما هو مضطر بأن يستهلك انتاجه ويتخلص منه فهو أيضا قانع في أن يعين الفائض منه لوقت الحاجة والضرورة . ولقد ضمننت موارد دخله بواسطة العمل التقليدي للتنظيم الذي لم يحاول أن يعمل على تحسينه . وقبل منتصف القرن الثاني عشر ، فإن الجزء الأكبر من التربة التابعة له قد قطع الرجاء منها وصارت تغطيه الأعشاب والغابات والأحراش . واننا بأقل مجهود ندرك دورة النظام القديم الزراعية ونعرف المحاصيل الزراعية التي كان يزرعها ملاك الأرض أو دورهم في تحسين الأدوات الزراعية . ومع تقديرنا لكفاءتهم المحتملة ، فإن الأرض الزراعية الرئيسية التي كانت تحت أمر الكنيسة والنبلاء لا تورد إلى الذهن أكثر من عائد طفيف .

وسوف يكون من المهم ، رغم أنه مستحيل ، أن نكتشف قدر المال الذى ادخره الفلاحون من عملهم فى هذه الجفالك التى لا يزرعها مستأجروها من أجل الربح ، بعد العمل لعام كامل لمدة من يوم الى ثلاثة أيام فى الأسبوع على عقار السيد وبعد دفع الضرائب الاعتيادية بشكل أرق فى أرضهم . ولابد أن يكون هذا المال قليلا اذا كان هنالك مال أصلا . لكن هذا القليل كان كافيا للرجال الذين كان هدفهم الوحيد ، مثلما كان الحال لسيدهم ، إنتاج ما يكفى احتياجاتهم . وبعيدا عن كل الخوف من الطرد أو الإبعاد ، طالما أن أرضه موروثة ، تمتع ساكن المدينة (Vilain) بميزة الأمن ، ولكن على الجانب الآخر لم يعطه النظام العقارى لا الفرص أو الرغبة فى الاستغلال الشخصى . فلقد كان نظام الوقف ، يحتاج ، بالطبع ، العمل الجماعى . ولقد كان ذلك نفس الحال بالنسبة للأسلوين الكيبرين للزراعة ، واللذين يرجع أصلهما ، دون شك ، الى عصور ما قبل التاريخ ، وهما المساحات الطويلة أو الحقول غير المنتظمة . فى كليهما فإن الدورة الزراعية ، سواء استخدم فيها نظام الحقلين أو الثلاثة حقول (بمعنى القول ، سواء زرع نصفها أو ثلثها كل عام) ، فانه يلزم زراعة متضامنة عليها جميعها . ولقد حرثت قطع نفس الربع أو الحى (gewann) سويا وبذرت كذلك . وسلمت على المشاع بعد الحصاد . وحقيقة امتزاجهم سويا تعنى أنهم يظلون منفصلين على بعضهم البعض حتى تنضج الحبوب وتجمع داخل سور مؤقت . وبعد الحصاد لا تفقد الجماعة حقوقها . وتجمع كل المزارعات فى القرية داخل حظيرة واحدة للتخزين ، وترعى على بقايا الزرع بعد حصاد الحقول وجمع محصولها وإزالة الحواجز . فى مثل هذه الحال ، يعتمد نشاط كل مقاطعة على مهارة جميع أفرادها ، وطالما استمر الوضع على ذلك تصبح المساواة الاقتصادية هى المساعدة العامة بين الفلاحين المزارعين . وفى حالة المرض أو السقم ، يهرع الجيران للانقاذ . وبالتاكيد ، فانه لم يعد للانقاذ ، الذى أصبح مؤخرا طابعا فى الفلاحين ، فرصة لظهور نفسه . واذا ما كانت أسرة كبيرة فى عدد أفرادها ، يدخل أبنائها الصغار جماعة الفلاحين (Cotarii) ، أو يزيدون فى أعداد المتشردين الذين يتكدسون داخل الريف .

ثانية ، فان حقوق السيد تقيد نشاط الأفراد ، بدرجات متفاوتة ، حسب أشخاصهم . ولا يستطيع الأقنان المزعومون ، الى حد بعيد ، الزواج دون دفع ضريبة ، وليس للعبد أن يتزوج من امرأة خارج ممتلكات سيده دون إذنه . وعند موت العبد يتسلم السيد كل ميراثه ويؤول اليه (Corimedis, mort-main, heroit) ولقد أثقل عناء الخدمة والأعباء كاهل المستأجرين ، أو بمعنى أصح ، كل الأجراء ، ومع الوقت تحولت هذه الأعباء من تكاليف استثنائية الى تكاليف حقيقية . فى هذه العلاقة يصبح

هناك فصائل مختلفة واضحة بصدد الأجراء (mansis) فبعضهم كان من
 الصرحاء (ingenuiles) وبعضهم كان من الأذلاء (serviles)
 والبعض الآخر كان بلا فرش أو عطاء (خذرا) (li diles) ، وأختلفت
 التزاماتهم تبعاً إذا ما كانوا أصلاً قد وقعوا في العبودية بواسطة أو رهن
 الأبدان في عبودية كاملة ، أو نصف عبودية أو كانوا مجرداً ، وكانت
 الضريبة التي يدفعونها للسيد من ربحه وقت الحاجة ، بالطبع ، تختلف
 تبعاً لجهلهم على عاتقهم . ولقد أخضعهم لجنائهم لم تكن تطوعياً ولكنها كانت
 مبررة ، وكانت في ذلك مكافئة لأكبر الزان الضعيف . هذا يختلف
 (mansi) ، التي يجب الفلاحين أن يطحنوا غلاتهم في طاحونة السيد ،
 وأن يصنعوا خبثهم في مصبغة (أو يصنعوا خبثهم في مصبغة) ،
 وكانت الضريبة التي تدفع لكل هذا ، على الأقل ، تمناً للارتفاع من الأرض
 التي يتولى اللورد النفقة عليه . ثلث ربحه ، لمولاه وثلثاً لغيره ،
 ربحه لسيد له . فليست هذه باعطاء ، بل لها تلميحاً لربحها .
 وعلى الأحرار ، فليست أن يلاحظ أن اللورد لم يكن يتكسب من كل
 الأرباح التي تحصله من أرضه الزراعية . ولقد كان يحدث في أكثر الأحيان
 أن تغلب أراضي بأحكام قضائية ، وهي أحكام ليست ناشئة عن الحاجة
 ولكن عن الملكية . وقد يعود ذلك إلى نظام القرية الرومانية العامة على
 الأرض . ولقد كانت هذه الأحكام في بعض الأحيان مصلحة كثير من الملاك
 وفي بعض الأحيان كانت في مصلحة أمير المقاطعة أو مصلحة
 شخص سواه مفوض إلى هذا . ورغم الاختلاف البين بين العشر
 والضريبة ، فليست نظم العشر بأحكام بينما تزايدت المكوس كثيراً على
 الأرض . نظراً إلى فهي تجمع بواسطة الكنيسة ، ولكن في الواقع ،
 استحوذ عليها كثير من اللوردات . على أية حال ، فإن أصل كل هذه
 المكوس يعني القليل للفلاح ، كبقيا كانت طبيعتها ، طالما تراكم عليه كل
 ما يملكها .

منذ منتصف القرن العاشر تخلص سكان غرب أوروبا الحريين من
 المسلمين والنورمان والمجريين ، وبدأت منذ ذلك الوقت فصاعداً حركة
 خاصة ليس لدينا تفاصيلها المضبوطة ، ولكن نتائجها تظهر بوضوح في

(١) انظر سابقاً ، ص ٥٨ ، راجع إضافة إلى :
 Ed. Bouquet, Le tiers-état d'après la charte de
 Beaumont et ses filles, Paris 1884 . M. Prou, Les coutumes de
 Lorrain et leur propagation au XIIe et au XIIIe siècle, in the Nouv.
 Rev. du droit français, t. VIII, 1884.

[illegible]

- L. Vanderkindere. La loi de Prisches, in *Mélanges P. Fredericq*, Brussels, 1904. — M. Bateson, The Laws of Breteuil, in *English Hist. Review*, Vol. XV 1900. — F. Goblet d'Alviella. Histoire des bois et forêts en Belgique, t. I, Brussels, 1927. — A. Schwappach, Grundriss des Forst- und Jagdwesens Deutschlands. Berlin, 1892. — E. de Borchgrave, Histoire des colonies belges qui s'établirent en Allemagne pendant le XII^e et le XIII^e siècle, Brussel, 1865 (*Mém. Acad. de Belgique*). — R. Schroder. Die Niederländischen Kolonien im Norddeutschland zur Zeit des Mittelalters, Berlin, 1880. — E. O. Schultze, Niederländische Siedelungen in den Marschen an der unteren Weser und Elbe im XII und XIII Jahrhundert, Hannover, 1889.

[illegible]

الحادثة حولهم . ولقد كانوا قلقين بشأن هذا التغير وسمحوا لأنفسهم ، دون البحث عن الربح ، بالتطلع الى النتائج التي ستعود عليهم والربح الذي سوف يجنونه من رأس المال الهائل من الأرض التي تحت تصرفهم . ومن الواضح أنهم لم يكونوا هم الذين بدءوا التغييرات لكن اجراءهم هم الذين بدءوه في النصف الأول من القرن الثاني عشر في الأقطار المتقدمة . ولقد تسبب ذلك التغير في اضمحلال نظام الزراعة القديم في الأرياف (نظام الجفالك) . ولقد كان ذلك حقيقة فقط في المقاطعات القديمة للارستقراطية العلمانية وللأديرة البندكتية ، التي تأسست وفقا للمبادئ التي كانت قد عمت خلال الحقبة الكارولنجية . وعلى الجانب الآخر ، فان بيع الرهبان البندكتيين التي أسست في القرن الحادى عشر ، أى ، فى الوقت ، الذى بدأت فى الظهور فيه أول أعراض التوازن التقليدى . قد أظهرت شكلا جديدا تماما للإدارة الاقتصادية . وطالما أن كل الأراضى الزراعية كانت من قبل مشغولة (محتلة) وقت ظهورها ، وهى فى الغالب دائما ما أسست نفسها فى أراض وأقطار برية وغير زراعية ، وسط الغابات والمروج والأحراش . فان المحسنين منحوهم منحا كبيرة من فائض عقاراتهم وقد كان الرهبان قادرين على العمل بأيديهم وفقا لرسم قانونهم .

خلفا لذلك ، فان الأديرة البندكتية ، التي كانت فى معظمها مثقلة بالأراضى الوعرة المزروعة بالفعل ، لجأت منذ البداية الى العمل فى اصلاح الأرض . وفى هذا المجال ، قام بمساعدتهم الاخوة العلمانيون (conversi) الذين ائتمنوهم على استغلال مزارع شاسعة أو ضيعات كانت بمثابة ابتكارات اقتصادهم الزراعى . وقد اكتنفت هذه الأراضى مساحات معقولة تراوحت كل قطعة منها ما بين ٥٠٠ الى ٧٠٠ فدان ، وبدلا من أن تقسم هذه المزارع بين المستأجرين ، زرعت تحت اشراف الدير (grangiarus) بواسطة الكونفيرسى (conversi) ، أو بواسطة رجال من الخارج وظفوا كعمال زراعيين .

ولم تكن عبودية الأرض ، التي كانت حتى ذلك الوقت الحالة الطبيعية العادية للملاحين ، فى الأغلب موجودة على أرض الكنيسة البندكتية ، كذلك لم تقابل هنالك الهيمنة التمسسية وغير القانونية الموجودة فى النظام القروى الوردائى . رئيس . بنالك شىء مخالف فى أرض الكنيسة البندكتية عن الأراضى المملوكة لعقارات أرض الجفالك القديمة سوى هذه المزارع البندكتية الجميلة ، بنظامها وادارتها المركزية ، وصورتها المحكمة ، واستغلالها المعقول . وهكذا فان « الأراضى الجديدة » التي خططت الأديرة

لزراعتها قد استحضرت معها نوعا جديدا من التنظيم الاقتصادي . وهنا نجد نظاما ذكيا يكشف كيف تربح جيدا بواسطة الزيادة السكانية . ولقد التجأ هذا النظام الى الفائض من العمال الذين لم يكن لديهم عمل في ظل التقسيم القديم للأرض . ومن المؤكد أن من بينهم قد جند اخوتهم العلمانيون ، الذين تزايدت أعدادهم مع النصف الثاني للقرن الثالث عشر . ولقد كان لدى بيعة الدونيس (the Dunes) ٣٦ منهم سنة ١١٥٠ . وبعد مائة عام من ذلك التاريخ أصبح عندهم ١٢٤٨ منهم . وجنبا الى جنب معهم ، نما العمال الأحرار المزودون بالضيوف (hôtes) بدرجة مماثلة (١)

ويعنى لفظ hôtes (حرفيا « ضيوف ») ، وهو يظهر مرارا وتكرارا منذ بداية القرن الثاني عشر ، ويشكل خاصية للحركة التي كانت تجرى آنذاك في المجتمع الريفي . وكما يشير الاسم ، فإن الضيف هو شخص وافد ، غريب . ولقد كان ، باختصار ، نوعا من المستعمر ، المهاجر ألباحث عن أرض جديدة يزرعها . هؤلاء المستعمرون كانوا ، دون شك ، قد انسحبوا إما من السكان المتشردين الذين تكون منهم في نفس الفترة جماعة تجار المدن الأول وحرفيوها ، أو من بين سكان المقاطعات الكبيرة الذين أراحوا عن أعناقهم أغلال العبودية للأرض . ولقد كانت الحرية هي المنزلة القانونية للضيف . وللحقيقة ، برغم أنه في الغالب قد ولد من أبوين غير أحرار ، إلا أنه سرعان ما باعد نفسه عن المقاطعة التي ولد فيها ، وأفلت من تبعيته للسيد الاقطاعي ، الذي كان هو الوحيد الذي يستطيع أن يتكلم عن أصله . ولم يكن بعد ذلك لأي أحد هيمنة على شخصه ، وصار تبعا لذلك سييدا على نفسه مالكا لحيثه . وكانت لهؤلاء الضيوف وأمامهم أراض خالية لا وارث لها كثيرة . ولقد كانت هنالك غابات وأحراش « قفراء » ومستنقعات ظلت خارج نطاق الملكية الخاصة ، وكانت من الوجهة الشرعية تبعا لسلطة أمراء المقاطعات وحدهم . وكان كل ما يحتاجه الضيف للاستقرار في هذه الأنحاء هو اذن ميسر ، ولماذا يرفض هذا الطلب ، طالما أن القادمين الجدد لا يقومون بأي تعد على الحقوق الثابتة ؟ . وسار كل شيء ليبين أنهم في حالات كثيرة قد بدءوا أولى خطواتهم في اصلاح وصرف الأرض ، مثل المستعمرين في الأقطار الجديدة . ومنذ بداية القرن الثاني عشر ، على سبيل المثال ، ثبت المهاجرون الأحرار أنفسهم في مساكن شاسعة من « غابة ثيو » « forest of Theux » التي كانت

(١) عن تنظيم المقاطعات البندكتية انظر ، على سبيل المثال :

Le polyptyque de l'abbaye de Villers (mid 13th century), edited by E. de Moreau and J.B. Goetsouwers, in the Annales pour servir a l'histoire ecclésiastique t. xxxIII and xxxIII (1906-7), and E. de Moreau, L'abbaye de Villers en brabnat, Brussels, 1909.

البلاد . ففي البربانت Brabant ، على سبيل المثال ، أصدر الأذواق
المهود التي منحت سنة ١١٦٠ لبيزى Baisy ، وفي سنة ١٢١٦
لدونجلبرج Dongelberg ، وفي ١٢٢٢ لوافر Wavre ، وفي ١٢٢٨
لكوريير Courrières ، وفي ١٢٥١ ميرشتيم Merchtem فوق تات
التي منحت للوفان Louvain . ولقد أثبتت عهود قليلة للمدن
الجديدة تطبيقا رائعا عند التنفيذ وانتشرت طولا وعرضا . وعهد لوريس ،
في بداية سنة ١١٥٥ ، فقد شمل ثلاثة وثمانين مكانا في جاتينيس
Gatinais وأورليانز ، وعهد بوهونت Beaumont ، في بداية
١١٨٢ ، فقد شمل خمسمائة قرية وقلعة في شمبانيا وبرجاند
ولكسمبرج . وعهد بريشيس Priches (١١٥٨) على عدد من المدن
الجديدة في هينولت Hainault وفيرماندوا Vermancois . وبنفس
الطريقة تناثرت باتساع قوانين بريتييل Breteuil في نورمانديا خلال
القرن الثاني عشر ، وفي انجلترا ، وويلز ، وحتى في أيرلندا .

ومع ذلك يجب ألا نغالي في التشابه بين الطرفين وأن يأخذنا بعيدا ،
كذلك يجب أن نحذر المبالغة في التشابه بين الفلاحين في المدن الجديدة
والبورجوازيين سكان المدن خاصة . فلقد كانت الحرية الشخصية للفلاحين
لا تزال محدودة بالحقوق التي احتفظ بها السيد الإقطاعي محترمة في
أرض القرية . ولقد تمتع الضيف (the hôte) ، حقيقة ، باستخدام
الحق الوراثي في الأرض مقابل إيجار (cens) ، لكن الملكية الفعلية
استمرت كامنة في السيد الإقطاعي وكل الموضوعات والأموال المتصلة بحق
الملكية كانت تحت حكم القضاء الإقطاعي . ويمكن أن يقال بصدق أن
زراعة الفلاحين في المدن الجديدة ذهبت متماسكة مع العقارات الكبرى .
وقد كونت الأخيرة القوام القانوني لكل بناء ، برغم أنها لم تراع أبدا
ظروف الرجال ، وأنها استمرت في مراعاة ظروف الأرض . وبدون شك ،
مع مرور الوقت ، أصبحت ملكية الفلاح لأرضه المستأجرة قوية للغاية
وبدأت في الغالب على ضوء حق الملكية ، لا يثقلها إلا الأجرة الاسمية
للسيد الإقطاعي . ومع ذلك فإن ملكية الفلاح لم تطرح تماما الروابط
والتعهدات التي قيدت بها حتى نهاية العهد القديم .

لنفس كانت المدن الجديدة وحدها أحد مظاهر العمل الكبير لاصلاح
الأرض الذي غير شكل أرض أوروبا منذ نهاية القرن الحادي عشر فصاعدا .
فضلا عن ذلك ، فانا نجد ذلك بالشكل الذي وصفناه ليس في أى مكان
عدا في شمال فرنسا ما بين اللوار والميز . ومن الممكن أن يقارن جنوب

اللوار بمنطقة التفور (bastides) ، التي تتماثل مع بداية نشوء الأمراء أو كبار رجال الاقطاع . وفي أسبانيا ، فإن الرباط في الأقاليم التي استعادها المسيحيون من المسلمين يقدم لنا شكلا مختلفا من أشكال المستعمرات الحربية في أوروبا . أما بالنسبة لإيطاليا ، فإنه يبدو من المحتمل أن تطور الزراعة فيها قد أنجز أساسا بزيادة زيادة العدد السكانية في المناطق الزراعية القديمة ، التي يرجع تاريخها الى العصور القديمة التي تملك فيها الناس الأرض هناك عند نهاية الغزوات الاسلامية وحروب القرن العاشر الأهلية . ولكن برغم الاختلاف في التفاصيل ، فإن المظاهر العامة كانت هي نفس المظاهر في أى مكان . وفي كل المناطق التي احتلتها الامبراطورية الكارولنجية القديمة ، فإن الكثافة السكانية أظهرت زيادة كبيرة في العدد في المراكز المسكونة ، ومن هذه المراكز اتخذ العمال الأحرار طريقهم بجد واجتهاد عبر القفار لتظفر بحقول جديدة .

وفي الأراضي المنخفضة تكفل السكان هناك في وقت واحد بحرب ضد البحر وضد الأنهار . ولم يكن التكتل السكاني الواضح هنا للبيان ، بلا ريب ، السبب في أول محاولات الصرف في الأرض . ولقد عرفنا من المصادر أنه خلال القرن الحادى عشر بدأ اقليم الفلاندرز يبعد صوبه في اطعام سكانه ، ومن المعروف ، أن عددا من الفلمنك كان قد سجد ، بالفعل ، في سنة ١٠٦٦ في جيش وليم الفاتح ، وعندما انتهت الحملة بقوا في انجلترا ، حيث تبعهم هناك فريق من أقوامهم خلال مائة عام . وبعد قليل زود هذا الاقليم الحملة الصليبية الأولى بأحد أقوى جيوشه ، ومنه للمرة الثانية جند الأمراء المجاورون أولئك المرتزقة ، الذين لعبوا دورا عسكريا في القرنين الحادى عشر والثاني عشر تحت اسم geldung أو Brabancons أو cotereaux مماثل الدور الذي لعبه السويسريون في القرن السادس عشر (١) . أخيرا ، فإن النمو السريع وغير العادى للمدن الفلمنكية في نفس الفترة يدل بوضوح على تدفق خاص لسكان الريف الى داخل المراكز المدنية . وإن الحاجة لايجاد وسائل جديدة للعين قد أحدثت الطرق

(١) H. Pirenne, Histoire de Belgique, t. I, 5th ed., p. 156.

كانت الاقطار الرومانية شاملا الفلاندرز قد بنت مزدهمة بالسكان في القرن الثاني عشر وقد أرسلت كثيرا من المهاجرين الى سليفيا كذلك الى المجر . ويبدو أن مدينة جران Grann تدين بوجودها لهم . وفي القرن الثامن عشر كانت هناك أرض لا تية يسكنها اسما شعب من لوثارينيا Lotharingia وارتواس Artois .

K. SchKneemann, Die Entstehung des Stadtwesens in Südosteuropa (Berlin, 1929).

المزقة غير الأراضي السبخة . ولقد اتخذ أدواق الفلاندرز خطواتهم منذ وقت مبكر نحو إبقائها في حالة جيدة . وبالطبع ، فإن الرياري (meerschens , broeken) والتربة الغرينية التي كان يرجى الكسب منها كانت مبرهنة بتحضيرها وتجهيزها للزرع . وفي عهد حكم بلديون الخامس (١٥٠٩ - ٦٧) كان التقدم الذي أحرزته أراضي لاسقفية ريجن Archbishop of Rheims بالتقدم بالتهنية المكونت على تحويل المناطق القديمة لم تكن قد استصلحت بعد إلى أراض خصبة غنية بأسرار المدعي . ومنذ ذلك الوقت ، تنبأرت في كل المناطق البحرية الأوراثي والخطار (vaccariae , bercariae) وعند نهاية القرن ، أصبح دخلهم كبيرا وسريع عائدا فائضا سجله مؤرخو العقود المتخصصون . وهذا يكفي ليظهر لنا أن الكونتات لم يدخلوا تنظيمات الأرض الاقطاعية الى « الأراضي الجديدة » في الفلاندرز البحرية . وقد منحت الأراضي المطلوب صرفها أو حجزها ، مثل أرض المدن الجديدة الداخلية ، للمؤثرف (hôtes) الذين جاءوا ليستقروا هنالك . وهناك كانت منزلتهم ثابتة ومثلما كانت في المدن الجديدة ، أنهم احرار ، غير فقيدين الا بفتح الألبار نقدا او ما شابه ذلك . لكن الظروف الخاصة التي خلقتها المضارع مع البحر تطلبت من هؤلاء الرجال درجة أوفق للغاية من التعاون المتكامل تلك التي بين المزارعين في الداخل . وبرغم أن جمعيات مكافحة المياه (Wateringues) وما شكلتها ، فقد شكلت مجموعات اجبارية لطبط سددق المياه ولا يقاء الجوارق في نفس المناطق البحرية . ولم يظهر ذلك في النصوص القديمة ، إلا أنه ليس هناك شك في أنها قامت بذلك منذ البداية . وفي القرن الثاني عشر تقابل على التوالي كل جانب (Benedictine) عند مصب نهر الشيلده وعلى ساحل بحر الشمال ، كلمة (أراض متخفضة متخصصة لنهر البحر) polders وهي كلمة بواسطتها دل على الأرض الغرينية ، المحجوزة والمستصلحة من البحر . وفي تلك الفترة كتبت الأديرة نموذج الكونت وبدأت تجد واجهاتها في تسخ المياه من مناطق المستنقعات في مقاطعاتهم . ولقد أخذت الكنائس البندكتية الريادة من بينهم . ففي مقاطعة الهولست Hulst وحدها ، في منتصف القرن الثالث عشر امتلك ادلين دول Dunes مساحة مساحتها من الأرض المحجوزة و حدة من أراضي البحر (حوال ٢٥٥٠ و ٧٥٠) فدانا تقريباً كنهان .

٢٤

أيضا هي نفس حالة أولئك الضيوف (hôtes) سكان المدن الجديدة .
 ومع ذلك ، فلقد أخذ هؤلاء المهاجرون في المستعمرات الألمانية ، ومعهم من
 سبقهم من الضيوف على هذه الأرض الغربية ، مكان السلاف على تلك
 الأرض . ولقد تسلموها بحق الوراثة ومنحوا الحرية الشخصية ، التي
 كانت ضرورية ولازمة في كل أراضي المستعمرات . وهكذا فإن ألمانيا
 الجديدة لم تختلف فقط عن ألمانيا القديمة في تقسيم أرضها ، ولكنها
 اختلفت عنها أيضا في مكانة سكانها ومنزلتهم .

ولم يكن التحول الكبير للطبقات الريفية في القرنين الثاني عشر
 والثالث عشر فقط نتيجة نمو التزايد السكاني فحسب ، بل كان ،
 أيضا ، بمقياس أكبر نتيجة انتعاش التجارة ونمو المدن . ولقد وضع
 نظام الأرض الاقطاعي القديم في إطار عصر الزم غياب الأسواق فيه ناتج
 الأرض أن يستهلك في موضع انتاجه ، وكان من الضروري أن يتغير الأمر
 وينتشر خارجها حين أمنت له الأسواق الدائمة بيعا منتظما . هذا هو الذي
 حدث منذ اللحظة التي بدأت فيها المدن نتاج الريف ، الذي كان ضروريا
 لسكانها . ومن الخطأ تماما أن نظهر التجمعات الريفية الأولى كمراكز
 شبه ريفية ، قادرة على أن تكفي مؤنة نفسها بنفسها . ومن البداية ،
 ظهر البرجوازيون كطبقة تجار وحرفيين وأبقت هذه السمة في كل مراكزها
 الكبرى . وهكذا كانت هذه الطبقة ، في لغة القرن الثامن عشر طبقة مادية
 Physiocrates عقيمة ، طالما كانت لا تنتج شيئا يخدم مباشرة الحفاظ
 على الحياة . وهي تعيش حياتها يوما بيوم ، وتاكل شبع يومها ،
 معتمدة على فلاحه جيرانها . وحتى ذلك الوقت كان الفلاحون قد فلدوا
 الأرض وحرثوها وخبأوا المحصول فقط لأنفسهم ولسادتهم الاقطاعيين ،
 والآن هم مضطرون ، ومضطرون تبعا للزيادة السكانية في المدن وأهمية نمو
 هذه المدن ، أن ينتجوا فائضا ، لاستهلاك البرجوازيين . وكان المحصول
 يأتي من أجرانه ويدخل بدوره في دائرة ، أما أن يحمل الى المدن المجاورة
 بواسطة الفلاح نفسه ، أو يباع في منطقة زراعته للتجار الذين تاجروا
 فيه (١) .

وبالضرورة فإن سهولة تحريك الحاصلات الزراعية قد جاب معه تقدم
 الحركة النقدية في الريف ، ولم يتحقق هذا التقدم منذ البداية ، ذلك لأنه
 ليس هنالك ما هو مناقض للحقيقة أكثر من الاعتقاد ، الذي كان سببا
 للتأخر ، بمعنى أن القرون الأولى للعصور الوسطى وما تبعها من قرون

(١) لقد كان نفوذ المدن قويا على وجه الخصوص في إيطاليا ، حيث يقع الريف
 في قبضة قوميونات كبيرة . ومن أجل معرفة أحداث تفاصيل هذه الظاهرة انظر :

A. Doren, Italienische Wirtschaftsgeschichte, t. I, p. 193 et seq.

حتى القرن الثامن ، كانت فترة تغير ، ليس في النقود فحسب ولكن أيضا في النوع ، وما كان قد عرف باسم الاقتصاد الطبيعي (Naturalwirtschaft) لم يبق على الاطلاق في شكله الخالص . وكانت هنالك دون شك ، التزامات الدفع للسيد الاقطاعي من عائلات (familia) المقاطعات الكبيرة التي كانت عادة ما تدفع من انتاج الأرض . ولا شيء يمكن فهمه أو يكون عمليا في نظام يكون فيه الهدف الوحيد هو تحصيل الايجار لمؤنة مالك الأرض ، ولكن بمجرد أن صار المحصول موضوعا للمقايضة ، قدر سعره ودفع نقدا . ولقد كانت على الساحة آنذاك مسألة التجارة المتناوبة التي كانت ضرورية للنجدة في أوقات المجاعة ، وليس هنالك أية اشارة بأن التمتع الذي كان الناس في أشد الحاجة له قد قويض عليه بدلا من أن يباع نقدا . زيادة على ذلك ، يكفيننا أن نفتح مجموعة الشرائع الكارولنجية لنقتنع بالاستخدام المنتظم للنقود في معظم المعاملات التجارية البسيطة الواقعة تحت تأثير الدينار *deneratus* في أسواق ذلك الوقت الصغيرة . حقا أن استخدام النقود كان محدودا ، ليس بسبب أنها لم تكن مسروقة ، ولكن لأن البناء الاقتصادي لذلك العصر ، كان مناقضا للنشاط التجاري الحر ، مما أنقصها الى الحد الأدنى . لكن بمجرد أن أصبح هذا النشاط طبيعيا ومنتظما ثانية ، فإن الدائرة المالية ، التي لم تختف أبدا ، تقدمت جنبا الى جنب مع التجارة . ولم تختف الاستحقاقات العينية - فهو لم تختف على الاطلاق في أي عصر ، ولا حتى في عصرنا - ولكن في الغالب عمل بها قليلا ، لأنها كانت أقل فائدة في مجتمع تزايد فيه التعامل المالي . ولم يكن ما حدث استعاضة عن الاقتصاد النقدي (Geldwirtschaft) لاقتصاد طبيعي ، لكن الحقيقة ببساطة هي أن النقد حل محلها تدريجيا كمقياس للقيمة وأداة للصرف (١) .

والحقيقة المؤكدة هو أن التعامل العام قد زاد من حجم التعامل النقدي . ولقد أصبح رأس المال النقدي في التداول بغير حدود كبيرا في القرنين الثاني عشر والثالث عشر أكثر. مما كان عليه في القرن الثامن وحتى نهاية العاشر ، ونتج عن ذلك ارتفاع في الأسعار ، من الطبيعي ، تحول في كل مكان الى فائدة للمنتجين . وبدأ ارتفاع الأسعار منذ ذلك الوقت يتماشى مع طريقة الحياة التي أصبحت مطالبها أكثر تكلفة . وفي كل اتجاه سلكته التجارة ، ولدت الرغبة عند أهلها في اقتناء السلع الاستهلاكية الجديدة التي جلبتها معها . وكما كان يحدث دائما ، رغب الأرستقراطيون في أن يحيطوا أنفسهم بالترف ، أو على الأقل بالراحة

H. Van Werveke. Monnaie, lingots ou marchandises Les (١)
instruments d'échange aux XIe et XIIe siècle, in Annales d'histoire
économique et sociale, 1932, pp. 452 et seq.

اللائقة بمكانتهم الاجتماعية • ورأينا على الفور ، على سبيل المثال ، بمقارنة حياة الفارس في القرن الحادى عشر بنظيره فى القرن الثانى عشر ، نرى مدى ارتفاع حاجة الأخير عن زميله فى الطعام ، والملبس ، والأثاث ، وفوق كل ذلك حاجته فى التسليح • ولقد كانت حاجة الأول سترتفع مثل زميله لو كانت الدخول قد أظهرت فى القرن العاشر ارتفاعا مماثلا مثلما حدث فى القرن الحادى عشر ، لكن طبقة ملاك الأراضى ، ومثلهم النبلاء ، قد ظلوا ، وسط ارتفاع تكلفة الحياة ، محكومين بالأعراف ، كذلك كان الإيجار المدفوع عن الأرض غير متغير وثابت • وبالتأكيد أن ملاك الأراضى كانوا لا يتسلمون من أجرائهم ما يكفيهم لمواصلة والاستمرار فى طريقة حياتهم القديمة ، ولكن ليس لأن يعيشوا كما يرغبون اليوم • ولقد كانوا ضحايا لنظام اقتصادى بطل استعماله ، الأمر الذى حرّمهم من أن يستخلصوا من رأسمالهم فى الأرض إيجارا مناسبا لقيمتها • ولقد حالت التقاليد دون أن تجعل ملاك الأرض يفكرون فى زيادة الإيجار على مستأجرهم أو زيادة خدمات العمل على أقدانهم ، طالما كانوا مجيزين العرف القديم وأصبحت حقوقا لهم يجب ألا تنتهك دون أن تسبب انعكاسات اقتصادية واجتماعية خطيرة •

وبالمثل فقد عجز ملاك الأرض عن مقاومة احتياجاتهم الجديدة وإيجاد المال الكافى والضرورى الذى يرضيهم ويشبع رغبتهم ، وتعرض عدد من النبلاء الى الاستدانة ، ثم أفلسوا وافتقروا • وفى منتصف القرن الثالث عشر ، يحكى لنا توماس دى كانتيمبرى Thomas de Cantimpré أنه فى دائرة كنيسة بلده (أبرشية بلده) تناقص عدد الفرسان من ستين فارسا فى نهاية القرن السابق الى واحد أو اثنين (١) ، ومن المؤكد أن هذه مجرد حالة محلية ومثال للحالة العامة • ولقد تأثرت الكنيسة نفسها بذلك • وعن نفس الفترة ، يصف لنا إيودس ريجو Eudes Rigaud أسقف روان Rouen ، حالة غالبية الأديرة الصغيرة فى دوقيته بأنها كانت سيئة للغاية (٢) • ومن الواضح أن ملاك الأرض العلمانيين الكبار وكذلك ملاك أرض الكنيسة الكبار كانوا فى وضع طيب لمواجهة الضائقة ما لم يقاطعوا تنظيم الأرض الاقطاعى القديم مقاطعة تامة تقريبا • وبرغم أنه لازال هنالك وقت طويل يسمح بالتغيير ، فان الخسائر كانت على الأقل سوف تنقص زيادة الربح مع استمرار انتاج الغلة التى تستخلص

(١) Thomas de Cantimpré, Bonum Universale de apibus, 11, 49, p. 446, in the Douai ed., 1605.

(٢) Journal des visites pastorales d'Eude Rigand, archevêque de Rouen (1248-69), ed. Th. Bonnin (Rouen, 1952).

من الأرض . ولقد أصبح الكثير من نظمهم عديم الفائدة مع انتعاش التجارة : ولقد تساءل خدام المنازل ، الذين اعتادت الاقطاعات المهمة الاعتماد على عدد منهم في صنع الملابس أو الأدوات الزراعية ، عن جدوى بقائهم على هذه الحال في وقت تضاعفت فيه مكانة الحرفيين في المدن المجاورة ؟ ولقد سمح لهم في الغالب بالانتشار أينما كانوا خلال القرن الثاني عشر . ولقد حث نفس السبب الأديرة على بيع الأراضي النائية التي كانت في حوزتها في مناطق زراعة الكروم والتي لم تكن تنتج عنباً (١) . وطالما كان النبيل متوافراً في السوق ، فلماذا يستمر الناس على التزود به بتكلفة زائدة من نتائج أرضهم ؟ أما بالنسبة للسيد الاقطاعي ، فإنه كان من السديد أن يحول أكثر ما يستطيع من أرضه بقدر إمكانه إلى أرض مستأجرة ، ذلك لأن خدمة السخرة صارت غير منتجة أو مثمرة ، فكان من الأحسن له ترك الأرض مقابل إيجار يدفع نقداً فوراً ، عن أن يخزن محاصيله ويخاطر بتعرضها للتلف أو فقدها بالحريق . وبوضوح ، أصبح غرض ملاك الأرض الأذكى آنذاك من الآن فصاعداً هو زيادة دخلهم النقدي بقدر الإمكان . ولقد قادهم ذلك طبيعياً إلى إبطال نظام عبودية الأرض أو تعديله . ولقد كان اعتاق الرجل وكسبه لحريته مقابل دفع مبلغ معين من المال ذا فائدة مزدوجة ، فهو لكي يملك حرية نفسه كان عليه أن يتنازل عن حقه في الأرض التي يستأجرها . وإذا رغب في ذلك فله أن يستبقها لكن بشروط كلها كانت لصالح السيد الاقطاعي ، وإذا فضل أن يتركها ويذهب ، فليس هنالك أسهل من أن يحل مكانه في هذه الأرض فلاح آخر . ورغم كثرة عدد من حرروا أنفسهم خلال القرن الثاني عشر ، ومع ذلك ، فإن العتق ، كما نعرف ، لم يقصر تماماً على وجود طبقة الأرقاء . ولكن ورغم بقائه إلا أنه فقد كثيراً من شكله البدائي ، فلقد سمح للمزارعين أن يخففوا عن أنفسهم أعمال السخرة وبعض الواجبات المفروضة عليهم مقابل المال ، وبرغم أن الأسماء القديمة للوقف ، والارث ، والتبعية قد بقيت حتى نهاية النظام القديم ، إلا أنها في الواقع قد خفت كثيراً عما كانت من قبل ، ومع ذلك فقد ظلت تجلب الأموال منهم ، إلا أن السخرة كانت آنذاك أخف بالمقارنة بالالتزامات التي كانت قد فرضت عليهم في الماضي . وأصبح لا مكان الآن للسلطة الاقطاعية التي اختفت ، لكن رغم ذلك فإن قوتها نمت باضطراب في قليل أم كثير بعد ذلك وظلت في شكلها الكنسي السابق . ولقد نتج عن هذا التطور أن اقترب ملاك الأراضي أكثر فأكثر

(١) في سنة ١٢٦٤ ، باعت أبرشية سان فرونز كروم دير هيمروود Himmerode في بوميرين Pommeren وبريدل Briedel على نهر الموزل ، انظر المقال المتصل بهذا الامر في : Lamprecht, Deutsches Wirtschaftsleben, t. III, p. 24 et seq.

من مستأجرى الأرض ، وهم ملاك المفهوم الجديد . وصارت غالبية الفلاحين المحررين أجراء لمن منحت له الأرض حكرا ، وكان غالبا ما يكون وراثيا . وفى خلال القرن الثالث عشر ارتفعت الأسعار فى خلال سنوات فى كل الأقاليم المتقدمة . وعلى يد العمال الزراعيين الأجراء قامت زراعة غنية فى كثير من النواحي . ولقد نصح ايدريجو Eudes Rigaud رؤساء أديرة الرهبان فى دوقيته أن يؤجروا أراضيهم بقدر امكانهم (١) . فى الجنوب ، فى منطقة روزيلون Rousillon مثلا ، صار تأجير الأرض لسنتين حتى ست سنوات أمرا مألوفا ، وجنبا الى جنب هذه الايجارات المؤقتة ، أو دفع نصف المحصول كان أيضا أمرا معتادا (٢) .

والشئ المميز آنذاك أن انحلال نظام الأرض الاقطاعى قد أدى الى تقدم متناسب مع تقدم التجارة . وقصارى القول ، أنه كان أسرع فى أقاليم ذات مدن كبيرة وتجارة كبيرة مثل : لمبارديا ، وتسكانيا ، وشمال فرنسا ، واقليم الفلاندرز ، أو ضفاف الراين ، عنه فى وسط ألمانيا أو انجلترا . وفقط فى نهاية القرن الثالث عشر بدأ النظام الاقطاعى ينفذ فى انجلترا ، فى الوقت الذى كانت فيه لاتزال دلائل كثيرة على وجوده فى اقليم الفلاندرز منذ منتصف القرن الثانى عشر . وهنا ، فإن التقدم التجارى يبدو أنه جلب مع اختفاء نظام عبودية الأرض والاسترقاق الى الأبد . واستطاع بذلك رئيس بلدى يبرس Ypres أن يكتب قائلا : « لم يعد عندنا عبيد ولا أيد عاطلة ولا أحد تشبه ظروفه ظروف هؤلاء » (٣) . ولقد كان لنفوذ التجارة النامى نتائج سريعة ، على الأقل على طول طرق العبور الكبرى وفى المناطق الخلفية للموانئ ، حيث أفرزت على الخصوص زراعة متوائمة مع طبيعة التربة والمناخ . وطالما أن الحركة التجارية كانت منعقدة أو طفيفة ، فانه يكون لزاما أن تنتج كل ضيعة أجود أنواع الغلات الشحيحة فيها والصعبة المنال . لكن مع بداية القرن الثانى عشر تسبب التقدم التجارى فى قيام اقتصاد معقول . وحيثما كان ، فى أى مكان يعتمد على التصدير ، زرعت الأرض بما يتواءم معها للتزويد بما هو جيد وأكثر رخصا . ومن القرن الثانى عشر فصاعدا

(١) انظر مقاله السابق (J ournal) ، ص ٨٢ ، حاشية رقم ٢ . ولقد نصح فى عام ١٢٦٨ أحد رؤساء الأديرة بقوله : « ترك الأرض أقل فائدة من تأجيرها » .
«quod quam melius posset, maneria ad firmam traderetur» .
(ص ٦٠٧) . وهو نفسه أجر عدة دوائر لمدة سنتين أو ثلاث وأربع سنوات للبرجوازيين والموظفين المكتبة .
(Ibid, p. 766 et seq).

(٢) J. A. Bruçails, Étude sur la condition des populations rurales (٢)
au Moyen Age, p. 117 et seq.
Beugnot, Les Olim, t. II, p. 770.

تخصصت الأديرة البندكتية فى إنتاج الصوف ، وأعشاب الصباغة (الوسمة) ، نيلة الصباغة فى العصور الوسطى ، كانت تزرع فى جنوب فرنسا ، فى بيكاردي Picardy ، أسفل نورمانديا ، وفى ثورنجا وتسكانيا . وقبل ذلك ، تاتى كروم الأعشاب التى انتشرت زراعتها ، وأوقعت الضرر بالحبوب فى كل هذه الأقطار حيث صارت تنتج النبيذ الجيد ، المجزى والمريح والذى يسهل تصديره . ولقد لاحظ ساليمن Salimbene حقيقة أن الفلاحين فى وادى الأكسير Auxerre « لا يزرعون ولا يحصدون » ، وذلك لأن أنهارهم قد حملت نبيذهم الى باريس حيث يجد هنالك رواجاً « عظيماً » (١) . ولقد قدمت مقاطعة بوردو المثال الواقعى للاقليم الذى تعتمد التجارة فيه على الزراعة . ولقد كانت منطقة مصب نهر الجيرون ، فى طريق لاروشيل ، من المناطق التى كان يصدر نبيذها بكثرة فائقة الى شواطئ الأطلنطى ، وإلى انجلترا وإلى أحواض بحر الشمال وبحر البلطيق . وعند نهاية القرن الثانى عشر امتد تصديره من ميناء بروج Bruges الى لييج Liège ، حيث زاحمت هنالك نبيذ الراين والموزيل . وفى الشق الآخر من أوروبا ، ألجأت بروسيا نفسها لزراعة القمح ، الذى حملته سفن الهانز الى موانئ أوروبا .

وفى الختام ، فانه من الضرورى أن نلاحظ أن الوحدة الكبرى للحركة الاقتصادية قد أعطت للأرض سهولة الحركة التى قلبت الأراضى المستأجرة التقليدية الى ما انقسمت اليه . ولقد تحولت أراضى الكنيسة وأراضى السادة الاقطاعيين قليلاً قليلاً وبالتدريج الى أراضى مستأجرة وبأحجام مختلفة ، وقد تألف كل منها من قطع استحوذ عليها أحد المستأجرين وكون منها مزرعة خاصة به . والآن حيث وجد المزارع سوقاً لسلمه فى المدن المجاورة ، فان طعم الادخار طراً عليه مع طعم الربح وليس هنالك ادخار أحسن من الاستحواذ على الأرض . ولكن البرجوازيين أيضاً كانوا يبحثون عن الأرض ، وكان تجار المدن الأثرياء يرون فيها أحسن الاستثمارات الممكنة بسبب ما تحققه من أرباح محققة فى التجارة . وفى القرن الثالث عشر استحوذ كثير منهم على أراضى فى الريف . ولقد تخصص الرأسماليون فى اقليم الفلاندر فى صرف الأراضى المستصلحة من البحر ، وفى إيطاليا فان رجال المال المتخصصين والأثرياء اشتروا لهم ضياعاً كثيرة وفى القرن الرابع عشر كانت لدى شركائهم الذين كانوا يديرون لهم أعمالهم فى فرنسا وانجلترا واقليم الفلاندرز الرغبة فى احراز الأرض فى أيديهم .

لكن يجب علينا أن نعمم التجربة كثيرا فيما يختص بالمظاهر التي كانت خاصة بأقاليم قليلة ، حيث رأس المال فيها يكون قادرا على تنمية كل شئونها . وفي الحقيقة ، فإن التغييرات في النظام الزراعي وفي ظروف الطبقات الريفية كانت بطيئة للغاية في كل أنحاء أوروبا التي لم تكن قد فتحت بواسطة الطرق التجارية الكبرى . زيادة على ذلك ، فإنه حتى الأقاليم التي كان التقدم فيها سريعا ، فإن نفوذ الماضي ظل عليها قويا . ولقد بدأت مساحة الأرض المنزرعة تتزايد أكثر من أية فترة سابقة ، ولكنها ظلت أقل بكثير مما هي عليه الآن .

ولقد بدا أن طرق الزراعة ظلت ثابتة ، وأن استخدام السماد كان غير معروف ما عدا في الأراضي القليلة في المناطق المتميزة ، وظل الناس في كل مكان ملتزمين تماما بنظام المناوبة في الزرع التقليدي . ومع أن كثيرا من عبودية الأرض قد استحدثت ، فإن المزارع قد ظل تابعا للتنظيم الكنسي ، وللعشور ، وللمنبلات ، ولكل تعسف القوة الذي لم تستطع الحكومات حمايته منه ، أو حمايته منه كما يجب . وكل ما يوضع في الاعتبار هو ، أن جمهور الريف ، الذي يمثل الأغلبية في الناحية السكنية ، قد لعب دورا سلبيًا خالصا في هذا الخصوص . ولم يعد للفلاحين مكان في التسلسل الاجتماعي الطبقي .

الفصل الرابع
التجارة حتم نهاية
القرن الثالث عشر

١ - حركة التجارة (١)

تظهر حيوية تجارة العصور الوسطى ، بشكل رائع لفت للنظر رغم المصاعب التي جابهت نشاط الناس والأفراد خلال هذه الفترة . ولم يكن هناك أسوأ حالا من الطرق منذ القرن التاسع . بعد أن اختفت نهائيا آنذاك كل ما تبقى من شبكة الطرق الرومانية . ولم يقتصر الأمر على وجود المكوس التي بقيت على حالها ، ولكن زاد على ذلك فرض رسوم جديدة ، وقد عرفت جميعها باسمها القديم *teloneum* ، أو مكوس السوق . ومثلت هذه المكوس استمرارا لضرائب لا لزوم لتحصيلها ، بعد أن تحولت تماما عن الغرض الرئيسي العام الذي فرضت من أجله . ولقد أصبحت مكوس العصور الوسطى (*tonlieu*) التي فرضها أمراء الأقاليم غصبا ، أصبحت مجرد ضريبة حكومية كانت تشكل عبئا كبيرا على تجارة المرور . ولم يكن يدخر أى شيء من هذه الضريبة جانبا لاصلاح الطرق أو لتجديد بناء الجسور . ولقد أثقلت هذه المكوس كاهل التجار مثلما فعلت الحقوق الاقطاعية مع الأرض . وكان التاجر الذى يدفعها يعتبرها مجرد « اغتصاب » ، و « عادة سيئة » ، وجبائية جائرة على بضائعه ، وقصارى القول فهو يعتبرها تعسفا لا أكثر . وقد كانت هذه المكوس من أكثر الموانع المزعجة التي اعترضت طريق تجارة المرور .

ومن الجلى أن أول المطالب التي نتجت عن قيام المدن هي أن يتحرر مواطنوها من هذه المكوس ، اما جزئيا أو داخل المقاطعة تحت أمراءهم

(١) Bibliography. A. Schulte, Op. cit., p. ix. W. Vogel, Op. cit., p. 17, n. 4. W. Götz, Die Verkehrswege im Dienste des Welthandels, Stuttgart (1888). T. H. Scheffel, Verkehrsgeschichte der Alpen, Berlin (1908-13), 2 vols. — R. Laur-Belart, Studien zur Eröffnungsgeschichte des Gottaräpas es, Zurich, 1934. — J. E. Tyler, The Alpine Passes in the Middle Ages (962-1250), Oxford, 1890. R. Blanchard, Les Alpes françaises, Paris, 1925. Ch. de la Roncière, Histoire de la marine française, Paris, 1899-1932, 6 vols. E. H. Byrne, Op. cit., p. 24, n. 9. Ed. von Lippmann, Geschichte des Magnetnadeln bis zur Einführung des compasses Berlin, 1932. A. Beardwood, Alien Merchants in England. 1350/1377. Their Legal and Economic Position Cambridge (Mass.), 1931.

الكنسيين ، تماما كما فعلت أديرة كثيرة قبلهم اذ نال أهلوها وحصلوا على اعفاءات كعمل من أعمال التقوى . ومن القرن الثاني عشر فصاعدا نجحت القوميونات الفنية في الحصول على امتياز التحرر من المكوس في الأقطار الأجنبية التي يتردد عليها تجارهم (١) . ولكن برغم تعدد هذه الاعفاءات ، فإن المكوس استمرت لتبقى عاثقا على كل طرق التجارة الرئيسية . وعند نهاية القرن الخامس عشر ، كان يوجد على الراين أربعة وستون مكسا ، وخمسة وثلاثون على الألب ، وسبعة وسبعون على الدانوب في مجراه داخل أسفل النمسا فقط (٢) .

ولقد تأخرت التجارة وعوقت بسبب هذه الاستغلالات المالية الحكومية مثلما حدث لها بسبب حالة الطرق التجارية السيئة آنذاك . وفي الشتاء ، كان من المستحيل التحرك من مكان لآخر على طول الطرق بسبب رخات المياه والطين . وقد تركت العناية بهذه الطرق لأولئك الذين يملكون الأرض منهم أو من لهم مصلحة واستفادة من أجر صيانتها . ولم تجر السلطات العامة في لمبارديا أية محاولة لاصلاح الممر عبر الألب ، الحيوى للغاية لربط إيطاليا بشمال أوروبا . وأى تقدم يحرز في هذا الخصوص يبدو أنه كان جهدا فرديا من جانب الرحالة ، والحجاج والتجار . ولقد كان التردد كثيرا في القديم على ممرات مونت سينيس *Mont-Cenis* وبرنار *Brenner* ، وسبتمبر *Septimer* وسان برنارد *Saint-Bernard* وفي بداية القرن الثالث عشر حين بدى في ارتياد ممر سان جوتشارد *Saint-Gothard* . والجسر المعلق الوحيد الذى لا نعرف أى شئ عن وجوده آنذاك كان قد طرح عبر هذا الممر وقام بصنعه مخترع مجهول ، بتكلفة من مستخدمى هذا الطريق دون شك ، وبذلك فتح الطريق المباشر ما بين ميلان وأودية الراين والدانوب . ولكن مملكة نابلى ، حيث كانت تحكم البيوتات الملكية للوهين ستوفين *Hohenstaufen* والأنجيفيون *Angevins* ، واستفادت من أمثلة ما فعلته الامبراطورية

(١) حصل بورجوازيو سانت أومير *Saint Omer* في سنة ١١٢٧ من وليم النورماندى على وعد بأخذ اعفاءات لهم من ملك انجلترا . وان تقرير جالبرت *Galbert of Bruges* في نفس الفترة يظهر أهمية أن هذه المدن تعلقت وتمسكت بقرار الغاء مكس السوق .

(٢) *Kulischer, op. cit., t. I, p. 301.*

لقد عدت انه كان في سنة ١٢٧١ اثنان وعشرون مكسا على نهري سكيرب *Scarpe* والشيلد ، ما بين دواى *Donai* ورويلموند *Rupelmonde* .

warnkoenig and Gheldorf, Histoire de la Flandre et de institutions, t. II, p. 460 et seq.

الرومانية ومسلمو صقلية ، بوضع السلطة الحكومية في حسابها اصلاح الطرق التجارية الرئيسية (١) ، في فرنسا ، تركت الحكومة الملكية مهمة اصلاح هذه الطرق لمن يستخدمونها ، حتى في أطراف العاصمة . وفي سنة ١٣٣٢ ، قام أهل جيننت Ghent باصلاح الطريق من سنليس Senlis على نفقتهم ، ليوصلوا بضائعهم ويسهلوا وصولها الى باريس (٢) .

ولقد أصبح بناء الجسور أكثر أهمية من صيانة الطرق . وبدون الجسور تصبح الأنهار الكبرى موانع متعبة للغاية . لكن الأهمية الحقيقية والتي كانت تستحق الاتفاق عليها ، هي الجسور التي أقيمت في المدن على نفقة البرجوازيين . مثل الجسور في ماستريخت Maastricht ولييج Liège ، وهاي Huy ، ونامور Namur ودينانت Dinant على نهر الميز ، وفي باريس وروان Rouen على نهر السين ، وفي أفينيون على نهر الرون ، وجسر لندن على نهر التيمز ، وغيرهم .

وكانت وسائل المواصلات موافقة لحالة الطرق السيئة آنذاك . فلقد كانت تستخدم العربّة الخفيفة ذات العجلتين في العادة لنقل البضائع ، لكن البضائع ذات الأهمية البالغة كانت تحمل على ظهور الخيل . ولارسال سلع ثقيلة بالبر في تلك الأيام فانه كان من الضروري أن تقسم حمولتها بين عدد من العربات أو الحيوانات . وبالتأكيد ، فان العربات الثقيلة ذات الأربع عجلات كانت مستخدمة لكن استعمالها اقتصر على الطرق غير الممهدة . ولم يؤت التقدم في استخدام الخيول في جر العربات في القرن العاشر بالنتائج المرجوة طالما أن وسائل النقل ظلت قليلة (٣) .

وهذا القصور والعجز في النقل البري للتجارة جعل النقل النهري مفضلاً عنه ، برغم التجاريق في الصيف ، والصقيع في الشتاء ، وبرغم أن فيضانات الربيع والخريف كانت في الغالب تمنع الملاحة فيها . لكن الأنهار ، رغم ذلك ، كانت الأداة الكبرى للتبادل التجاري والتصدير . ولم تبذل أي جهود لتقدم هذه الملاحة النهرية . ولقد بنيت حواجز وأرصعة

(١) G. Yver, Le commerce et les marchands dan l'Italie méridionale, p. 70.

(٢) Cartulaire de la ville de Gand. Compte de la ville et des baillis, ed. J. Vuylsteke, p. 801 (Ghent, 1900).

(٣) عن عجز الحيوان على الجر والسحب قبل القرن العاشر ، انظر : Lefebvre des Noettes, L'attelage et le cheval de selle à travers les âges (Paris, 931).

ومراس في أماكن ملائمة . وفي السهل الفلمنكي ، حيث تجرى مياه الأهوسة ببطء شديد ، كان من المستحيل حفر قنوات تغذيها الأنهار تجعلها صالحة للاتصال . ويرجع تاريخ أقدم هذه القنوات الى القرن الثاني عشر، لكن عددها ازداد في القرن الثالث عشر لدرجة مذهلة تشهد على النشاط التجاري في ذلك الاقليم . ولقد حافظوا على مستوى المياه في الارتفاع الضروري بواسطة بناء سدود خشبية رتبت على مسافات . ولقد عبرتها القوارب بواسطة زلاقات مائلة انزلقوا عليها بمساعدة حبال رفعها مرفاع (ونش) . ولقد أطلق على الجهاز كله اسم (جرافة) . وكانت التكاليف الضرورية لانشاء وتشبيد القنوات في بعض الأحيان تقع على كاهل المدن ، وفي بعض الأحيان الأخرى على كاهل التجار . ولقد رصدت المكوس بمختلف أشكالها ، التي تخالف تماما ضرائب الاقطاعيين ، لمرور القوارب، واستغل العائد في دفع تكاليف التجهيزات والصيانة (١) .

ولقد تقلدت الملاحة البحرية كذلك أهمية كبرى عن التجارة النهرية . حتى القرن الرابع عشر في البحر المتوسط والخامس عشر في البحار الشمالية ، بمعنى ، أنه حتى الوقت الذي صار استخدام البوصلة فيه عند البحارة عاما ، أجبرت السفن أن تبهر عبر شواطئها . وكانت السفن تخرج في مجموعات لرحلات قصيرة ، كثيرا ما تحرسها سفن حربية تحسبها لخطر القرصنة الخفي في البحار في وقت شاعت فيه القرصنة ، لدرجة أن التجار أنفسهم لم يتوانوا عن قتالهم والمشاركة في أعمالها حين تواتبهم الفرصة لذلك . وتراوحت حمولة السفينة ما بين المائتي طن والستمائة (٢) . ولقد استخدمت السفن الشراعية ذات المجاديف الكبيرة بصفة رئيسية في البحر المتوسط . ولقد كانت سفن العشاريات nef الفرنسية وسفن البحر الأسود والبليطيق ذات الدواليب cogge مجرد مراكب إبحار فحسب ، مرتفعة في الماء وذات جوانب مبقولة . ولقد عملت الامكانات الكاملة للدفة في السفن ، في البداية ، في القرن الثالث عشر على تحسين نوعيات الإبحار لكل السفن (٣) . لكن هذه السفن لم تخاطر أبدا في الإبحار في رياح

(١) H. Pirenne, Les overdrages et les portes d'eau en Flandre au XIIIe siècle, in Essays in Medieval History presented to Thomas Frederick Tout (Manchester, 1925).

(٢) Byrne, Op. cit., p. 9 et seq. : انظر :

ولقد أظهرت أبحاثه أن كلماتها كانت أكبر بكثير عما كان يعتقد في السابق . وكان كثير منها يستطيع حمل من ١٠٠٠ الى ١١٠٠ راكب .

(٣) Lefebvre des Noettes, Le gouvénail. Contribution à l'histoire de l'esclavage in Mémoires de la société des antiquaire des France. 1934, p. 24 et seq.

وتبدو استنتاجات المؤلف أنها تبالغ في أهمية هذا التقدم والتحسين .

السناء • وحتى بداية القرن الرابع عشر حدث هنالك استثناء وحيد وهو أن عبرت السفن الإيطالية مضيق جبل طارق ، ولكن في سنة ١٣١٤ نظمت البندقية وجنوة أساطيلها لتذهب الى اقليم الفلاندرز وانجلترا (١) . أما عن الهانز Hansards ، الذين حلوا ، منذ القرن الثاني عشر ، محل الإسكندنافيين في المياه الشمالية ، فإن سفنهم لم تذهب جنوباً لأبعد من خليج بسكاي ، حيث اشتغلوا بالاتجار في الملح في خليج بورجنيف Bourgneuf وبالنبيذ في خليج لاروشيل •

ولقد أدت إقامة الموانئ الى بناء سقائف ووجود أوناش وصنادل لتفريغ حمولة السفن • واعتبرت تلك الموانئ التي بنيت في الجنوب في البندقية ، والتي بنيت في الشمال في بروجز Bruges أكثر الموانئ أمناً وأحسنها إدارة في جميع أوروبا • ولقد استخدمت أبراج الكنايس وأبراج أجراسها لتبني للمبحرين في الأنهار قرب الوصول الى اليايسة • وفي بعض الأحيان كانت توقد نيران فوق تلك الأبراج وتستخدم كمنارات • وبعد تفريغ حمولة السفن تسحب في العادة الى الشواطئ لعمل الإصلاحات اللازمة •

ولقد كانت هنالك عوائق كثيرة على كاهل الحركة التجارية بسبب تزايد الضرائب الداخلية ، لكن الى جانب ذلك ، وبعبء عن تلك العوائق ، فإن بعض التعويضات كانت قد وجدت أخيراً على الحدود السياسية • وليس قبل القرن الخامس عشر ، أخذت أولى إمارات الحماية تبدأ في الاعلان عن نفسها • وقبل ذلك ، فليس هنالك شاهد واحد في أدنى رغبة لشمول التجارة العالمية بالحماية من المنافسة الأجنبية •

وفيما يتعلق بالعالمية التي ميزت حضارة العصور الوسطى حقيقة في القرن الثالث عشر ، فإنها كانت مقيدة بوضوح خاص في سلوك الولايات • فلم تبدل هذه الولايات أية محاولة للتحكم في حركة التجارة وسيكون من العبث أن نبحث عن أية آثار لسياسة اقتصادية تستحق الذكر • ومن الطبيعي أن كان للعلاقات السياسية بين الأمراء صداها في المجال الاقتصادي • وفي وقت الحرب ، يتم أسر تجار الأعداء ومصادرة بضائعهم وحجز مراكبهم والاستيلاء عليها • ولقد كان الحظر التجاري أداة شائعة الاستعمال دلالة على القسر والاعتصاب • في القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، توقف ملوك انجلترا ، أثناء حربهم مع الفلاندرز ، عن تصدير صوف لذلك الاقليم ، حتى يتسببوا لهم في كارثة صناعية تجبرهم

A. Schaube, Die Anfänge der venezianischen Galeerenfahrten (١)
nach der Nördsee, in Historische Zeitschrift, t. CI (1908).

على الاستسلام . وكانت تلك الاجراءات هي الوسيلة الوحيدة لظهور دوام القوة وثباتها . وحين يتقرر السلم ، يستمر الحال على ما كان عليه سابقا ، ولا يصبح هنالك مجال للتفكير في محاولة الحاق الخراب بالعدو بالسطر على أسواقه أو الاستيلاء على صناعته . وبالاختصار ، فإن أمراء العصور الوسطى ظلوا يدون أي روح تجارية ، باستثناء ، على ما يبدو ، فردريك الثاني وخلفائه الأنجيفيين Angevin في مملكة نابلي . وفي هذا المقام ، بالطبع ، نستطيع أن نلاحظ ، تحت نفوذ البيزنطيين والمسيحيين في صقلية والمغرب بدايات وساطة الدولة في النظام الاقتصادي . ولقد احتفظ الحاكم لنفسه باحتكار تجارة القمح وأقام ادارة منتظمة للجمارك في الثغور . ولقد جاء اهتمام الحاكم بأمر هذه الوساطة عملا حكوميا خاصا ، لكن وضع التجارة تحت سيطرة الحكام أظهرت أن الحكام باثروا مسلحا جديدا ، ألقى بظلاله على السياسة التي اختارتها الملكيات الجديدة في العصر الحديث (١) . ولقد كان ملوك نابلي سابقين لعصرهم ، اذ عملوا خلال نطاق ضيق وبقدر محدود في هذا الخصوص ووجد من يقلدهم في ذلك ، لكن عملهم هذا لم يكتب له البقاء بعد كارثة شارلز أنجو Charles of Anjou في سنة ١٢٨٢ .

وان فكرة استغلال التجارة وتسخيرها لصالح خزائن الأمراء ، من الطبيعي أن تكون قد وردت على خاطر كل الحكومات . ولقد كان الأجانب غرضة في أي مكان لمكوس خاصة ، وان لم يكونوا مرتبطين بمعاهدات ، فإن بضائع التاجر تتعرض لمخاطر كبيرة ويتعرض هو لتحقيقات مقاطعة الأمير وقت الحاجة . لكن اذا كان الأمير قد ظلمه ، الا أنه قد قام أيضا بحمايته . وعلى كل الجوانب ، فالتاجر ، مثله مثل الحاج ، كان تحت حماية خاصة من اللورد الذي كان مسافرا عبر أرضه وكان تحت حماية الأمن العام . ولقد اكتسب أكثر من أمير اسما محترما كمقاوم للصيود وقطاع الطرق . وبرغم أنه منذ نهاية العصور الوسطى ، وحتى بعد ذلك ، قد بقي عدد محدود من الفرسان والبارونات الذين كانوا يمثلون رعبا للتجار ، لكن من الحق أنه نقول بأنه بداية من بداية القرن الثالث عشر تواجد نظام هؤلاء الجبابرة (Raubritter) فقط في مقاطعات نائية ، أو في أقطار استسلمت للقوضى . ومنذ ذلك الحين فصاعدا ، وبخاصة في أوقات السلم ، فإن الحكومات قد ثبتت العدالة وطبقته بصرامة وأعطت سلطات مطلقة لموظفيهم لمجابهة السرقة . وفي نفس الوقت قامت الحكومات بتعديل بعض الممارسات التي تعارضت مع التقدم الاقتصادي . وقد كان

(١) Over, op. cit.

(١) عن السياسة الاقتصادية لمملكة نابلي انظر :

النورد يعتبر أن من حقه كل ما يلفظه البحر الى الشاطئ من حطام السفن الغارقة ، الا أنه هذا الحق قد ألغى الآن أو نظم وفق معاهدات . وبالمثل ، فقد عقد عدد متزايد من الاتفاقات ، لحماية التجار الأجانب من الوقوع في الأسر في مقابل ديون سيدهم الاقطاعي عليهم ، أو ديون أهل وطنهم .

وقد وضعت كل هذه الأسس تحت الحاح متزايد وشديد خلال القرن الثالث عشر ، الا أنه تطبيقها كان متقطعا ومشكوكا فيه ، وفقا لنقص تنفيذ الجزاءات التي تلزمهم بذلك . ومع ذلك ، فلقد نما الشعور بالأمان ، وقل السلب والنهب ، وقد كان ذلك في صالح تقدم التجارة والمعانة العالمية .

في البداية ، أجبر الخطر المتعدد الذي كان يهدد التجار على أن يسافروا في عصابة مسلحة في قوافل كبيرة . والأمان يجب أن يدفع ثمن القوة ، والقوة لا يتحصل عليها الا بالاتحاد . ولقد حدث نفس الشيء في إيطاليا ، وفي الأراضي المنخفضة ، في هذين القطرين حيث كانت التجارة تنمو بسرعة أكثر . ولم يكن هنالك فارق في هذه الحالة بين الرومانسيين والشعوب الجرمانية . وأيضا كان الاسم الذي جاء تحته الاتحاد ، سواء أكان من الاخوة أم الرافة أم الصحبة أم الجماعة ، فلقد كانت الحقيقة تعنى نفس الشيء . وهنا ، كما كان في كل مكان ، كان التصميم على أن التنظيم الاقتصادي ليس نبوغا قوميا ولكنه ضرورة اجتماعية . وكانت مجتمعات التجارة البدائية عالمية غير محلية مثل المجتمعات الاقطاعية . ولقد سمحت لنا المصادر أن تكون صورة واضحة ناصعة لمجموعات التجار وفرقهم ، الذين نراهم بأعداد كبيرة وزائدة في غرب أوروبا منذ القرن العاشر فصاعدا . ولقد أحاطت أعدادهم المسلحة بالأقواس والسيوف بالخيول والعربات المحملة بالأجولة والزكائب ، والحقائب والبراميل . وفي المقدمة يمشى حامل الراية (Schildrake) والقائد Hansgraf أو Douyen ، يمارس سلطته على الجماعة ، التي تتكون من « اخوة » يربطهم قسم الاخلاص . ولقد أحييت روح التضامن والتماسك كل المجموعة . ومن الواضح ، أن البضائع كانت تباع وتشترى مشاعا مشتركا وتقسّم الأرباح بعد ذلك وفق نصيب كل رجل منهم (١) . وكلما طالت الرحلة ، نجم عن ذلك الربح في عصر كانت الأسعار فيه تعتمد أساسا على ندرة البضائع المستوردة ، وهذه الندرة تتزايد ببعده المسافة . ومن السهل أن نفهم أن الرغبة في الربح كانت قوية بما فيه الكفاية

C. Koehne, Das Hansgrafenmal, Berlin, 1893. W. Stein.

لنعدال مخاطر البقاء جوالا . ومن بداية القرن الثاني عشر ذهب رجال الدينانت Dinant بعيدا حتى مناجم جوسلار Goslar للحصول على مؤن من النحاس ، وتردد تجار كولونيا وهاي والفلاندرز وروان على ميناء لندن ، وشوهه عدد من الايطاليين في أسواق ييريس Ypres . وما عدا في فصل الشتاء ، كان التاجر الجرى باستمرار على الطريق ، ولذلك تمكن بسلامة نية أن يطلق عليه اسم « ذو الأقدام المتربة » (pedes pulverosi ، « dusty foot » (piepowders) (١) . وسرعان ما ظهرت هذه الأعداد البشرية الهائلة الجائلة في عدد من الجامعات البشرية أصبحت ضرورية للنشاط التجاري كلما ازدادت أعدادها . ولقد كرست جماعة هانز باريس في وادي السين ، نفسها للعمل في الملاحة الداخلية حتى روان Rouen (٢) . وفي اقليم الفلاندرز ، في القرن الثاني عشر ، تكون اتحاد لمذاهب المدينة ، المتخصص في التجارة مع انجلترا ، تحت اسم هانز لندن (٣) . وفي ايطاليا ، أدت جاذبية أسواق (شمبانيا) الى تكوين « اتحاد تجار ايطاليا » في اقليم شمبانيا والممالك الفرنسية .

« Universitas mercatorum Italiae nundinas campaniae ac regni Franciae frequentantium » .

General Organization Of the A
ria Library (GOAL)

ولقد قام الاتحاد المسمى بالهانز المكون من ١٧ مدينة ليشمل تجار عدد من المدن المصنعة للملابس في شمال فرنسا والأراضي المنخفضة ، من الذين تاجروا أيضا مع شمبانيا (٤) .

(١) انظر ما سبق ، ص ٥٣ ، جاشية رقم ١ . وتبين الفقرة التالية بوضوح حالة التجار المسافرين في العصور الوسطى . في سنة ١١٧٨ صوبوا مطالبهم ضد الكونت وليام كليتون ، فافلين :

"Nos in terrahac (Flanders) clausit ne negociari pos emus, imo quicquid hactenus possedimus, sine lucro, sine negotiatione, sine acquisitione rerum consumpsimus, unde justam habemus rationem expellendi illum a terra".

Galbert of Bruges, Histoire du meurtre de Charles le Bon, ed. H. Pirenne, p. 152.

E. Picarda,, Les marchands de l'eau. Hanse parisienne et (٢)
compagnie française, Paris, 1901. G. Huisman, Le juridiction de la municipalité parisienne de la hanse parisienne des marchands de l'eau, in Mélanges d'histoire offerts à M. Charles Bémont, Paris 1913.

H. Pirenne, La han e flamande de Londres, in Bulletin de (٣)
la Classe des Lettres de l'Académie de Belgique, 1899, p. 65 et seq.

H. Laurent, Nouvelles recherches sur la Hanse des XVII villes, (٤)
in: Le Moyen Age, 1935.

ولقد كان التاجر ينتقل من مكان لآخر في البحر كما كان ينتقل على اليابسة للتجارة . وهنا ، فهو أيضا عليه أن يؤدي كل شيء بنفسه ، فهو يأخذ مركبا للأماكن التي يستطيع أن يبيع فيها بضاعته ويشتري الشمحنات اللازمة لبلده . لكن ، مع مرور الوقت ، ولقد تطلب الأمر قيام رأسمالية متقدمة تطلبت حضور رؤوس رجال الأعمال في مركز شئونهم التجارية والمهنية ، ولقد اعتمد الأمن والأمان على القيام بتجريدات عسكرية لضبط الأمور في الميناء ، ولقد تحسن مستوى التجار في القراءة والكتابة حتى انهم أصبحوا قادرين على أن يديروا أعمالهم بالمراسلة . ثم قلت الحاجة بعد ذلك للقيام برحلات تجارية شخصية بعد أن صارت الحياة التجارية أكثر استقرارا ، وصار التصدير ، كفرع خاص من النشاط ، يمتلك مقوماته الذاتية (١) . ولقد صار رؤساء البيوت التجارية الكبرى ممثلين في فروعهم الأجنبية بواسطة شركاء أو وكلاء (« factors ») . ولقد تقدم هذا النظام تماما في إيطاليا في النصف الثاني من القرن الثالث عشر وصار حينذاك يزداد أيضا تقدما في كل الأقطار . وإن السلامة في البحر ، حيث تكون مراكب التجار في رحلة طويلة ومهددة بخطر القراصنة ، فرضت على التجار أن يسلحوا أنفسهم لقرون تالية ، ومن الآن فصاعدا استطاعت التجارة أن تستغني عن التجهيزات العسكرية التي كانت تحيط بها في أيامها الأولى .

٢ - الأسواق التجارية العالمية (٢)

كانت الأسواق من أكثر المعالم اللافتة للنظر في التنظيم الاقتصادي في العصور الوسطى ، بسبب الدور المهم الذي لعبته هذه الأسواق في هذا التنظيم ، وبخاصة فيما بعد نهاية القرن الثالث عشر . ولقد تكاثرت

F. Förlig, *Hansische Beiträge zur deutschen Wirtschaftsgeschichte*, (١)
p. 217 et seq. (Breslau, 1928).

Bibliography. Huvelin, op. cit., p. viii. F. Bourquelot, *Etude* (٢)
sur les foires de Champagne, Paris, 1865, 2 vols. C. Bassetmann,
Die Champagnermessen, Ein Beitrag zur Geschichte des Kredits,
Leipzig, 1911. G. Des Marex, La lettre de foire à Ypres au XIII^e siècle,
Brussels, 1901 (Mém. Acad. Belgique).

H. Laurent, Document relatifs à la procédure en foire de champagne
contre des débiteurs défaillants, in Bulletin de la Commission des
anciennes lois et ordonnances de Belgique, t. XIII (1929). H. Pirenne,
Un conflit entre le magistrat prois et les gards des foires de
Champagne, in Bulletin de la commission royale d'histoire de
Belgique, t. Lxxxvi (1922). A. Sayous, Les opérations des banquiers
italiens en Italie et aux foires de champagne pendant le XIII^e
siècle, in Revue historique, t. CLXX (1932).

هذه الأسواق فى كل الأقطار ، وحيشما كانت ، فانها كانت تحمل شكلا جوهريا واحدا ، حتى انه من الممكن اعتبارها ظاهرة عالمية ، موروثه من داخل ظروف المجتمع الأوربى . ولقد بلغت هذه الأسواق ذروتها العددية فى فترة التجوال التجارى ، أما حين استقر التجار وأقاموا فى المدن تضاد عدد هذه الأسواق . أما تلك الأسواق التى نشأت فى نهاية العصور الوسطى فانها كانت ذات طراز مختلف تماما عن السابقة ، وأهم ما يلاحظ عليها ، أن أهميتها فى الحياة الاقتصادية لم تكن تقارن بحياة سابقاتها .

وسوف يكون من غير المثمر أن نبحث عن أصل الأسواق (nundinae) فى تلك الأسواق الصغيرة المحلية ، التى ظهرت مع بداية القرن التاسع فى أعداد متزايدة فى كل أوربا . وبرغم أن الأسواق كانت تابعة للأسواق المحلية (markets) فانها لم ترتبط بها بأية حلقة ، وهى أظهرت بالطبع ، الاختلاف الكامل عنها . ولقد كان هدف الأسواق المحلية هو أن تزود النواحي بالمؤن الضرورية للحياة اليومية للسكان . وبسبب تحديد دائرة جذبها وحصر نشاطها فى عمليات البيع بالمقسم (بالقطاعى) فسر ذلك سبب انعقادها أسبوعيا . أما الأسواق التجارية ، فعلى العكس من ذلك ، فانها اجتماعات موسمية للتجار المحترفين . وهى مراكز للتبادل خصوصا البيع بالجملة ، وقد أقيمت لجذب أكبر عدد ممكن من الناس والبضائع والسلع ، محررة من أى قيود محلية . وهى ربما تقارن بالمارش العالمية ، لأنها لا تستثنى شيئا أو أحدا ، وكل فرد ، مهما كان وطنه ، وكل سائفة من الممكن أن تباع أو تشتري ، مهما كانت طبيعتها ، ضمنت ووجدت قبرولا فيها . اضافة على ذلك ، فانه كان من المستحيل أن تعقد أكثر من مرة ، أو بالأكثر مرتين فى السنة . فى نفس المكان ، لما تحتاجه من استعدادات ضرورية كبيرة . وانه لاجقا أن نصف قطر معظم الأسواق كان محدودا ما بين منطقة فسيحة أو أقل اتساعا . ولقد جذبت أسواق شيمانيا بمفردها فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر التجار من كل أوربا . لكن الشئ المهم أنه من الوجهة النظرية كان كل سوق مفتوحا للتجارة ، كما كان كل ميناء بحرى مفتوحا للسفن . ولم يكن الاختلاف بين الأسواق التجارية والأسواق العادية المحلية فقط فى الحجم ولكن الاختلاف كان أيضا فى النوع .

وباستثناء سوق سان دينيس Saint Denis ، بالقرب من باريس ، الذى يرجع تاريخه الى عصر الميروفنجيين ، والذى ثبت وحيدا خلال فترة العصور الوسطى الزراعية ، ولم يكن له مثيل ، فان الأسواق التجارية يرجع تاريخها الى فترة الاحياء التجارى . وأقدم هذه الأسواق بينها كان موجودا وقائما فى القرن الحادى عشر ، وفى القرن الثانى عشر ازداد عددها

واستمرت في الزيادة أكثر فأكثر في القرن الثالث عشر • ولقد حددت حركة التجارة الكبرى أماكن هذه الأسواق • ولقد ازدادت هذه الأسواق في أعدادها حسبما كانت التجارة في الدولة نشيطة ومهمة • أما مقاطعات الأمير فكان له وحده حق انشائها • وغالبا ما كان يمنحها للمدن ، ولكن بأية وسيلة كانت ، فلقد امتلكوا كل المراكز التجارية الريفية ، ولم تكن هنالك أسواق آنذاك في بعض المدن التي لها أهميتها الأولى ، مثل ميلان والبندقية ، وفي إقليم الفلاندرز برغم وجود أسواق تجارية في بروجرز ويبريس وليل ، ولم يكن هنالك منها في المراكز النشطة مثل غينت Ghent بينما وجدت في ثوروت Thourout ومسينا Messines ، التي كانت مجرد أسواق صغيرة • وكان نفس الشيء في شمينيا بالنسبة للأماكن مثل لاجني Lagny ، وبر سور أيوب Bar-sur Aube ، اللتين كانتا مشهورتين بالأسواق التجارية المشهورة التي كانت تعقد فيهما •

وهكذا ، جاءت أهمية هذه الأسواق التجارية من كونها مستقلة عن المكان الذي تعقد فيه ، ويفهم ذلك بسهولة ، طالما أن الأسواق التجارية لم تكن أكثر من اجتماعات موسمية للقريب والداني ، وهي لا تعتمد على كثافة السكان المحليين • ولقد أسست في النصف الثاني للعصور الوسطى ، الأسواق التجارية بفرض تزويد مدن معينة بمصادر إضافية ، وبإذنب زحام الناس • ولكن من الواضح في هذه الحالات أن اعتبارات التجارة المحلية كانت أعظم وأن المجتمع قد تحول عن غايته الأصلية والجوهرية •

ولقد أعطى القانون الأسواق التجارية وضعاً مميزاً • فلقد كانت الأرض التي تعقد عليها مكفولا لها الأمان والحماية التامة • ولقد حمل ذلك معه عقوبات قاسية رادعة في حالة المخالفة • وكل من كان يذهب الى الأسواق كان تحت الحماية (conduit) ، أي حماية أمير المقاطعة • ولقد أكدت « حراسة الأسواق » (custodes nundinarum) النظام وحافظت عليه ووضعت لاحكامه أحكاماً خاصة • ولقد كتبت تعهدات خاصة اعتبرت ملزمة لصاحبها بما فيها ، ورسمت بعض الامتيازات لجذب أكبر عدد ممكن من المنتفعين • وفي كامبراى Cambrai ، على سبيل المثال ، أعطيت بعض التصاريح بلعب النرد والورق داخل سوق سان سيمون وسان جيميد Saint Jude • « لقد كانت الأعياد والألعاب هي وسيلة الجذب الرئيسية للسوق » (١) • لكن أكثر الفوائد فعالية في هذه الأسواق تمثلت في « امتياز الإعفاء » ، الذي يحرر التجار الداهيين الى السوق من حق الأخذ

Huvelin, op. cit., p. 439.

بالتأثر لجرائم ارتكبت أو ديون وقعت خارجها ، ومن حق الاستيراث ، الذي أوقف دعاوى وأحكام الإعدام طالما كان أمان السرقة قائما . وأكثر هذه الفوائد عامة كان تعاقب الامتيازات الخاصة بالكنيسة من الربا وتثبيت أقصى سعر للفائدة .

وإذا ما تفحصنا التوزيع الجغرافي للأسواق التجارية ، يتضح لنا على الفور أن أكثرها شغلا تركز في الغالب حول منتصف الطريق عبر طريق التجارة الكبير ، الذي يجرى من إيطاليا وبروفانس إلى ساحل الفلاندرز . وكانت أشهر هذه الأسواق التجارية « أسواق شمبانيا وبري » « Fairs of Champagne and Brie » ، التي تلا بعضها البعض الآخر خلال مجرى العام . ويبدأ أولا سوق Marne — on the — Lagny في يناير ، ثم في يوم الثلاثاء قبل mid-Lent of Bar ، في مايو أول سوق بروفانس Provens ، ويعرف بسوق سانت كويرياس Saint of Quiriace ، في يونيو سوق « Warm fair » في مدينة ترويز Troyes ، في سبتمبر السوق الثاني لبروفانس أو سوق سانت أيول Saint Auoul ، وأخيرا ، في أكتوبر ، لاكمال الدورة ، « السوق البارد » Cold fair في ترويز . في القرن الثاني عشر ، تستمر هذه التجمعات لمدة ستة أسابيع ، تاركين فقط فترة الاستراحة الضرورية لنقل البضائع . وأهم هذه الأسواق ، بسبب توقيتها ، كانت أسواق بروفانس وسوق ترويز الدافئ . ولقد كان نجاح تلك الأسواق دون شك راجعا إلى موقعها الممتاز . ويبدو من الواضح أنه مع بداية القرن التاسع تردد العدد القليل من التجار في سهل شمبانيا ، إذا كما بدأ كل شيء يشير إلى ذلك الأمر كما ورد في خطاب Loup de Ferrières وكان ذلك في Chappas ، في مقاطعة أيوب Aube . وبمجرد أن انتعشت التجارة ، استمال السفر المتزايد عبر شمبانيا نبلاءها لاحتراز الفائدة الكبرى من وراء ذلك لبلادهم وتقديمهم جميع وسائل الراحة للتجار في الأسواق التي أقيمت بجوار بعضها البعض .

وفي سنة ١١١٤ ظل سوق بار وسوق ترويز باقيين لبعض الوقت وبدون شك كان ذلك نفس الشيء مع أسواق لاجني Lagny وبروفانس Provens ، حيث وجدت أسواق أخرى بالقرب منهم (والتي لم تلق نفس النجاح عند بار Bar على السين ، وهي أسواق Chalons on the Marne و — Château-Thierry ، و Nogent on the seine ، وغيرها — ومماثلا لهذه الأسواق كانت خمسة أسواق الفلمنكية في بروجرز ، وبيرس ، وثوررو ، ومسينا عند نهاية الخط الذي يبدأ من عندهم إلى بحر الشمال .

ولقد شهد القرن الثاني عشر نموا سريعا غير عادى لنجاح هذا النظام التجارى . وليس هنالك من شك أنه من السابق فى عام ١١٢٧ كانت هنالك صلات نشطة قائمة ما بين أسواق الفلاندرز ومثيلاتها فى شمبانيا، بما وصفه جالبرت Galbert عن الفرار المرعب لتجار لمبارديا من سوق بيرس ، حين سمعوا أخبار اغتيال كونت شارلز الطيب Count Charles the Good ومن جانبهم وجد الفلمنكيون فى شمبانيا سوقا دائما للايسهم ، الذى يصدر من هناك اما على أيديهم ، أو على أيدي المشترين الايطاليين والبروفنساليين ، الى ميناء جنوة ، ومن هناك يصدر الى موانئ الشرق البحرية (١) . ومن شمبانيا ، فى المقابل ، استورد الفلمنكيون خام الحرير المنسوج ، والسلع الذهبية والفضية ، واستوردوا بخاصة التوابل، التى يزودون أنفسهم بها فى بروجز Bruges فى نفس الوقت الذى يتزودون فيه بالأقمشة الفلمنكية والنبيذ الفرنسى . وفى القرن الثالث عشر ، بلغت العلاقات التجارية قمة ارتقائها . وفى كل سوق من أسواق شمبانيا نصب البزازون « خيمهم » ، مجتمعين وفقا للمدن ، حيث يعرضون أقمشتهم ، ويركب «موظفو السوق» دون أى عائق بين شمبانيا والفلاندرز، حاملين بضائع وكلائهم (٢) . ولكن اذا كانت أسواق شمبانيا تدين بالفعل بالكثير فى أهميتها للاتصال الذى قامت به مبكرا ما بين التجار الايطاليين والصناعة الفلمنكية ، فانه أدى الى زيادة نفوذهم فى كل أرجاء الغرب . « ولتند أصبغ يوجند فى أسواق ترويز Troyes منازل ألمانية ، وأسواق ، وفنادق خاصة بتجار مونتباييه Montpellier ، وبرشاونة ، وفالينسيا ، وليريدا Lérida ، وبروفانس ، وأفرجين overgne ، وديوان ، وهونثوبان Montauban ، وبرجانديا ، وبيكاردى Picardy ، وجينييف Geneva ، وكليرمونت ، وبيرس ، ودواى Douai وسانت أومير Saint-Omer » . وفى بروفانس ، كان للمبارديين مساكن خاصة بهم ، ولقد أطلق على أحد أحياء المدينة « حى الألمان » Vicus Allemannorum ، متلما كان هنالك حى للانجليز فى لاجنى Lagny (٣) . ولم يكن الاتجار فى السلع التى تجذب الناس من بعد الى أسواق شمبانيا هى السبب الوحيد لهذا الازدحام فى ذلك الاقليم ، فهناك روايات عديدة عن الاستيطان الذى حدث هناك، حتى انها أصبحت ، كما تعنى العبارة الموقفة ، « سوق مال أوروبا » (٤) .

(١) انظر ما سبق ، ص ٢٨ .

(٢) يعطى Espinas وصفا مفصلا حيا عن هؤلاء الوكلاء فى :
Une guerre sociale in'ér-urbaine dans la Flandre wallonne au XIIIe siècle, pp. 24, 35, 72, 83, etc. (Paris-Lille, 1930).

Huvelin, op. cit., p. 505.

(٣)

L. Goldschmidt, Universalgeschichte des Handelsrechts, p. 226. (٤)

وفى كل سوق تجارى ، تتبع بعد فترة تمهيدية تخصص للبيع فترة للوفاء والدفع . ولا تشتمل هذه المدفوعات على سداد الديون المعقودة فى نفس السوق فحسب ، بل انه غالبا ما كانت تسدد فيها ديون الأسواق السابقة . ومنذ القرن الثانى عشر فصاعدا أدى هذا النظام الى تأسيس تنظيم لسداد الديون ، نستطيع من خلاله أن نبحث عن أصل مكوس المعاملات التجارية . وقد كان للايطاليين ، الذين كانوا أكثر باعا من غيرهم من الأوروبيين فى موضوع الربا ، الاستهلال فى ذلك والأولوية . وحتى ذلك الوقت لم تكن الصكوك سوى تعهدات بسيطة مكتوبة لدفع مبلغ من المال فى مكان غير المكان الذى تم فيه عقد الدين ، وهى لفظيا تعرف « بورقة للدفع فى مكان محدد » . ويتعهد الموقع على هذه الورقة أن يدفع فى مكان آخر للملتزم أو للمدين له ، أو لوكيله ، وفى بعض الأحيان يدفع بنفسه هذا الدين من خلال وكيل *nuntius* يعمل لحسابه . ولما كانت أسواق شمبانيا كثيرة ومتناثرة فى أماكن عديدة فإن الديون كانت تدفع فى أحدها أو فى أى منها ، دون النظر الى مكان كتابة صكوكها . ولم يكن ذلك الوضع فقط خاصا بديون التجارة ، ولكنه طبق على السلف البسيطة التى يقتترضها الأفراد ، والأمراء أو بيوت العبادة . وأكثر من ذلك فإن كل أسواق أوروبا التى كانت على اتصال بأسواق شمبانيا أظهرت تلك التعريفة بها ، فى القرن الثالث عشر ، بقيامهم بانجاز الديون وسدادها « بالمقاصة » ، وهى تعنى ، تصفيات حسابية . وهكذا كانت الأسواق التجارية فى أوروبا فى ذلك الوقت تلعب دور جنين بيوت المقاصات . وحين نتذكر أن الناس الذين تجمعوا هنالك من كل أنحاء القارة ، فانه من السهل علينا أن ندرك كيف أنهم كانوا فى حاجة الى أن يطلعوا عملاءهم على عمليات القروض الصحيحة المستعملة بين الفلورنتيين والسينيين *Sienece* ، الذين كان نفوذهم زائدا فى الاتجار فى المال .

ومن الممكن اعتبار أن أسواق شمبانيا قد بلغت قممتها فى النصف الثانى من القرن الثالث عشر . لكن بداية القرن التالى شهد تقلصها . ولقد كان السبب الجوهري لذلك ، دون شك ، هو تحول الأسواق التجارية المتنقلة الى أسواق دائمة ، فى نفس الوقت الذى حدث فيه تقدم اتصال السفن المباشر من الموانئ الإيطالية الى موانئ الفلاندرز وإنجلترا . وليس هنالك شك ، أيضا ، فى أن الحرب التى وقعت فى كونتية الفلاندرز وملوك فرنسا من عام ١٣٠٢ حتى ١٣٢٠ ، قد أدت أيضا الى تقلصها ، بسبب حرمانهم من أنشط جماعات عملائهم الشماليين . وبعد قليل ضربتهم حرب « المائة عام » بالضربة القاضية . ومنذ ذلك الوقت تلاشت هذه المراكز التجارية الكبرى ، التى كانت قد قامت فى أوروبا منذ أكثر من قرنين . ولكن الممارسات التى وقعت هناك فتحت الطريق لحياة اقتصادية ، من

خلالها أمكن الاستخدام العام للمخالطة والمراسلة وعمليات القروض عالم العمل من أن يوقف رحلاته الى شمبانيا .

٣ - النقود (١)

اخترق الاقتصاديون الألمان لفظ *Natural wirtschaft* (المقايضة) ، « الاقتصاد الطبيعي » ، لوصف الفترة السابقة لاختراع النقود . وليس من عملنا أن نعتبر أن هذه العبارة كانت مطابقة حقيقة ومناسبة لطبيعة التعامل المالى خلال المراحل الأولى للنمو الاقتصادى ، ولكن من المهم أن نستفسر الى أى مدى كان ذلك اللفظ مستخدما ، كما كان فى الغالب مستخدما ، فى بواكير العصور الوسطى قبل حركة الاحياء للاقتصاد فى القرن الثمانى عشر . وان الكتاب الذين يصفون هذه الفترة كواحدة من فترات الاقتصاد الطبيعى قصدوا بوضوح ألا يفهم المصطلح على الإطلاق . فلقد كانوا على علم بأن اختراع النقود كان مستمر الاستعمال بين كل شعوب الغرب المتحضرة وأن الامبراطورية الرومانية ناولتها بدون انقطاع لولاياتها التابعة لها . ولهذا فانه حين توصف العصور الوسطى بأنها فترة اقتصاد طبيعى ، فان ذلك كله يعنى أن الجانب الذى لعبته النقود كان حينئذ صغيرا للغاية وبدرجة قليلة الأهمية فى الغالب . ودون شك أنه كان هنالك قدر طيب من الحقيقة فى تلك المجادلة ، ولكن فى نفس الوقت علينا أن نحترس من المبالغة فى الأمر (٢) .

Bibliography. M. Prou, les monnaies carolingienne , Paris, (١)
1896. A. Luschin von Eheneureuth. Allgemeine Münzkunde und Geldgeschichte, Munich-Berlin. 2nd ed., 1926. W. A. Shaw, The History of Currency. 1252-1894, London. 1895. A. Blanchet and A. Dieudonné, Manuel de numismatique française. Paris. 1912-30, 3 vols. H. Van Werveke, Monnaie, lingots ou marchandises ?, in Annales d'histoire économique et sociale. t. IV (1932). Id., Monnaies de compte et monnaie réelle, in Revue belge. 1934. A. Landry, Essai économique u res mutations des monnaies dans l'ancienne France de Philippe le Bel à Charles VII, Paris. 1910. E. Bridrey, Lathéorie de la monnaie au XIVES siècle. Nicole Orcsme, Paris. 1906.

A. Dopsch, Naturalwirtschaft in der Weltgeschichte (Vienna, 1930) (٢)

ولقد اظهر دويش الوجود المشترك فى مناطق مختلفة للنظام الطبيعى والاقتصاد النقدى ، ولكن ان لم نأخذ فى حسابنا التطور الاقتصادى ورد الفعل الذى أحدثه ليس فقط على شكل التعامل المالى ولكن على طبيعته . انظر ملاحظات :

H. van werveke : Annales d'histoire économique et sociale, 1931, p. 428 et seq.

وللبداية في هذا الأمر ، فانه من الخطأ أن نظن أن نظام المقايضة آنذاك قد حل محل النقود كأداة طبيعية للتعامل المالى . فالمقايضة كانت دائما ما تستخدم في المخالطة الاجتماعية ، وهذا الأمر مازال كثير الوقوع في أيامنا هذه كما كان في الماضي . لكن ليس بعد أن اغتصب اختراع النقود وظيفة المقايضة . وحين رجع الناس إليها ، فقد فعلوا ذلك لدواعي الراحة أو مجرد اجراء عارض ، واستخدموها كبديل مؤقت للنقود ، لا لتحل مكانها . وتؤكد لنا المصادر مصداقية ذلك . فمنذ القرن التاسع حتى القرن الثاني عشر كان الناس يوضحون أسعار السلع بثبات ودون تغير بالقيمة النقدية ، ما عدا الحالات التي كانت تية الدفع فيها عينا وليس نقدا . وتظهر القراءات السطحية للجماعات الاكليريكية أن تعاملات قليلة قد تمت في الأسواق المحلية ، وكان التعامل فيها عينا ميسرا ، ولم يكن بالضرورة التعامل فيها بالنقد . زيادة على ذلك ، فانه من المعروف ، بعد الفترة الكارولنجية ، أن منحة السوق من قبل الحكام سارت يدا بيد مع منحة حق سك النقود لسيد السوق ، وهذه الملازمة وضحت حقيقة أن النقود كانت شائعة الاستعمال آنذاك كقيمة للسعر وأداة من أدوات الشراء . وكانت قلة قيمة السعر مساوية لقلة البضاعة . وخلال أزمنة المعاجات استتاعمت الأديرة بصعوبة أن تتحصل على العملات الصعبة اللازمة لاستيراد الضروريات من الخارج ، كذلك ، في زمن الرخاء ، لم تكن هذه الصعوبة بسبب وفرة السماع ولكن بسبب وفرة النقود التي بادلوها بها الفائض من نبيذهم وحبيبتهم .

ولمواجهة هذه اللقائى الواضحة الثابتة ، فانه من المستحيل أن نضع أى اعتماد على تلك الروايات التي ترجع الى العصر المتأخر التي ، مثلا ، تظهر بلدوين الثالث ، كونت الفلاندرز (٩٥٨ - ٩٦٢) ، وقيام المفارسات في عهد حكمه ، وأن الدجاجتين بودلتا بأوزة ، والخنزير الرضيع بثلاث أوزات ، والحروف بثلاثة حملان ، والثور بثلاث بقرات صفار (١) . بالاختصار ، فانه ليس هنالك شك من أنه خلال فترة سيادة عقار الأراضي في العصور الوسطى ، كان هنالك تعامل بالنقد حيث كانت هنالك مبادلات وصفقات تجارية . في هذه الحالة تكون الرواية صحيحة وأنه من غير الصحيح أن نتكلم عن بديل للاقتصاد الطبيعي بالاقتصاد النقدي .

ولكننا رأينا ، على التو ، أن تجارة ذلك الوقت كانت طفيفة ولا يعتد بها ، وأنه لم يكن هنالك مستوى مجرد تحرك بسيط للتجار ، كان من الضروري أن يصحبه تحرك بسيط للنقود ، يستطيع أن يؤثر فقط خلال

(١) من الغريب أن هوفلين صدق هذه الروايات ، انظر :

Huvelin, Op. cit., p. 538.

دائرة مقيدة للتجارة • ولقد اقتضت واجبات الأداء الاقتصادية الجهرية ،
فى تلك التى كانت تدفع فى المقاطعات الكبرى الخاضعة للحكومة ، والتى
ارتكز عليها حينئذ التوازن الاجتماعى ، والتى نجا منها كلية تقريبا •
وهنا يدفع المستأجرون الالتزامات التى عليهم الى سيدهم الاقطاعى عينا •
وكان على دل عبد للارض ، وكل مالك لدائرة mansa عدة أيام عمل محددة
لتقديم كمية محددة من المنتجات الطبيعية أو من سلع ينتجها بنفسه ، من
قمح ، وببيض ، وأوز ، ودجاج ، وغنم ، وخنازير ، وقنب ، وكتان أو
أقمشة صوفية • وصحيح أنه كانت تدفع فى ذلك بنسات قليلة أيضا •
ولكنها كانت تمثل مجرد نسبة ضئيلة من الكل ، مما لا يمنع الاستنتاج
أن اقتصاد مقاطعات الحكومة الكبرى كان اقتصادا طبيعيا • ولقد كان ذلك
بالاقتصاد طبيعيا لأنه لم يكن اقتصادا يعتمد على التبادل النقدي ، الذى كان
منوعا فى الأسواق وأنه كان يتم التعامل به فى أضيق الحدود ، دونما
الاتصال بالعالم الخارجى ، ومقيدا بروتين موروث ويستخدم فقط للمجرد
الاستهلاك المحلى • فى مثل هذا النظام فان المسلك العملى الشائع للسيد
الاقطاعى الذى يعيش على أرضه كان بوضوح هو أن تزرع هذه الأرض
بواسطة الفلاحين الأجراء وأن يتسلم منهم انتاجهم الذى لا يستطيع الحصول
عليه من أى مكان آخر • كذلك يستطيع هؤلاء الفلاحون الأجراء
أنفسهم (Vilains) سكان الاقطاع أن يخصصوا على نقود كافية لهم لتبادل
فى قريتهم ما يحتاجون من استحقاقات السيد الاقطاعى طالما أنهم لم يكونوا
يبيعون سميناً من انتاجهم خارج مقاطعتهم •

ولقد كانت الظروف المحققة التى أدى هذا النظام وظيفته تحتها
تحمل المقاطعة الكبرى فى المصور الوسطى ضرورة دفع واستلام
مستحققاتها عينا • وطالما أن النظام العيني لم يكن يستخدم للتجارة لذا
لم تكن هناك حاجة لاستخدام النقود ، وعلى العكس من ذلك ، فان
التجارة بدون النقود لا تستطيع أن تحافظ على نفسها • وهذه الحقيقة
كانت حقيقة جهرية لدرجة أنه حينما تحول الاقتصاد الحكومى تحت نفوذ
التجارة ، كان علامة تحوله هو احلال نظام الدفع النقدي كبديل لدفع
المستحققات عينا •

وهكذا فان من الخطأ ومن الصواب أيضا أن نصف الفترة ما بين القرنين
التاسع والثاني عشر كفترة نظام اقتصاد طبيعى فطرى • والخطأ فى
ذلك ، اذا كنا نعى بذلك أن النقود توقفت عن أن تكون أداة شائعة
فى التعامل المالى ، لأنها استمرت باقية كذلك فى الصفقات التجارية •
أما الصواب فى ذلك ، اذا كنا نعى أن دائرة النقود ودورها كانت
محدودة ، طالما كان كل نظام المقاطعة العظمى آنذاك قد استغنى عنها •
بمعنى آخر ، أنه فى كل دفع قد تم نتيجة البيع ، استخدمت النقود ،

بينما جدد الاقتصاد الطبيعي الفطرى طريقة كل دفعه فى الوفاء بالاستحقاقات الشاملة دون مقابل .

وهناك حقيقة فى غاية الأهمية ، ربما تبدو متناقضة ، وهى أن كل نظام أوربا المالى تحت حكم العهد القديم ونظام الامبراطورية البريطانية اليوم قد أسس فى الوقت الذى كانت فيه دائرة النقود قد تقلصت الى أدنى مستوى لها كانت قد وصلتته . ومن المستحيل أن نشك أنه كان هنالك انهيار عميق فى هذا الخصوص من الفترة المورفينجية الى الفترة الكارولنجية . وحين أغلق الغزو الاسلامى البحر التيرانى سبب ذلك فتقا بين العالم الغربى والاقتصاد القديم ، ظل بكل خاصياته الأساسية باقيا حتى ذلك الوقت . ولقد احتفظت كل الممالك الجرمانية البربرية ، التى تقسمت اليها الامبراطورية الغربية ، بدينار قنسطنطين الذهبى Solidus ليعارهم النقدى . وبرغم سك اسم ملوكهم عليها ، فانها لم تكن فى الحقيقة عملة دولية حقيقية ، مقبولة دوليا من سوريا الى اسبانيا ومن افريقية الى حدود الغال الشمالية (١) . ومنذ بداية القرن التاسع . اختفت هذه العملة فى المملكة الكارولنجية ، التى كانت آنذاك دولة زراعية وليس لها أى نشاط تجارى . وفقط فى الضواحي حيث ظلت بقية من التجارة ، فى فريزيا وعلى الحدود الاسبانية ، كان هنالك بعض العملات الذهبية التى سكنت فى عهد حكم لويس (التقي) (٢) . وعند ذلك أنهى الاضطراب النورماندى والغزو الاسلامى هذا الدوران الأخير للعملة القديمة . ولقد توقف الذهب ليستخدم كأداة للدفع ، بسبب انقطاع تجارة البحر المتوسط وتوقفها عن غرب أوربا لقرون عديدة . ومنذ حكم بيبين القصير حلت النقود الفضية محل الذهبية ، وفى ذلك كما هو فى أمور أخرى واصل شارلمان عمل والده وأعطاه شكله النهائى .

وان النظام النقدى ، الذى أنشأه والذى كان أكثر اصلاحاته بقاء ، واستمر حتى اليوم الذى حل فيه الجنيه الانجليزى فى التعامل ، مثل تدريجيا نهائيا عن نظام روما النقدى . وفى ذلك النظام ، كما هو فى كل سياسة الامبراطورية ، من الممكن ملاحظة الرغبة الصريحة عند الامبراطور ليوفى بينه وبين شئون الدولة الحقيقية ليطبق تشريعا للظروف الجديدة

(١) انظر الاعمال المذكورة سابقا ، ص ٢ ، حاشية رقم ١ .

(٢) من الصعب أن نناقش هنا المقالات التى كتبها دويتش M. Dopsch (Op. cit., p. 87, n. 24) لاثبات أن دائرة النقود والعملية الذهبية لم تعان من ندسة واضحة فى العصر الكارولنجى . وسوف أعدد بعد ذلك فيما بعد لهذا الموضوع المهم .

التي فرضت على المجتمع يقبل الحقائق ويسلم بها ، من أجل فرض النظام دون القوضى . وليس في أى مكان دون هذا المكان يبدو فيه شارلمان كمبقرى خلاق واقعى . ولقد أدرك ، دون شك ، الدور الذى يجب أن تضطلع به النقود آنذاك فى مجتمع غرق لأذنيه للمرة الثانية فى العمل الزراعى ، فى الوقت الذى هو فى حاجة فيه ليتزود بالعملة اللازمة لاحتياجاته ولقد لاهم اصلاحه النقدي تماما عصر الاقتصاد الريفي الذى لم تكن به أسواق ، وتتركز عظمته خاصة فى الاعتراف بهذه الحقيقة . ومن الممكن لنا أن نعرف النظام الكارولنجي النقدي باختصار بتسميته (عصر العملة الفضى) silver monometalism . وبينما كانت الدولة رسميا تجيز لمدة عام أو اثنين سك عملات ذهبية تذكارية ، فانها لم تسك الا عملة فضية . وكان أساس التعامل النقدي جنيها جديدا ، أثقل فى وزنه من الجنيه الرومانى ، لأن وزنه كان ٤٩١ جراما بدلا من ٣٢٧ جراما (١) . ولقد انقسم الى ٢٤٠ دينر (deniers) أو بنس (denarii) من معدن نقي . ويزن كل دينر من هذه البنسات الفضية حوالى جرامين ، ولقد كان نصف البنس (oboli) ، العملة الحقيقية الوحيدة نقدا . لكن جنبا الى جنب معهم وجدت نقود حسابية ، لها أسماء عديدة تختلف حسب عددها بالنسبة للبنس . من هذه النقود (السو sou) أو الشلن (solidus) ، الذى كان يساوى ١٢ بنسا ، والرطل (libra) ، الذى يحتوى على ٢٠ سو ، وهكذا حتى الوصول الى الجنيه الذى يساوى ٢٤٠ بنسا (٢) . وكان الدينر denarii والأوبولى oboli ، أقل هذه العملات قيمة فى هذه الدائرة النقدية الجديدة ، ولكنها كانت متناسبة مع عصر انهضرت الغالبية العظمى من صفقاته فى بيوع قليلة بالمقطع (بالقطاعى) . ومن الواضح أن هذه النقود لم تضرب من أجل تجارة ذات معدل واسع ، وكانت رسالتها الرئيسية هى خدمة عملاء تلك الأسواق المحلية الصغيرة التى يندر ذكرها فى الوثائق الكنسية الاكليريكية - والتي يتم البيع والشراء فيها بالدينرات .

زيادة على ذلك ، فإن الدولة قد عانت كثيرا للحفاظ على مستوى الوزن لهذه العملات وحمايتها من الخلط بمعادن خسيسة رديئة . ولقد

M. Prou, Les monnaies carolingiennes, p. xlv et seq. (١)

(٢) ومن ثم تشير الوثائق اللاتينية الى أن أنواع النقود الحسابية التى قدرت يجب أن تقرا فى صيغة الجمع ، وبناء عليه ، فإن خمسة الارطال ، يجب أن تقرا فى صيغة الجمع ، بمعنى ٧ libras turonenses تقرا ٧ libras turonensium وليس ٧ libras turonenses والاخيرة تعنى وزن خمسة جنيها من الدينرات المسكوكة فى تور . كذلك فإن : ٧ sol. tur تعنى ٧ solidos turonensium .

احتفظت الدولة لنفسها بالحق الأوحد لسك العملة وعملت على تركيزها في عدد من دور الضرب تحت رقابتها . ولقد وقع عقاب صارم وجزاءات كثيرة قاسية على المزيفين للعملة وأيضا على الذين رفضوا التعامل في معاملاتهم بالدنيرات الشرعية الحكومية . علاوة على ذلك ، فإن دائرة التعامل النقدي كانت محدودة للغاية . ولقد جاء احتياطي المعدن الذي تسبك منه العملة من العملات القديمة ذات الكسور البسيطة التي يرجع تاريخ سكها الى العصر الميروفنجي أو منذ العصر الروماني ، كذلك من الغنيمة التي يستولى عليها من البرابرة ، ومن منتجات الغال الفضية ، مثل تلك التي كانت في مدينة ميل Melle بأكوينانيا . وكانت العملة تصب في دار الضرب الملكية وتوزع باستمرار في طبقات جديدة ، وكان ذلك بالطبع يهدف الى محاربة التضخم .

ولقد بقي نظام شارلمان المالي في كل الولايات التي قامت بعد انهيار الامبراطورية الكارولنجية . ولقد تقلل جميعهم الدينير الفضي كوحدة نقدية أساسية ، كذلك تقبلوا السو واللبرة كنقود حسابية . وسواء أطلق على الأول اسم p. Fenning فينيك أو penny (بنس) ، أطلق على الثاني لفظ شان Shilling ، وعلى الثالث لفظ pfund أو جنيه pound ، فإن حقيقة الخلاف بين التسميتين واحدة لكل منهم . وظل التعامل بالذهب قائما فقط في النرب في الأراضي التي كانت تحت حكم البيزنطيين ، مثل جنوب إيطاليا وصقلية قبل احتلال النورماندين لهما ، أو في اوقات حكم المسلمين لهما مثلما حكموا اسبانيا . ولقد سك الانجلو - سكسون أيضا عملات ذهبية قليلة ، قبل عرو عام ١٠٦٦ الذي أخضع انجلترا أيضا للحكم العام .

وبرغم ذلك ، فإن انحلال الامبراطورية الكارولنجية وتدهور الادارة الملكية في النصف الثاني من القرن التاسع يرجعان الى فرض نفوذهما على النظام النقدي . واذا كانت المميزات الأساسية للنظام النقدي قد حوفظ عليها أينما كانت ، الا أن هنالك أماكن أخرى قد أجرت تغييرا عميقا في الممارسة . وبين الملكيات التي استظلت بالسطوة الملكية لم يتوان الأمراء الاقطاعيون عن اغتصاب حق سك العملة في اماراتهم ، وفي نفس الوقت أيضا سمح الملوك ، من جانبهم ، بمنح هذا الحق لعدد من الكنائس . وسرعان ما صار يوجد في الغرب عدد كبير من الدنانير المختلفة يتعامل بها ، كذلك كان هنالك عدد كبير من الاقطاعيين الذين يتمتعون بحق العدالة السامية (haute justice) ونتج عن ذلك كله اضطراب وارتباك هائل . ولم يقتصر الأمر على كثرة أنواع العملة الرائجة آنذاك والمستعملة ، لكن تمثل في عدم وجود أية ضوابط في أمر هذه العملات /

فان عيارها ونقاها قد انحط أكثر فأكثر . ولقد حلت بجنيهاً أخرى محل جنيه شارلمان في مقاطعات مختلفة . ومن بداية القرن الحادى عشر أدخل في ألمانيا عيار جديد للعملة ، وهو المارك ذو ال ٢١٨ جراما ، الذى كان من المحتمل أن يكون اسكنديناوى الأصل ، وقد أعطى هو نفسه أصلا لماركات أخرى ، كان أكثرها شهرة ماركات كولونيا وترويز . ويضاف الى أسباب هذه الاضطرابات ، ذلك الاستغلال الذى قام به الأمراء للعملة والذى كان أخطرها جميعا .

وكانت النقود ، في فترات معينة ، « تجمع » ، بمعنى أنها تسحب من دائرة التعامل المالى ، وتؤخذ الى دور الضرب ، لاعادة سكها لجمهور في عملات جديدة تكون أخف وزنا وأكثر خلطا في المعدن ، وكان الأمراء يحصلون الفرق بين العملتين . وعلى هذا النحو تنقص القيمة الحقيقية للعملة ، وحلت محل ينس شارلمان الفضى النقى عملة ثقيلة الوزن ومخلوطة بمعدن النحاس ، لدرجة أنه مع مجيء منتصف القرن الثالث عشر، لم تعد معظم الدنانير من الفضة الخالصة ، ولكن أصبح معظمها دنانير سوداء (*) (nigri denarii) .

ولم تكن السياسات الملكية سبب هذا الاضطراب النقدي فحسب ، ولكن أيضا ظروف العصر الاقتصادية . فطالما تختفى التجارة ، يصبح تغير القيمة المادية للعملات عائقا لدائرة النقد . وفي مجتمع غالبا ما تعقد صفقاته في الأسواق المحلية ، يكون الناس لائعين بالنقود المستعملة محليا فقط على حدودها أو على ما جاورها من المقاطعات . ولقد اكتنفت ندرة التبادل التجارى ندرة مماثلة لدائرة النقد ، ولم يزعج النوع الرديء للعملات المتداول آنذاك أهل ذلك العصر كثيرا بعد أن انخفضت التجارة فيه الى أدنى معدلاتها .

ومع ذلك ، فان من الطبيعي أن يعمل النشاط الاقتصادى الذى تفجر عند نهاية القرن الحادى عشر وأن يرتبط بارجاع سهولة حركة النقود التى كانت قد ركبت في أنحاء المراكز التى ضربت فيها . وبدأت النقود تسافر مع التجار ، ومن كل الأنحاء سحبت نقود من كل الأنواع بواسطة التجارة الى المدن والأسواق التجارية ، ولقد أصلح التداول المتزايد للنقد النقص الواضح في المعادن المطلوبة لسك العملات . زيادة على ذلك ، فان اكتشاف معادن الفضة في فريبيرج Freiburg ، في منتصف القرن الثانى عشر ، جلب مؤنا جديدة لتفذية العملة . ومع ذلك ، لم يكن المعدن كافيا على الدوام لسك العملات المطلوبة للتجارة حتى نهاية العصور الوسطى . ولم يزد انتاج الفضة السنوى في أوروبا الا بعد منتصف

(*) الدنانير السوداء هي دنانير ليست من الذهب الخالص ولكنها خلطت بمعادن أخرى ، وصار الذهب يكون ثلث حجمها فقط .

القرن الخامس عشر ، حين استغلت مناجم الفضة في سكسونيا ، وبوهيميا ، والتيروول ، وسالزبورج ، والمجر . ولقد استغل أمراء هذه البلاد هذا التزايد في دائرة التعامل النقدي لصالحهم ولتحقيق أرباح خاصة لهم . وبسبب انفراد هؤلاء الأمراء بحق سك العملات ، فانهم خولوا لأنفسهم استخداما لثرائهم الخاص ، مغفلين ثراء العامة . وكلما ازداد التعامل النقدي الذي صاحب الحياة الاقتصادية ، تعرضت هذه النقود لكثرة الخلط والتزييف من قبل أولئك الذين تخصصوا في غش النقد . وأصبح من الشائع والمعتاد ، خاصة في القرن الرابع عشر ، إصدار نقود جديدة ، تناقصت قيمتها يوما بعد يوم ، وصارت النقود تجمع باستمرار وتسك وتوزع ثانية وهي في أسوأ حال عن ذي قبل . وكانت هنالك عمليات مالية مماثلة كثيرة الوقوع في ألمانيا ، حيث ، خلال الاثنتي عشرة وثلاثين عاما التي حكمها برنارد الأسكاني Bernard of Ascania ، تغيرت العملة ، وخلطت بمتوسط ثلاث مرات كل عام (١) .

ومن الطبيعي أن الوضع كان أحسن في البلاد التي كان نفوذ سكان الحضر قد فرض بعض القيود على تعاملات الأمراء الجائرة في أمر ليس هنالك ما يتفوق عنه فيما يختص بالتجارة والصناعة . وعلى سبيل المثال ، ففي اقليم الفلاندرز حدث أن حصل بورجوازيو سانت أومير سنة ١١٢٧ من كونت تيرى كونت الألزاس Thierry of Alsace على منحة حق سك العملة . وقد فسخت هذه الهبة في العام التالي (٢) ، ولكن ذلك كله يعطينا شهادة على حالة الفساد السائد آنذاك والذي لا يمكن التغاضي عنه ، والذي كان من نتيجته أن النقود الفلمنكية ، رغم أنها لم تنج من الانحطاط العام الذي حل بكل عملات العصور الوسطى ، كانت دائما متميزة بسبب تفوقها النسبة . ولقد أظهر دينار كولونيا ، الذي كان واسع الاستعمال في أراضي الراين ، كذلك اثباتا ملحوظا في القرنين الثاني عشر والثالث عشر (٣) . وفي انجلترا كان حق سك العملة مكفولا للملك وحده دون غيره ، وظلت النقود الانجليزية تحتفظ بنوعيتها الجيدة عن تلك التي كانت في أي قطر آخر ، ولقد عانت انجلترا قليلا من التجاوزات الحاصلة آنذاك في القارة الأوروبية من قبل عدد من الأمراء الذين اغتصبوا النقود .

ولقد قاومت الممالك هذا الاغتصاب بقدر استطاعتها . وفي الوقت الذي حرم ضعف قوة ألمانيا وإيطاليا منذ القرن الثالث عشر هذه البلاد

Kulischer, Op. cit., t. I. p. 324.

(١)

A. Giry, Histoire de la ville de Saint Omer, p. 61.

(٢)

W. Havernick, Der Kölner Pfennig im XII und XIII Jahrhundert, Stuttgart, 1930.

(٣)

من أن تستعيد حقوقها الملكية في ذلك الأمر وفي غيره ، فقد أدى ذلك بالطبع الى مزيد من التنازلات عن هذه الحقوق لمجموع الأمراء والمدن ، وفي فرنسا ، من الجانب الآخر ، بدأت السلطة الملكية تثبت أقدامها منذ عهد حكم فيليب أغسطس Philip Augustus . وهنا في فرنسا ، وأكثر من أى مكان آخر ، فإن البارونات الاقطاعيين كانوا مقتصبين لحق الامتياز النقدي . وتحت حكم (الكابيين) الفرسان Capetians تملك حوالى ٣٠٠ اقطاعى حق سك العملة ، وكان هذا الحق من أهم الأهداف الثابتة التى عمل الملك على استردادها كلها واتته القوة لذلك . ولقد نجح الملك فى ذلك ، حتى انه لم يبق فى بداية القرن الرابع عشر أكثر من ثلاثين اقطاعيا على دار سك نقودهم ، وفى سنة ١٣٢٠ - ١٣٢١ قرر فيليب الثانى (الطويل) مشروعاً عاجلاً بتخصيص مؤسسة واحدة لسك العملة لكل المملكة (١) .

وفى سبيل استعادة حقهم الملكى فى سك العملة ، تحرك الملوك من جانبهم معتمدين على اعتبارات السيادة . واعتبروا وضع نهاية لتصفيات الاقطاعيين والمحافظة على مستوى العملة أمراً ضروريا وحفاً شرعياً لهم لايمانهم بأن سك العملة وحده يعد مصدراً من أكثر مصادر دخلهم قيمة . وهكذا حين أصبحت العملة مرة أخرى ملكية ، فانها لم تكن مستقرة أو ثابتة أكثر مما كانت عليه ذى قبل . ومن عهد لعهده ازداد سوء العملة الضرورية وساءت نوعيتها . ولقد صدرت تشاريع متتالية تبين القيمة الاسمية لهذه العملات وفقاً ليريد العرش . فى الوقت الذى كانت فيه قيمتها الفعلية متواصلة الانخفاض . وكانت قيمة العملة ترفع أو تخفض حسبما كان وضع الملك دائماً أو مديناً . وفى ذلك كان فيليب (الجميل) الوحيد الذى عمل وفق الممارسة الجارية المتداولة . ولقد ساد جو العملة آنذاك تقلبات مستمرة تقودنا الى الاعتقاد بأن هذه الفوضى النقدية قد أدت الى استحالة قيام التجارة ، وكان من الممكن أن نقول ان ذلك هو السبب الوحيد للفوضى الحاصلة حينذاك فى أوروبا لولا أن وثائق عصرنا قد أمدتنا بمعلومات عن نشوب فوضى شديدة مماثلة ترجع الى أسباب أخرى غير سبب الفوضى النقدية . ولقد زادت الطريقة المتخلفة للنقد من الفوضى والتشويش ، لانها كانت غير قادرة على توفير وزن ومستوى مطابق ومماثل للعملات الصادرة من دار الضرب . ولقد كان من السهل آنذاك للحاصدين التقاط فضلات حصاد محصولهم من النقود المتداولة ، ولم توقف جزاءات التعديب بالماء المفلئ المزيفين من اغراء استغلال الدولة فى أمور محبة لهم .

P. Lehugeur, Histoire de Philippe lelong, p. 368 (Paris, 1897).

ولقد وصلت الفوضى النقدية الى درجة يصعب معها الاصلاح منذ نهاية القرن الثاني عشر ، وأصبح الاصلاح ضروريا آنذاك . ومن الأهمية بمكان ذكر أن بشائر الاصلاح جاءت من البندقية ، أهم مراكز تجارة ذلك العصر . ففي سنة ١١٩٢ أوجب الدوق ، هنرى داندولو Henry Dandoio ، سك عملة جديدة تماما فى بلاده ، هى الجروت groat أو gros أو matapan ، وهى تزن مايزيد بقليل عن الجرامين من الفضة وتساوى فى القيمة ١٢ من الدنانير القديمة (تساوى أربعة بنسات) . وكانت هذه الجروت مساوية للسو الكارولنجى ، باختلاف أن السو ، كان عملة حسابية ، فأصبح الآن عملة نقدية حقيقية . ولم يطل التعامل بنظام شارلمان واعتمد التجديد على ميزان عملته . وكل ما جاء به هذا التغيير هو الاستفادة من التدهور المستمر للدينار القديم واستبدال دينار جديد مكانه ، تساوى قيمته ١٢ من هذه الدنانير القديمة (واشتق اسمه من grossus) وهو مساو تماما للسو القديم الذى أصبح الحد العددي الصحيح للنقد . وبمعنى آخر ، فإن النظام الجديد ظل ملزما بالقديم ، باستثناء أنه أعطى الدينار الجديد قيمة معدنية تساوى ١٢ مرة من قيمة الدينار القديم . وظل الدينار القديم باقيا دون أن يلغى التعامل به ، ولقد أخذ الجروت مكانه الى جانبه كعملة فى التجارة ، مخفضا قيمة الدينار فى التعامل الى درجة أقل .

ولقد استجاب الجروت البندقانى الجديد لحاجات التجار بشكل كبير لدرجة أنه صار على الفور يقلد فى كل مدن لمبارديا وتسكانيا . ولقد قام شمال الألب أيضا باصلاحات لعلاج تزييف العملة الذى كان حتى ذلك الوقت غير محتمل . وفى ألمانيا ، حيث بدا الوضع أسوأ من أى مكان آخر ، فإن الهيلر (Heller) « وقد سمي كذلك نسبة لمدينة هال Halle فى سوابيا حيث ضرب هنالك لأول مرة » قد تسبب فى ايجاد دينار جديد فائق فى الوزن عنه وأبقى منه . وفى انجلترا فان الجنيه الاسترلينى Sterling كعملة نقدية الذى ظهر عند نهاية القرن الثاني عشر ، كان أيضا دينارا مقبولا . الا أن فرنسا ، التى كان المثال الايطالى ، الهاما لها ، فقد اكتشفت العلاج الحقيقى لأمر العملة . ففي سنة ١٢٦٦ أوجد لويس التاسع الدينار المعروف باسم (الجروس تورنوا) gros tournoi أو grossus denarius turonensis وبعد قليل أوجد (الجروس باريسى) gros parisis ، الذى كانت قيمته تزيد عن الأول بمقدار الربع . وسرعان ما انتشرت هاتان العملتان فى داخل كل أوروبا ، مثلما انتشر فى ذات الوقت الفن القوطى وأدب الفرسان . ولقد لعبت أسواق شيمانيا دورا مهما فى هذا الانتشار ، الذى أعطى لهاتين العملتين مرتبة العملة العالمية . وسرعان ما ضربت هذه العملة فى اقليم

الفلاندرز ، فى برابانت ، وفى اقليم لياج والورين • ومنذ سنة ١٢٧٦ ظهر الجروس تورنو ، الذى عرف فى ألمانيا باسم الجروشين groschen فى وادى الموزيل ، وقبل نهاية القرن الثالث عشر وصل الى كولونيا ومنها انتشر الى كل الاراضى الألمانية أسفل الراين ، مثلما انتشر فى الاراضى المنخفضة الشمالية • ولقد تساوى النجاح الملحوظ الذى حققه الجروس تورنو مع الاسترليني العملة الانجليزية التى تحسن حالها فى نهاية القرن الثالث عشر ، وصار يسك على غرارها على الفور فى ألمانيا والاراضى المنخفضة • وهكذا فانه بظهور هذه الجروتات افتتح شكل جديد فى تاريخ النقد • ولم يكن هنالك نقض للنظام الكارولنجي ، بل جرت محاولة للتوفيق بينه وبين احتياجات التجارة • وسرعان ما أثبتت العودة للتعامل بالعملات الذهبية وقدمت اثباتا آخر للحاجة الى تزويد التجارة بأداة دفع تكون كافية لمتطلباتها المتزايدة •

ومنذ ذلك الوقت بدأت تجارة القرن الحادى عشر للبحر المتوسط فى نثر العملات البيزنطية والعربية الذهبية ، فى أول الأمر فى إيطاليا ، ثم بعد ذلك فى شمال الألب • لكن هذه العملات المنتسبة للبيزنطيين وعرفت باسم bezants أو للمرابطين marabotins المسلمين ، كانت عادة تحمل بواسطة أولئك الذين جاءوا الى حيازاتهم وبدا أنها استخدمت فقط كوسيلة من وسائل الدفع فى ظروف استثنائية ، قاسية لنفقة فوق العادة (١) • وفى سنة ١٧٠١ ، على سبيل المثال ، قامت الكونتيسة روتشيلدا كونتيسة هينو (Countess Richilda of Hainault) برهن ولاية شيفيني chevigny لرئيس دير رهبان سائ هوير Saint-Hubert مقابل ما يزيد على ٥٠٠ بيزانتس ذهب (٢) • ولم يكن الذهب شائع الاستعمال آنذاك فى ظروف التعاملات المالية العادية ، برغم أن رجال البحر الايطاليين من المؤكد أنهم اكتشفوا فوائده منذ وقت مبكر من خلال صفقاتهم مع الشرق وأنهم رغبوا فى أن يتعاملوا به داخل أقطارهم •

(١) بصدد استعمال الذهب كخفلة نقدية قبل عصر الاحياء ، انظر : بلوش M. Bloch

Le problème de l'or au Moyen Age, in Annales d'histoire économique et sociale, 1933, p. 1 et seq.

ويركز الكاتب على تزييف بعض الامراء العملات الذهبية الأجنبية • ولكن ليس هنالك

أثر فى وجودها فى دائرة التعامل النقدي التجارية آنذاك ، ويبدو أنها كانت تستخدم

أساسا كأداة دفع للقروض وفى الظروف الاستثنائية •

La Chronique de Saint Hubert, dite Contatorium, ed. K. (٢)

Hanquet, p. 68 (Brussels, 1906).

وفي سنة ١٢٣١ قام فردريك الثاني بسك ديناره الذهبى البديع (Augustales) فى صقلية ، وكان فاتحة عملات العصور الوسطى ، لكن هذه الدينار لم تنتشر الى أبعد من حدود جنوب ايطاليا • وليس قبل عام ١٢٥٢ أن قامت فلورنسا بسك أول فلورين لها من الذهب (fiorino d'oro) ، ولقد سمي بذلك لأنه طبع وختم بزهرة السوسن ، شعار المدينة ، وقد فتح هذا الفلورين الطريق أمام التعامل بالعملة الذهبية فى أوروبا • وسرعان ما تبعت جنوة ذلك وفى سنة ١٢٨٤ أصدرت البندقية صورة من الفلورين فى عملتها الدوكات ducat أو Zechin • وكانت هاتان العملات النقيتان ، التى تزن كل منهما $3 \frac{1}{4}$ جرام ، ساوت فى القيمة جنيه الجروس الفضى ، كما ساوى الجروت بدوره قيمة السو • وهكذا ، بمقدم الذهب الى أوروبا ، تحول الجنيه ، مثل السو ، من جنيه حسابى الى عملة حقيقية • وأصبح الدينار ، الذى كان العملة الوحيدة فى دائرة التعامل المالى الحقيقية فى العصر الكارولنجى ، من الآن فصاعدا مجرد عملة لفئة قليلة • ولقد فرض اغلاق البحر المتوسط فى القرن الثامن العملة الفضية على غرب أوروبا لمدة طويلة ، والآن مكن انفتاحه العملة الذهبية لتستعيد دورها القديم هناك • ولقد كان التقدم الاقتصادى فى ايطاليا بيانا كافيا لسبق القيادة الذى صاحب افراز العملة الذهبية مشابها لسبقه فى افراز الجروت • ولكن فى كلتا الحالتين لم تتباطأ أوروبا فى اتباع مثالها ، وقد جاء التقليد لها فى حالة الذهب أسرع مما جاء فى حالة الجروت ، وتلك حقيقة لا شك فى انتسابها الى النمو المتزايد للعلاقات التجارية • وبكل الاحتمالات فلقد حدث عام ١٢٦٦ ، وهو العام الذى ظهر فيه الجروس تورنوا ، أن أصدر لويس التاسع أولى الدينار الذهبية للتعامل بها فى شمال الألب ، وتبعها بعد ذلك نتاج وافر من العملات الذهبية فى عهد خلفائه من بعده • وفى خلال القرن الرابع عشر دشنت الحركة على هذا النحو الانتشار فى كل القارة الأوروبية • وفى أسبانيا يعود التعامل الذهبى الى الفونسو الحادى عشر حاكم قشتالة Alfonso XI of Castile (١٢١٢ - ١٣٥٠) ، وفى الامبراطورية أخذت بوهيميا عجلة القيادة فى عام ١٣٢٥ ، وفى انجلترا أصدر ادوارد الثالث فلورين ذهبيا سنة ١٣٤٤ • ولقد سكّت عملات ذهبية فى أجزاء عديدة من اقليم الفلاندرز حيث كانت التجارة هناك نشطة للغاية ، فى الفلاندرز تحت حكم لويس نافارون Louis de Nevers قبل عام ١٣٣٧ ، وفى بارابانت تحت حكم يوحنا الثانى John II (١٣١٢ - ١٣٥٥) ، وفى اقليم ليبج تحت حكم انجلبرت دى لامارك Englebert de la Marck (١٣٤٥ - ٦٤) ، فى هولندا تحت حكم وليم الخامس (١٣٤٦ - ٨٩) ، فى جيلدرز Guelders تحت حكم رينو الثالث (١٣٤٣ - ١٣٧١) •

ولقد أعاد تواجد الجروت والعملة الذهبية دائرة التعامل النقدي ثانية الى ظروف صحية للغاية ، لكن اساءة استعمال هذه العملات ظل أمرا لازال قائما • ولقد استمر الملوك والأمراء في غش العملة واعطائها تسعيرة جائرة • وظلت النقود تتبع منحني منحدر • وقد ضحت السياسة العامة بالمصالح الاقتصادية لحساب المصالح الحكومية ، ولقد لقي أول حكم لفهم جيد لهذه الأمور قام به نيكولاس أوريزم Nicholas Oresme في القرن الرابع عشر أذانا صماء • ولقد احتاج الأمر لقرون عديدة تمضي قبل أن تشرع الحكومات في اتباع المبادئ الصحيحة للإدارة المالية •

٤ - تسليف الأموال ومقايضتها (١)

كان للنظرية التي قسم بمقتضاها النشاط التجارة الى ثلاثة اشكال

-
- Biography. I. Goldschmidt, Op. cit., p. viii. M. Postan, Credit (١)
 in Medieval Trade, in The Economic History Review, Vol. I (1928).
 R. Gênestal, Le rôle des monastères comme établissements de crédit.
 Paris (1901). L. Delisle Les opérations financières des Templiers Paris
 (1889). H. Van Werveke, Le mort-gage et son rôle économique en
 Flandre et en Lotharinge. in Revue belge de philol. et d'histoire,
 t. VIII (1929). G. Bigwood, Les financiers d'Arras, ibid., t. III
 (1924). R. L. Reynold, The Merchants of Arras, ibid., t. III (1924).
 R. L. Reynold's, The Merchants of Arras, ibid., vol. IX (1930). H.
 Jenkinson, A Moneylender's Bonds of the Twelfth Century, in
 Essays in History, Presented to R. Lane Poole, ed. H.W.C Davis,
 London (1927). G. Bigwood, Le régime juridique et économique
 du commerce de l'argent dans La Belgique du Moyen Age, Brussels,
 1921-2. 2 vols. (Mém. Acad. Belgique). S. L. Persuzzi, Storia de
 commercio e dei banchieri di Firenze (1200-1345), Florence (1909).
 A. Saporì, La crisi delle compagnie mercantili del Bardie dei
 Peruzzi, Florence, 1926. Id., Una compagnia di Calimala ai primi
 del trecento. Florence (1932). Id., I Libri di commercio di Peruzzi,
 Milan (1934). — A. Ceccherelli, Le scritture commerciali nelle antiche
 aziende fiorentine, Florence, 1910. E. H. Byrne, Commercial Con-
 tracts of the Genoese in the Syrian Trade of the XIIIth Century. in
 The Quarterly Journal of Economics, vol. XXXI (1916). — A.E.
 Savous, Les opérations du capitaliste et commerçant marseillais
 Etienne de Manduel, entre 1200 et 1230, in Revue des Questions
 historiques (1930). Id. Dans l'Italie médiévale a l'intérieur des terre ;
 Sienne de 1221 à 1229, ibid., t. III (1931). Id., Les méthodes com-
 mercials de Barcelone au XIIIe siècle, in Estudios universitaris
 catalans, t. XVI (1932). Id., Les mandats de Saint Louis sur
 le or, in Revue historique, t. CLXVII (1931). F. Arens, Wilhelm
 Servant von Cahors als Kaufmann zu London., in Vierteljahrschrift
 für Social und Wirtschafts chichte, t. XI (1913). W. E. Rhodes, The
 Italian Bankers in London and their loans to Edward I and Edward
 II in Owens College Essays, Manschester (1902). W. Sombart, Die
 Juden und das Wirtschaftsleben, Leipzig (1911). A. Sayous, Les
 Juifs ont-ils été les fondateurs du capitalisme moderne ? in Revue
 économique internationale (1923). W. Endemann, Studien in die —

متتالية ، اختص الشكل الأول منها بالمبادلة والمقايضة (Naturalwirtschaft) ، والثاني بالنقود (Geldwirtschaft) ، والثالث بالتسليف (Kredit wirtschaft) ، ذات شيوع ورواج قديم ، ومع ذلك ، فإن دراسة الوقائع سرعان ما تكشف وتوضح لنا أنه ليس هنالك لها أى أساس فى الحقيقة ، وأنها ليست سوى مثل من أمثلة حب التنظيم والتنسيق الذى غلب على دراسة التاريخ الاقتصادى . وبينما كان من المحقق أن التسليف قد لعب دورا ملحوظا ومتزايدا ، فإنه من المحقق أيضا أن ذلك الدور كان ملحوظا وقائما فى كل العصور . وقد كان الاختلاف بينهما فى هذه الناحية فقط فى الكمية وليست فى النوعية .

وكان من الطبيعى ، خلال عصر عقارات العصور الوسطى أن لا تتساهل عن القرون التجارية بمفهوم الكلمة ، التى من المستحيل أن تكون قد ظهرت فى عصر تجارة متقطعة وعرضية وفى غياب طبقة التجار المحترفين . لكن من ناحية أخرى فمن الواضح أن المجتمع المحصور والمعتمد على اقتصاد ريفى وليس به أسواق ، رغم ذلك كان مفعول التسليف فيه كبيرا ، ذلك لأنه من الصعب أن نرى أن هذه الارستقراطية مالكة العقار والأرض ونفس كيف استطاعت أن تحافظ على وضعها دون مساعدتها لها . وبفضل هذه السلفيات ، استطاع المجتمع أن يتغلب على الكوارث التى تقع به كل مدة وتهدد الناس بالمجاعة .

ولقد كانت الكنيسة المقرض الضرورى لهذه الفترة . ولقد رأينا قبلا أنها كان لديها رأسمال سائل جعل منها قوة مالية من الدرجة الأولى .

-
- = die romanisch-kanonistischen Wirtschafts — und Recht lehre, Berlin (1874-83). 2 vols. F. Schaub, Der Kampf gegen den Zinswucher, ungerechten Preis und unlauteren Handel, Freiburg (1905). H. Pirenne, L'in truction des marchands au Moyen Age, in Annales d'histoire économique et sociale, t. (1929). A. Schiaffini, Il mercante Genovese del dugento in the review A compagna, an. 1929. F. Röhrig, Das älteste erhaltene deutsche Kaufmannsbüchlein, in Händische Beiträge zur Deutschen Wirtschaftsgeschichte, Breslau (1928) F. Keutgen, Händische Handelsgesellschaften vornehmlich des XIV Jahrhunderts, in Viertel jahrschrift für Social und Wirtschaftsgeschichte, t. IV (1906). J. Kulischer, Warenhandler und Geldausleiher im Mittelalter, in Zeitschrift für Volkswirtschaft, Sozialpolitik und Verwaltung (1908). A. P. Usher, The Origins of Banking. The Primitive Bank of Deposit, in The Economic History Review, Vol. IV (1934).

(١) « كان البيع بالاقراض ، الذى كان منكرا بوجه عام ، يشكل قاعدة مالية لتجارة العصور الوسطى . أما عن الأشكال المختلفة للاقراض فليس هنالك شك فى وجودها ، إلا أن أدائها قد فسر تفسيراً خاطئاً .

(Pöstan, loc. cit., p. 261)

وتمتلى المصادر التاريخية بتفاصيل ثروات ذخائر الأديرة ، المكتظة بالتحف ، والشمعدانات ، والمباخر ، والأواني المقدسة المصنوعة من المعادن الثمينة ، والقرايين الكبيرة والصغيرة ، التي يقدمها التقاسة الأسخياء لمجسوبيهم الذين لا أرض لهم ويعملون في أرض القديسين أصحاب النمذ ، فكان تدخل هؤلاء القديسين ضروريا بتقديم المال واقرض خدمهم ، وكانت كل كنيسة ذات صيت تمتلك على هذا النحو تحت تصرفها أموالا ، ليست فقط لزيادة أبهة قنادسها ، ولكن كانت رأس مال مدخر وافر لها . في وقت الحاجة كانت تقوم بمجرد صهر بعض القطع المصنعة من النحاس وترسل المعدن الى دار ضرب مجاورة لها ، لتحصل على مبلغ مماثل من النقود ، وكان هذا اجراء لجأت اليه الأديرة ، ليس لصالحها ، بل لصالح الآخرين . واذا أراد كبير أساقفة أن يدفع مبلغا غير عادي ، سواء أكان لشراء مقاطعة أم لخدمة الملك ، فانه يتجه لطلب المساعدة من أديرة دوقيته . وهناك أمثلة لا حصر لها لمثل هذه القروض ؟ فمثلا ، عندهما اشترى أوتبيرت Othbert ، كبير أساقفة لياج ، قلاع بويلون Bouillon وكوفان Couvin في سنة ١٠٩٦ ، واجهت كنائس الدوقية سداد تكاليف هذه الصفقة (١) .

لكن فوق كل ذلك ، في أوقات القحط والجذب والمجاعات تصبح ذخائر الأديرة تحت الطلب الرسمي . فهي تلعب دور مؤسسات التسليف والاقراض لاقطاعات الأمراء الاقطاعيين المجاورين ، الذين تضرب احتياطهم والذين يضطرون للحصول على وسائل الحياة الضرورية نقدا . وتنقوم هذه الأديرة بتقديم الأموال الضرورية مقابل رهن أرض المقترض كضمان دفع ما عليه من دين . وكان ذلك يسمى « رهن قائم حي » (vif gage) ، حين يسهم ايراد الممتلكات المرهونة في وفاء الدين الرئيسي ، ويسمى « رهن ميت » (dead gage) أو (mortgage) حين يصل دخل الأرض الى الدائن دون انقاص للدين الأصلي . وفي كلتا الحالتين يراعى منع الربا ، طالما أن المال الأصلي المقترض لم يأت لنفسه بأية فوائد .

وفي عمليات ، مثل هذه العمليات ، التي تزايدت كثيرا حتى منتصف القرن الثالث عشر ، كانت القروض مجرد قروض استهلاكية ، بمعنى ، أنها كانت تعقد تحت الحاج حاجة ماسة ، وتصرف النقود المتحصلة منها فورا وفي الحال ، لدرجة أن كل مبلغ مقترض كان يمثل خسارة مية . وحين منعت الكنيسة الربا لأسباب دينية ، قامت بصنيع طيب واضح لمجتمع العصور الوسطى الأولى . فلقد أنقذهم ذلك من الوقوع في عبودية رق الدين ، الذي عانى منه العالم القديم بشدة . ولقد تواءم البر المسيحي هنا

H. Pirenne, Histoire de Belgique, t. I, 5th ed. p. 139.

(١)

يتطابق مبدأ الاقراض دون عوض بصرامة ، ولقد طبقت قاعدة مساعدة الناس دون فائدة (mutuum date nihil inde sperantes) بشدة في فترة لم تكن النقود فيها أداة للثروة ، وظهرت أي فائدة تؤخذ عنها على أنها فرض واغتصاب . لكن انتعاش التجارة ، باكتشاف ثمار رأس المال السائل ، أثار مشاكل فشل الناس في إيجاد حل لها . وحتى نهاية العصور الوسطى استمر المجتمع الأوربي يمزقه القلق في مسألة الربا المخيف الذي كان على المعاملات التجارية والقيم الدينية مواجهته مباشرة . وللحاجة في الحصول على حل أحسن ، فقد تم تجنبه عن طريق التفاهم والتحايل .

وندره مصادرها تجعل من المستحيل أن نكتشف الظروف التي بدأت تحتها أول قروض تجارية ، لكن دون شك أنه كان على التسو في القرن الحادي عشر يوجد عدد لا بأس به من التجار يتصرفون في رأس مال سائل . وضمن هؤلاء يجيء تجار لياج ، الذين أقرضوا رئيس رهبان دير سانت هوبر Saint-Hubert مبلغا كان في حاجة له لشراء مقاطعة (١) . ورغم أننا لانعرف شيئا عن العقد بين الطرفين ، إلا أنه من المستحيل أن نصدق أن هذا القرض كان دون مقابل . ومن الواضح أن المقرضين وافقوا على تقديم قرضهم هذا مقابل فوائد وجدوها كافية ومكافئة ، ومن الصعب أيضا أن نصدق أنهم قد أمسكوا عن أي نوع من أنواع الربا . على أية حال فإن التعامل الربوي يظهر في كامل نشاطه في منتصف القرن الثاني عشر . ولدينا التفاصيل الكافية عن حياة برجوازي سانت أومير ، وليام المدلل William Cade (الذي توفي حوالي سنة ١١٦٦) ، ما يجعلنا نشك في أنه اشتغل في وقت واحد في تجارة السلع وتجارة النقود . ونحن نراه يقوم بعمليات اقراض حقيقية ، ونراه يشتري الصوف من مراعيه سلفا من الأديرة الانجليزية ، وكان بذلك دون شك يوفق أمور تجار عصره الكبار . فضلا عن ذلك ، فإن هنالك شواهد ثابتة عن شراء وبيع بالدين في كل التجارة بالجملة في التوابل ، والنبيد ، والصوف ، والملابس والسلع الأخرى . ومن المؤكد أن نقص التعامل النقدي سوف يجعل امكانية قيام تجارة على نطاق واسع أمرا غير مدرك الا في حالة افتراض أن هذه التجارة سوف تتعامل مع السلفيات تعامل عادية . وبصدد هذا التعامل ، فإن إيطاليا ، التي بدأ التقدم الاقتصادي فيها أسبق من الدول مثيلاتها في القساسة الأوروبية ، تزودنا ببراهين لا اعتراض عليها . وسرعان ما نجد البنادقة في القرون العاشر والعاشرين أموالهم في مغامرات حربية ، وبمجرد أن كرس الجنويون والبيزونيون

أنفسهم للملاحة ، بدأ عدد من النبلاء والبرجوازيين يخاطرون برؤوس أموالهم في البحر . ورغم ضآلة المبالغ التي اكتنفتها فانها يجب ألا تغمينا عن أهمية هذه الاستثمارات . ومن أجل تقسيم المخاطر وتوزيعها ، ذهب المتاجرون « جماعات » في عدة سفن في وقت واحد . وسرعان ما ازدهرت السلفيات في القرن الثاني عشر ، وقد ظهر ازدهارها بوضوح في الدور الذي لعبته السلفيات التجارية . وكان المقترض (commendator) يتعهد لدائنه بنصيب من أرباحه المرتقبة (وكانت في العادة ثلاثة أرباع الربح) على المبلغ الذي يقوم الأخير باستغلاله في الخارج (١) . ويعد تأمين الملاحة في البحر ، التي تبين لنا الوثائق الجنوية أنه كان يعمل بها من القرن الثاني عشر ، تطبيقاً للسلفيات . وحتى نصف الأشكال الكثيرة والمتعددة التي اتخذت من ذلك الوقت فصاعداً ، فانه من الضروري أن لا نتعدى أبعد ما هو ممكن هنا في ميدان التشريع التجاري . وسوف يظهر انتشار هذا التأمين والضمان البحري المبكر عند الايطاليين ، وبخاصة أرباب السفن الجنويين . ومن خلال هؤلاء انتشر التأمين من الصفقات البحرية الى كل المعاملات المالية العامة . ولقد كرسست المجتمعات لتجارة البر تحسينات أقل سرعة نوعاً ما عن تلك التي خصصت لتجارة البحر ، لكن سرعان ما ظهرت هذه التحسينات قوية ونشطة في القرن الثاني عشر في كل مدن إيطاليا التجارية . وأصبح آنذاك التعامل بصكوك الدين عادياً ، وهكذا سرعان ما نرى أن الدور الرئيسي الذي لعبوه في المعاملات التجارية يواكب أسواق شمبانيا التجارية . وان الصكوك التي أوضحتها فواتير الحساب التجارية ، قد سحبت في إيطاليا وكتبت بواسطة الموثقين العموميين ، وفي جنوب فرنسا بنفس الوسيلة ، وفي اقليم الفلاندرز كتبها الكتبة البلديون . ولقد استوجب ارتقاء أدوات القروض معرفة القراءة والكتابة بين التجار . ولقد كان نشاط التجارة دون شك سبب تأسيس أول مدارس للأطفال البرجوازيين . وكان على هؤلاء الأطفال أن يعتمدوا أولاً تماماً على المدارس الديرية ، حيث يتعلمون مبادئ اللاتينية الضرورية للمعاملات التجارية . لكن من الواضح أنه ليست روح هذه المدارس أو تنظيمها ، كانا سيسمحان ببذل انتباه كاف لنوع المعرفة العملية التي يتطلبها التلاميذ الذين خصصوا للعمل التجاري . وهكذا فانه منذ النصف الثاني للقرن الثاني عشر بدأت المدن تفتح مدارس صغيرة ، من الممكن اعتبارها نقطة البداية لوضع التعليم في العصور الوسطى . ولقد عارض القساوسة ، بالطبع ، هذا التدخل للقوة العلمانية في مجال كان حتى ذلك الوقت ملكاً مطلقاً لهم . ورغم أنهم لم يدبروا وفقاً لهذه البدعة

(١) وفقاً لراى بيرين Byrne فان الربح العادى لى مشاركة جنوية فى القرن

الثانى عشر كانت تصل الى نسبة ٢٥٪ .

التي أصبحت ضرورية ولازمة للحياة الاجتماعية ، فإنهم غالبا ما نجحوا في إخضاع مدارس المدن لإشراف لاهوتهم ، برغم أن السلطات البلدية أبقت في يدها على حق تعيين نظار هذه المدارس .

ولقد أحرز غالبية التجار الذين اشتغلوا في التجارة العالمية في القرن الثاني عشر دون شك تقريبا درجة متقدمة من التعليم . وقد جاء ذلك من المؤكد أكثر ما جاء نتيجة اعتقادهم بأن اللغات العامية حلت مكان اللاتينية في أخص أدواتهم . وفي كل الأحوال فإنه من الضروري أن نفرز بأن هذه المحاولات بدأت في تلك الأقطار التي كانت من الناحية الاقتصادية أكثر تقدما ، بمعنى القول ، في إيطاليا وإقليم الفلاندرز . وإن أول عقد حرر بالفرنسية قد جاء من الأخيرة . وفي إيطاليا كانت المكاتبات جزءا كبيرا من الحياة التجارية حتى أن اقتناء التجار للكتب صار شيئا عاما ، إن لم يكن ضروريا ولازما مثلما صار في القرن الثالث عشر . ومنذ بداية القرن الرابع عشر صارت الكتابة مشاعا في كل أوروبا . ولقد بدأت دفاتر حسابات الأخوة بونيس Bonis brothers المسجلة في مونتبون Ugo Teralh في سنة ١٣٣٩ (١) ، وكتب حساب أوجوتيرال Forcalquier (٢) تغطي سنوات ١٣٣٠ - ١٣٣٢ . ومن ألمانيا وصلنا ، من بين ما وصل ، كتب حساب يوهان تولنر Johann Tolner of Rostock من روستوك (٣) ، وكتب فيكو فون جلدنسن Viko von Geldernsen من هامبورج (٤) ، وكتب يوهان وتنبورج Johann Wittenborg من ذلك الذي جاءنا من واريندوربس Warandorps ، وأيضا ما جاء من ليوبيك (٦) . ومع بداية

- E. Forestié, Le livre de comptes des Frères Bonis marchands montalbannais du XIV siècle (Paris-Ausch, 2 vols., 1890-3). (١)
 - P. Meyer, Le livre journal de maître Ugo Teralh, notaire et drapier à Forcalquier (133/2), in Notice et extraits des manuscrits de la Bibliothèque Nationale, etc., t. XXXvi (1998). (٢)
 - K. Koppmann, Johann Tolners Handlungsbuch von 1345-135/ (Rostock, 1885). (٣)
 - H. Nierrehm, Da Handlungsbuch Vikos von Geldersen (Hamburg-Leipzig, 1895). (٤)
 - C. Mollwo, Das Handlungsbuch von Herman und Johann Wittenborg (Leipzig, 1901). (٥)
 - F. Rorig, Hannische Beiträge, etc. cited p. 119, Bib. (٦)
- أما عن بروج فلم يتبق لنا إلا أجزاء من كشف حساب كولار دي مارك (١٣٦٦ - Collard de Marke (١٣٦٩
- R. de Roover, Considérations sur le livre de comptes de c. de M., in Bulletin de l'école supérieure de commerce Saint-Ignace à Anvers (1930).

القرن الثالث عشر صنف ليوناردو بيزانو (Leonardo Fibonacci)
 Leonardo Pisano رسالة في الحساب لاستعمال التجار .

ولقد انتشر تعلم اللغات الأجنبية أيضا بين رجال الأعمال ، والذين كانت الفرنسية تلعب نفس الدور في الأعمال الاقتصادية مثلما تفعل الانجليزية اليوم . وقد ظهر ذلك بتوسع في أسواق شمبانيا التجارية . ولقد احتفظ هنالك بعدد من كتب المحادثة الصغيرة ، التي صنف في بروجر Bruges في منتصف القرن الرابع عشر من أجل تعلم هذه اللغة (١) . وجنبا الى جنب مع الفرنسية واصلت اللاتينية لعبها لدور اللغة العالمية ، وخاصة في مجال العلاقات بين الشعوب الرومانسية والشعوب الجرمانية .

وبدا تقدم التعليم متلازما تماما مع تقدم القروض ، ومثال إيطاليا يبين أنه كلما ارتقى نظام القروض ، سارع الآخر في التقدم والارتقاء . وان الوثائق التي حفظت تبين لنا أن أذونات الدفع طويلة الأجل كانت شائعة للغاية ، ونظرة عابرة لكتب الحسابات المذكورة عاليه تبين لنا حقيقة ذلك وتجعل الأمر واضحا لنا . فضلا عن ذلك ، فان هذه الكتب كانت تتعلق فقط بتجارة المقطع (القطاعي) . وهناك وثائق مماثلة تتعلق بعمليات بيع بالجملة سوف تبقى بالتأكيد أكثر اثارة للأنظار . ومن المستحيل أن نصدق أن التجار الذين اشترؤا مئات البالات من الصوف الانجليزى استطاعوا أن يدفعوا ثمنها قبل أن يبيعوا المنسوجات التي صنعوها منه . زيادة على ذلك ، فلدينا شواهد كافية لاجازة نتيجة مؤداها أن كبار التجار كانوا في علاقات ديون مستمرة مع بعضهم البعض . وفي الحقيقة ، فانه بدلا من الاهمال المعتاد بصدد الدور الذي لعبته القروض والديون في العصور الوسطى ، فانه علينا أن نعترف بانها لعبت دورا زائدا القيمة .

وبالطبع لم يكن تقدم هذا الدور متساويا في كل الأقطار . فلقد كان انتشاره قليلا في ألمانيا أسفل الراين عن اقليم الفلاندرز وفي كل إيطاليا ، وانه لمن الخطأ في التقدير أن نعمم ما كان يجري في هذا البلد على سائر أوروبا ، كما يحدث غالبا . ولكي نتفهم مندى انتشار الظاهرة المذكورة ، يجب أن ندرس أين كانت مظاهرها أكثر وضوحا . ولا يمكن لنا أن نقلل من النشاط الاقتصادي للمدن الفلمنكية والإيطالية ونساويه بما كان في مدينة فرانكفورت - على نهر المين . وكذلك سوف

Le Livre des métiers de Bruges et ses dérivés Quatre anciens (١)
 manuels de convarsetion, ed. J. Gessler (Bruges, 1931).

يكون من غير العدل أن نغالى فى أهمية قروض التجارة فى العصور الوسطى بمقارنتها بما هى عليه فى أيامنا ، أو حتى بما كانت عليه فى نهاية القرن الخامس عشر . ومن الضرورى ، فانه كما كان قائما ، فان هذه القروض التجارية كانت تعمل وتدور داخل حدود منطقة اقتصادية محدودة من الغرب بشواطئ الأطلنطى ومن الشرق بسواحل البحر المتوسط والبحر الأسود وسواحل البلطيق . ولم تكن ، فى ذلك الوقت قوة الدول الكبرى تعضد أو تقدر ، لأسباب سوف تظهر مؤخرا ، على التأثير بجدية على تنظيم الانتاج الصناعى .

ولقد استخدمت قروض التجارة كجزء من رأس المال السائل المتاح فحسب . ومع الوقت فان الجزء الأهم استخدم كسلفيات للسلطات العامة أو للأفراد . وكانت العمليات البنكية فى العصور الوسطى فى جوهرها عمليات اقراض ، وغالبا ما كان كل تاريخ التجارة فى المال فى تلك الفترة كان مهتما بذلك . وهذه التجارة ، كانت نفسها نتيجة لحركة النشاط التجارى فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر فحسب . وعن البنسوك فى العصور الوسطى وبدايتها ، فنستطيع القول بأن بعضها كانوا من سلاله الصيارفة (cambitores) ، الذين كانت بداية ظهورهم فى تاريخ مبكر كنتيجة لاختلاف العملات وسرعان ما كون هؤلاء الصيارفة لهم ثروات واغتنوا من خلال احتراف مهنة ضرورية ليس عليها أية رقابة ، كذلك كان عدد كبير منهم من كبار التجار ، الذين استخدموا فائض أموالهم وربحوا من اقراضها للغير . ويجب أن نلاحظ ، علاوة على ذلك ، أن العمليات المصرفية لم تنفصل نهائيا تماما عن الاتجار فى السلع ، وقد كانت تمثل ابتزازا لها . ولقد كانت ببساطة تلك هى الوسيلة الوحيدة لاستغلال فائض رأس المال .

كقاعدة عامة فان أعمال العصور الوسطى المصرفية كانت تجمع بين المقرضين والتجار . ومن المحتم أن تأسس ثروات تجارية كبيرة خلال القرن الثانى عشر قد لفتت انتباه الملوك ، والأمراء ، والارستقراطيين ، وكذلك الكنيسة . ولقد كان جميعهم يعانون من عدم كفاية الدخل ، نتيجة لتزايد النشاط الاقتصادى والنمو المتزايد للمصروفات الذى كان نتاجا لمستوى معيشى متميز . ولقد كان من الموافق لهم أن يحصلوا على المزيد من المال الذى كانوا فى حاجة اليه من هؤلاء لتجار الذين كانوا يتعاملون به ، دون الحاجة الى أن يرهنوا أراضيهم للأديرة أو أن يرسلوا فضيلاتهم الى دار الضرب . ولنا أن نتساءل فى هذا المجال ، كيف قاوم التجار هذه المطالب وكيف واجهوها ؟ ولقد كان من الخطورة بمكان أن يقف أحد آنذاك ضد المقرضين الذين كان نفوذهم السياسى والاجتماعى ملحوظا . وحقيقة

أن قوتهم العظمى ربما تعرضت للخطر بسبب المخاطرة والمجازفة التي كانت تتعرض لها أموالهم ، لكن الضمان الكافي لاستمرارهم في اقراض هذه الأموال للتجار هو الحصول على قدر كاف من الفائدة على هذه الأموال تعوض خسارة الديون غير المدفوعة . ولقد وضع هؤلاء المقرضون في حساباتهم أنه برغم المخاطرة الكبيرة بأموالهم (من تعرض التجار لمخاطر الحرب ، وتحطم السفن والقراصنة ، واللصوص) فإن الأرباح الناجمة عن استثمار هذه الأموال كانت جذابة . ومن القرن الثالث عشر فصاعدا صاروا على وجه التقريب الأغنياء الجدد *nouveaux riches* . ومن الجلي أن بقايا قليلة لصكوك حجج كانت قد صارت في حوزتهم سدادا للقروض التي قدموها للتجار قد أتلفت عند السداد . ونحن ندين كلية لصدفة العثور على مصادر قليلة وصلت إلينا وأمدتنا بمعلومات في هذا الخصوص ، وبرغم قلة هذه المعلومات وضآلتها ، إلا أنها مكنتنا من أن نقدر قيمة العروض التي وضعها التجار آنذاك في خدمة عملائهم .

وحوالي سنة ١١٦٠ قدم وليم المدلل (William Cade) مبلغا كبيرا للملك انجلترا ولعدد من النبلاء (١) . كذلك قام بنفس الدور كل من جون رينفيتش John Rynvisch وسيمون سافير Simon Saphir of Ghent مع جون لاكلاند John Lackland (٢) ، وفي نفس الوقت تقريبا كانت آراس Arras مشهورة بمقرضاتها ، *Atrebatum .. urbs .. plena Divitiis, nihians lucris et fœnore* .

gaudens. (٣)

ولقد كان اللوتشارديون Louchards ، أغني هؤلاء التجار المقرضين ، وقد تركوا لهم اسما أسطوريا في الأراضي المنخفضة ، كذلك الكريسمينيون Crespins فقد أحرزوا تقريبا نفس الشهرة . ولا تزال القصائد الشعرية المحفورة على الجدران تحفظ لنا انطبعا بأن ثروتهم وحجبتهم للكسب كانا متعاصرين (٤) . ومن بداية القرن الثالث عشر كان كل نبلاء حوض الشيلدت

(١) عن هذه العمليات ، انظر مقال : H. Jenkinson Quoted p. 118, Bfb.

(٢) تقريبا في سنة ١١٧٦ استدان الأساقفة الانجليز مبالغ كبيرة من تجار الفلاندرز "mercatores Flandriae" .

A. Schaubé, *Handelsgeschichte der Romanischen Völker*, p. 393.

Guillaume le Breton, *Philipidis. Mon. Germ. Hist. Script.*, (٣) t. XXVI, p. 321.

A. Guesnon, *La atire à Arras a xiie siècle*, in *Le Moyen Age* (٤) (1990-1890).

وعن الشهرة والثروة التي حدثنا عنها الأسفار الارتوازية في بداية القرن ١٢ ، انظر : Guibert de Nogent, *Histoire de sa vie*, ed. G. Bourgin, p. 223.

Scheldt basin الكبار مدينين لبرجوازي المدن . وجنبا الى جنب أهالى أرتوا Artois نسمع عن برجوازي لينز Lens ، ودواى Douai ، وتورناى Tournai ، وجنت Ghent . وفالينسيا وايريس Ypres كمقرضين ، لقائمة ديونهم التى شملت الكونتيسة جين ومارجريت كونتيسة الفلاندرز ، وكونت جاي دى دامبير Count Gui de Dampierre وأبنائه روبرت وجين ، وأسقف ليج ، وكونت روبرت الثانى كونت أرتوا Count Robert II of Artois ، وسيد تيرموند Termonde ونير غيرهم . ولقد تنوعت المبالغ المقدمة وتغير حجمها من ما بين الستين جنيها الى ١٤٠٠٠ جنيه ، لكن نفس الأشخاص كانوا يعودون باستمرار للاقتراض . ومنذ عام ١٢٦٩ حتى عام ١٣٠٠ ، وصلت الديون الشهيرة لجاي دى دامبير فى جملتها الى ٨١٣ر٥٥ جنيه ، فى اقليم الفلاندرز لوحده ، ولا نعلم عن المزيد من القروض الأخرى التى قام باقتراضها من أماكن أخرى . وكان سداد الدين عادة ما يحدد بعد عام من السنة التى تم الاقراض فيها وبضمان كفالات ، بعض البرجوازيين فى بعض الحالات ، وفى بعض الحالات الأخرى بعض الشخصيات الكبيرة ، مثل وكيل دعاوى آراس (avoués) وبيشين Bethune ولورد أودينيريد Audenarde ، فى المدن البورجوازية . وفى بعض الأحيان ، كان الضمان أيضا يقدم بملكات المدين الفعلية . ولقد كانت المدن مستعدة للاقتراض شأنهم فى ذلك شأن النبلاء . فى الحاجة للقليل من المال أو الكثير منه كانوا يلجأون الى صناديق مال التجار . ومن أكتوبر ١١٨٤ حتى فبراير ١٣٠٥ فى عشر مناسبات مختلفة اقترضت بروجز مبلغا بلغ اجماله ٤٦٠٠٠٠ جنيه (١) . ولم توضع فى الاعتبار احتياجات المؤسسات الدينية آنذاك ، لكنها مالت باستمرار الى الاستئانة ، لكن كتاب زيارات رينو Eudes Rinaud (١٢٤٨ - ٦٩) الذى احتفظ به رئيس لأساقفة نورمانديا تبين أن كل أديرة نورماندى كانت غارقة فى الدين .

هذه الصور سوف تكفى لتبين لنا درجة عمليات الاقتراض ، التى نتجت عن وجود رأسمال ناتج من التجارة . وإن الصورة التى قدمتها لنا الأراضى المنخفضة قد قدمت ثانية وشملت كل أوربا ، مع اختلافات ناتجة عن نشاط زائد أو نشاط أقل للحياة الاقتصادية فى المناطق المختلفة . وفى كل مكان أكدت الأموال أن استغلالها كان مربحا كذلك فإن الحاجة لها كانت ماسة . وكان كل مبلغ يقدمه الدائن يعنى أنه سوف يأخذ عنه عوضا وهو ببساطة ربا ، أو باستخدام التعبير الحديث ،

فائدة • ولم تتراجع البيانات البلدية ولا المذكرات الشخصية أمام ذكر كلمة ربا الكريهة ، لكن الوثائق التي وجهت للعامة فقد وُوريت الحقيقة بها • وفي العادة يوافق المقترض على أن يسدد ، وقت الاستحقاق ، مبلغا أكبر في الحقيقة من المبلغ الذي اقترضه ، ومن هذا الفرق بين المبلغين تتكون الفائدة • وفي القروض التي ينتاب أهلها ضرر أو تلفيات فإن القرض المعترف به عادة ما يكون المبلغ الأصلي المقترض دونما فائدة • وفي اليوم المحدد للسداد تدفع التلفيات وإذا لم يدفع رأس المال في الموعد المحدد للسداد يجدد الدين حتى يرهن المدين في النهاية نفسه سدادا لما عليه من دين عجز عن سداده • وكان من المفهوم أن المدينين سوف لا يدفعون في الموعد المحدد للسداد ، وهنا يتقرر الربا جزاء للتأخير (١) • وعموما فإن قيمة الفائدة تراوحت ما بين ١٠ / ١٦ ٪ من قيمة المبلغ المقترض • وفي بعض الأحيان كانت الفائدة تتناقص إلى ٥ ٪ ، أو تزيد وترتفع إلى ٢٤ ٪ وأكثر • ومن الطبيعي أن تكون درجة المخاطرة التي سبقي الإشارة إليها في الصفقات قد أثرت في المعدل المشروط • ولقد مارس تجار شمال أوروبا الاتجار في المال ، في كيد Cade ، ولوتشارد Louchard ، وكريسبين Crespin ، وما شابههم ، بشكل بدائي للغاية رغم اتساع قدرها • ويبدو أنها كانت محصورة في تعاقدات أفراد ، بين أصحاب رؤوس المال والمقترضين • ولم يبدو أن رجال مال أراس Airas وبقية المدن الفلمنكية كانوا قد كونوا شركات • « وهم اما تصرفوا بمفردهم ، أو في الغالب ، في جماعات من اثنين أو ثلاثة ، يتم بينهم اتحاد مؤقت في الغالب لا يستمر ، لكن ليس في جمعية منتظمة » (٢) • ولم يكن لهم ممثلون في الخارج ، ولا مؤسسات ماثلة • ويبدو أنهم حتى لم يكونوا على علاقة بأصحاب المصارف وصيارفة أسنواك شمبانيا التجارية ، لأنهم كانوا يشترطون باطراد أن تسدد الأموال التي يقدمونها كقروض في مواطنهم الخاصة • زيادة على ذلك ، تعهدوا بالآلا يأخذوا تأمينات وودائع ، ولا ترك الوفاء في الدفع بالخارج ، ولا اسقاط الصكوك • وكان الايطاليون ، على عكس ذلك ، كانوا معتادين على كل هذه العمليات من القرن الثاني عشر وأوصلتهم من القرن الثالث عشر إلى أعلى درجات التقدم الموافقة لظروف العصر الاجتماعية • ولقد كانت سيادتهم كبيرة على رجال المال الشماليين حتى أن هؤلاء الشماليين أدخلوا الساحة لهم وأصبح كل هم رجال المال منذ نهاية القرن الثالث عشر هناك أن يكونوا مجرد أثرياء Otiosi شغلوا أنفسهم بإدارة ثرواتهم وحياسة ممتلكات حقيقية وتحصيل الإيجارات •

G. Bigwood, *op. cit.*, t. I, p. 441.

(١)

Ibid., p. 178.

(٢)

وكما سبق أن رأينا ، فإن تجار الشمال وتجار إيطاليا كانوا يترددون على أسواق شيمانيا التجارية وأسواق الفلاندرز منذ القرن الثالث عشر . ولقد كانت صناعة المنسوجات التي استوردوها بكميات كبيرة لجنوب أوروبا مهمة بالنسبة لهم لدرجة أن كثيرا منهم انقاد ليقيم في مراكز الانتاج وكذلك للدخول في مصاهرة مع البرجوازيين . ولكن ما كادوا يستقروا في هذه المراكز حتى أخذوا في منافسة أهاليها بنجاح ، واستغادوا كثيرا في أمورهم المالية من تنظيمهم وتقنياتهم العالية . ولقد قامت الشركات القوية التي ينتمون إليها بتزويدهم برأس المال من الخارج ومن نهاية القرن الثالث عشر كان لهم جميعهم ممثلون في الأراضي المنخفضة . ولقد وجدنا هناك شركاء أو وكلاء للسالميين Salimbene والبسنينوريين Frescobaldi ، وال Gallerani of Siena ، Buonsignori ، the Scoti of Piacenza ، the Peruzzi ، و the Pucci and the Bardi of Florence وجنبا الى جنب معهم الجنوبيين ، والبستوانييين والكاهورسينيين من لانجيدوك Pistoians and Cahorsins from Languedoc ولقد كان لدى كل هؤلاء الجنوبيين ثقافة تجارية ، ونسق أعمال التبادل والأعمال التسليفية ومعرفة بمراكز أوروبا التجارية الكبرى التي كانوا على علاقة مستمرة معها ، وقد جعلهم كل ذلك فوق المنافسة . وليس من المستغرب ، أن تستنجد الكونتيسة جين Countess Jeanne بدائني إيطاليا بعد معركة بوفان Bouvines بطلب مبلغ من المال كانت في حاجة له لتفتدي به زوجها ، فراند البرتغالي Fernand de Portugal ، من أيدي فيليب أغسطس . وفي سنة ١٢٢١ تسلمت ٢٩١٩٤ جنيهها من أصل مبلغ ٣٤٦٢٦ . ولقد كان ذلك انجازا مريحا للمقرضين ، كذلك دون شك للكونتيسة ، التي استطاعت من جانبها أن تهنيء نفسها على عملهم الطيب (١) . على كل حال ، فإنه منذ ذلك الوقت فصاعدا انتشر الاقتراض من المراكز المالية البعيدة سريعا .

وقد بدا تقدم الاقتراض بأشكال متعددة مسلم « بصحتها » . وقد حددت أسواق شيمانيا التجارية في العادة كمكان لسداد القروض وتحديد أجلها . لكن رجال المال الإيطاليين عملوا أيضا كوسطاء في دفع القروض في الخارج ، ولقد أعطتهم سيادتهم في عمليات المقايضات ، و « المقاصات » التي تعني موازنة ومعادلة الديون المتبادلة ، منذ نهاية القرن الثالث عشر القدرة على احتكار كل الأعمال المصرفية في شمال الألب . ولقد زودهم ملوك فرنسا وإنجلترا ، وأمراء المقاطعات ، وكبار الأساقفة ، ورؤساء

الأديرة ، والمدن ، زودوهم جميعهم بعملاء عالميين . ولقد استفادت الباباوية منهم في تشغيل الأموال الكثيرة التي كانت تحت يدها ، لجمع فوائد المال لكنيسة القديس بطرس ولمواجهة الضرائب المتزايدة من كل نوع والتي كانت تثقل كاهل الكنيسة (١) . وانهم في حقيقة الأمر أداروا مالية كل أوروبا . ولقد دعاهم الملوك لمجالسهم ، وعهدوا اليهم بدور ضريبتهم ، وأكلوا اليهم الاشراف على ضرائبهم والقيام بجمعها . ولقد فرضوا نظام الالتزام في مدن كثيرة ، وحيثما كانوا فقد خولهم الأمراء بحفظ قوائم الديون . وبالإضافة الى العمل المصرفي فقد شاركوا في كل العمليات التجارية . ولقد اشتروا الصوف وباعوا القماش ، والتوابل ، والمشغولات النحاسية ، والحرير ، والديباج ، وامتلكوا سفنا وكذلك فنادق في باريس ، وبروجز ، ولندن وفي مدن أخرى . ومع نمو أعمالهم أصبحوا أكثر جسارة ، لأن الأرباح التي كانوا يحققونها كانت أكثر من خسائر المخاطرة . ولم يترددوا في استنزاف المدنيين واعتصارهم ، والذين أجبرتهم الحاجة أن يوافقوهم على دفع فائدة قدرها ٥٠٪ عن ديونهم المستحقة لهم ، وكذلك أيضا نسبة ١٠٠٪ على الأديرة أو الأفراد الذين وقع الحجز عليهم . لكن في الأعمال الكبيرة وصفقاتهم مع عملائهم الذين يستندون على قوتهم أو على قدرتهم على سداد الدين ، فإن الفائدة كانت في حوالى ١٠٪ .

ومقارنة بطفح الديون الإيطالية وتفشيها ، بدت الديون اليهودية مسألة صغيرة للغاية ، وبدا الدور الذي لعبوه في العصور الوسطى دورا مبالغا فيه بالتأكيد . والحقيقة الفعلية تبين ، أنه كلما كانت الدولة متقدمة اقتصاديا ، وجد بها عدد قليل من المقرضين اليهود . ففي اقليم الفلاندرز لم يتواجد هنالك الا قلة مهملة منهم ، لكن أعدادهم تزايدت بكثرة تجاه شرق أوروبا . وفي ألمانيا تزايدت ونمت أعدادهم مع الزمن من الراين وفي بولندية ، وبوهيميا والمجر تواجدا هنالك بكثرة . وفي عصر اقطاع أرض العصور الوسطى ، كما بينا سابقا ، وجدناهم بائعين جائلين لبضائع الشرق (٢) . وداخل أسبانيا الإسلامية (الأندلس) ، حيث كان هنالك مجتمع متعاون الأديان اكتسبوا في وقت مبكر نفوذا اقتصاديا كبيرا ، وكانوا يجلبون الى شمال أوروبا التوابل ، والأقمشة

G. Schneider, Die finanziellen Beziehungen der florentinischen Bankers zur Kirche (Leipzig, 1899); ed. Jordan, Le Saint-Eiège et les banquiers italiens, in Congrès internationale des catholiques, 5th section, p. 292 (Brussels, 1895).

(٢) انظر ما سبق ، ص ١١ ، وانظر أيضا :

M. Hofmann, Der Geldhandel der deutschen Juden Während des Mittelalters bis zum Jahre 1350 (Leipzig, 1920).

الفخمة والمشغولات النحاسية . كذلك يظن أنهم عملوا في الاتجار سرا في الأرقاء المسيحيين حتى نهاية القرن العاشر تقريبا . ولعله استحوذ عدد منهم على أراض ، وروم أعناب وطواحين في جنوب فرنسا . لكن الكنيسة ، دون أن تضطهدهم ، كانت على الدوام تفكر في منع أى تعاقد يحدث بين هؤلاء « اللثام » وبين المخلصين ، وإن انبعاث الشعور الدينى ، الذى أدى الى الحملة الصليبية الأولى ، قد أطلق العنان لكراهية العامة لهم وكان فاتحة لتلك السلسلة الطويلة من المذابح ، التى كانوا فى الغالب آنذاك هم ضحاياها . وفى نفس الوقت فإن انتعاش تجارة البحر المتوسط فى القرن الحادى عشر جعل من السهل الاستغناء عنهم كوسطاء مع الشرق ، والمكان الوحيد الذى حاز اليهود الثروة فيه هو برشلونة خلال الحكم الاسلامى للأندلس ، وقد بقوا فى المدينة بعد فتحها ، وشاركوا فى التجارة البحرية هناك كملاك للسفن أو مشاركين فى ملكيتها . وحيثما كان فإن يهود الغرب صاروا مجرد مقرضين للمال مقابل رهن ، ويسلفون بالفائدة بضمان الرهائن . ولم يتأثروا بتحريم الربا ، المطبق فقط على المسيحيين ، فحققوا أرباحا طائلة دون شك من افراطهم فى استخدام هذه البراءة ، وبسبب أنه لم يكن يترك بابهم سوى محتاج أو مضطر ، فقد جعلتهم هذه الحاجة يستغلون عملاءهم كما يريدون وبقدرة استطاعتهم . ولقد سهلت لهم اتصالاتهم مع المجتمعات غير المتعصبة ، ليس فقط فى أوروبا ولكن فى الأراضى الاسلامية فى الجنوب ، أن يحصلوا على المال اللازم الذين يحتاجونه لأعمالهم ، ويستطيع الأشخاص الذين يقعون فى ضائق مالية أن يحصلوا على مساعداتهم ، وبقدر الحاج حاجة العميل تقل مساومته فى الفائدة المقدرة على المبلغ الذى يقترضه منهم . فضلا عن ذلك ، فانه كان للاقتراض من اليهود فائدة لها اعتبارها وهى السرية . وقد كان ذلك أمرا موافقا حتى ان المؤسسات الكنسية رجعت الى الاقتراض منهم .

وحيثما حل اليهود كانوا فى حماية حكام المقاطعات ، واعتمدوا كثيرا فى ذلك على نواياهم الطيبة تجاههم . وفى سنة ١٢٦١ أمر الدوق هنرى دوق البرابانت Duke Henry of Brabant ، وهو على فراش الموت ، بطرد كل المرابين من بلاده ، ولكن زوجته الأرملة سمحت لنفسها بالابقاء عليهم بعد سماعها نصيحة القديس توماس الأكوينى St. Thomas Aquinas (١) . ولقد قام ادوارد الأول بطردهم من انجلترا سنة ١٢٩٠ ، وحذا حذوه فيليب (العادل) Philip the Fair

(١) H. Pirenne, La duchesse Aleyde de Brabant et le "De regimine Judaeorum" de Saint Thomas d'Aquin, in Bulletin de la Classe des Lettres de l'Académie royale de Belgique (1928).

فى فرنسا سنة ١٣٠٦ لكن خلفاء سمحوا لهم بالعودة تدريجيا الى المملكة ، لكنهم طردوا مرة أخرى سنة ١٣٩٣ . الى جانب ذلك ، فقد كان الأهل يثورون ضدهم على فترات وذلك بتحريض من المدنيين ، الذين كان السهل عليهم اثارة جموع العامة مستغلين فى ذلك سلامة طويتهم(١) . ولقد اشتبه فى المرابين اليهود من أنهم وراء كل نوع من أنواع الارهاب رندنييس المقدسات وانتهاك حرمانها . وفى عام ١٣٤٩ ذبحوا فى كل برايان ، وفى سنة ١٣٧٠ طردوا منها نهائيا ، بعد سريان اشاعة انهم دنسوا خبز القربان المقدس (٢) . ولقد واجه اليهود كمرابين منافسين اقوياء من المسيحيين أنفسهم بداية من القرن الثالث عشر . وبدت أقدم هذه المنافسة فى تاريخها من قبل رجال من كاهورز Cahors ، كانوا منتشرين فى كل فرنسا والأراضى المنخفضة وكانوا نشطاء للغاية فى أمر الاقراض ، حتى انه منذ منتصف القرن الثالث عشر أصبحت كلمة (كاهورزينى) Cahorsin تقابل كلمة المقرض للمال والمرابي(٣) . على أن ، اللمباردين ، أو غالبية الايطاليين ، سرعان ما أخذوا مكانهم فى طبقة رجال الأعمال هذه . ومقابل الايجار ، أعطاهم الأمراء والمدن الحق فى تقديم « جداول قروض » ، وأقدم هذه المنح فى الأراضى المنخفضة ترجع الى عام ١٢٨٠ . ولقد مارس من منح هذه القوانين احتكار يعطيهم الحق فى ابعاد الآخرين عن المنافسة . « مثلما حدث للتسكانيين على يد اليهود » (٤) ، وربما يكون من الحدس والتخمين أن نقول بأن ممثلهم هم الذين أسهموا فى سبب ابعاد اليهود عن المكان الذى أخذوه . وبرغم أن المنح الأولى التى أعطيت لهم اشترطت أن القروض يجب أن تتم بطريقة « حسنة وقانونية دون توريط ودون ربا » ، وكان كل القصد من ذلك بوضوح هو تحريم أخذ الفائدة على المال المقرض . ولا تركز المصادر المتأخرة على هذه النقطة ، ولكنها فقط منعت « الاتفاقات الشريرة » أو الزام المقرضين بأن يعملوا بموجب الأعراف والعادات التى اعتاد اللمبارديون الاقراض بها « (٥) .

(١) ومن الأمثلة المتاحة لذلك ما وقع فى باريس سنة ١٢٨٠ ، انظر : Chronique du religieux de Saint Denys, ed. Bellaguet, t. I, p. 54.

(٢) لم يتواجد هناك عدد كبير منهم آنذاك ، بدليل أن ممتلكاتهم التى صودرت قدرت

قيمتها فقط بمبلغ ٧٠٦٥ فلورين برايانلى .

Henne and Wauters, Histoire de Bruzelles, t. I, p. 133.

(٣) وفى سنة ١٣٦٧ كانت كلمة « كورزينين » Cauversinen تطلق على اللمبارديين Gilliodts van Severen, Inventaire de Archives de Bruges, t. t. II, p. 140.

ولقد تعامل الكاهورزينين فى تجارة المال والبيضائع ، انظر :

F. Arens. Wilhelm Servant von Cohors als flaufmann zu London, in Vierteljahreschrift für Social-und Wirtschaftsgeschichte, t. XI (1913), p. 477 et seq.

Bigwood, Le commerce de l'argent, t. I, p. 340.

(٤)

Ibid., p. 451.

(٥)

وعلى هذا فلقد اعترفوا رسمياً بالتعنت مع المدنيين واستغلال ظروفهم ،
الذى اعتبروه ثمناً معقولاً للفائدة . ولقد كان السعر العادى للفائدة هو
دينارين للجنيه كل أسبوع ، بمعنى أنها بنسبة $\frac{1}{43}$ ٪ فى العام ،
وغالباً ما كانت فائدة التجارة تصل الى ضعف هذه النسبة . ولقد أظهرت
« قوائم » للمباردين وحساباتهم ، أنهم كانوا بعيدين عن حصر أنفسهم
على وجه القصر فى ممارسة الاقراض بالفائدة ، لكنها أظهرت أنهم تسلموا
أموالاً من عملائهم وسددوا عنهم ديونهم واشتغلوا أيضاً بالعمليات
النجارية .

ولقد شارك الصيارفة فى الاتجار فى المال وقى تقديم القروض
وقد كان تغيير العملة عملاً مربحاً ، وكان حق القيام به يمنح من قبل
الأمراء فقط مقابل جعل معين ولعدد محدد من الأشخاص من الذين كانوا
يحظون آنذاك بمكانة شبه رسمية . ولقد احتفظ هؤلاء لأنفسهم بالاتجار
فى المعادن الثمينة ، ومن الواضح أنهم أحرزوا من وراء ذلك أرباحاً
وفيرة ، إضافة الى عمولات تغيير العملة . وسرعان ما أصبح من المعتاد أن
يعهد اليهم بحفظ بعض الاموال كودائع عندهم ، ولم تكن هذه الخدمات
دون شك بدون مقابل . وتسلموا أيضاً ودائع وذخائر مرهونة ، ومن
الممكن أن نفهم بسهولة أنهم عملوا مراراً وتكراراً كوكلاء للدفع وأن بعضاً
منهم أصبح أيضاً مقرضين .

وعلى الجانب الآخر ، فإن المؤسسات الكنسية ، التى كانت قد
لعبت دور مؤسسات الاقراض الحقيقية فى قرون العصور الوسطى الأولى ،
نادراً ما أقرضت نقوداً منذ بداية القرن الثالث عشر . وخلافاً لما كان عليه
العلمانيون الذين لم يستطيعوا تجنب تشريع تحريم الربا ، ولذلك سمحوا
لأنفسهم من حين لآخر بنقض هذا التشريع (١) . زيادة على ذلك ، فإنه
لم يكن لديهم المال الكافى الجاهز للمنافسة مع التجار ، وبخاصة التجار
الاطاليين ، حتى لو كانوا قد أرادوا ذلك ، وبالطبع ، فإنه من المعتاد أن
تلجأ هذه المؤسسات الكنسية الى كبار رؤوس هذه البيوتات المالية طلباً
للقرض منهم ، وأنهم كانوا بذلك دوماً مدينين لهم . والوحيدون الذين
استثنوا من ذلك هم كهنة فرسان المعبد Templars ، وبسبب علاقاتهم
مع مسيحيى الشرق ، فقد نجحوا فى أن يصبحوا قوة مالية حقيقية خلال
القرن الثالث عشر . ولقد كانت مقاطعاتهم العسكرية على اتصال ببعضها
البعض ، سواء أكانت قائمة فى سوريا أم فى الولايات الغربية . وبسبب
هيبتهم ونفوذهم وقوتهم العسكرية صار النبلاء يستخدمونها كأماكن آمنة

(١) فى سنة ١٢٢٨ قام دير سانت بيرتين Saint Bertin باقتراض مال بالربا ،
انظر : Bigwood, Op. cit., t. II, p. 263 .

لا يبدع أموالهم فيها ، أو لتحويل الأموال من وإلى الشرق بواسطتهم . وفي فرنسا كان الملوك يأتمنون فرسان المعبد على كل أنواع الأعمال المالية ، حتى جاء فيليب العادل وقرر فض هذا النظام ، وطمع في ثرواتهم ورغب في أن يصرف حمايته لهم عنهم . ولقد تطورت الديون الحقيقية ، (ونعني هنا الديون المتصلة بالولايات الزراعية) بطريقة ، أعطتها ، على الأقل ، داخل المدن ، أهمية حيوية ، فالتجار الذين نمت ثروتهم بسبب التجارة لم يستخدموا كل مكاسبهم في العمليات التجارية أو في السلفيات . فلقد كانت الطريقة الآمنة لهم هي شراء الأرض ، التي أصبحت مع التطور السكاني السريع للمدن البلدية أرض بناء ، تؤجر أبنيتها للوافدين الجدد من السكان . وسرعان ، ما أظهرت لنا : *Gesta episcoporum camera censium* عند بداية القرن الثاني عشر أول تاجر عظيم في الأراضي المنخفضة اكتسب المزيد من الإيجارات التي زادت ثروته زيادة كبيرة وسجل التاريخ اسمه وهو وريمبولد *Werimbold* (Census accrescunt consibus et munera muneribus) (١) .

وقد أضيفت إلى إيجارات الأراضي التي حصل عليها ملاك الأراضي ، إيجارات أخرى تمثلت في إيجار المساكن التي كان يدفعها ساكنو هذه المساكن التي أقيمت فوق هذه الأراضي . ولقد كان ظهور إيجارات المنازل هذه واحدا من أهم أشكال الدين وأكثرها شيوعا بين ديون العصور الوسطى . وإذا ما أراد مالك بيت أن يقترض قرضا طويل الأمد ، فهو يبيع إيجار منزله للمقرض ، بمعنى أن يقوم المقرض بتسليم هذا الإيجار ، وتكون الفائدة المقدرة على المبلغ المقرض بضمان ملكية المنزل ، الذي يؤول المرهن إذا لم يتحصل المقرض إيجار المنزل من صاحبه أو من ساكنيه . هذه الفائدة ، التي كانت أكثر اعتدالا من فائدة التجارة ، كان من فوائدها أيضا عدم وقوع المتعاملين بها في حرمانية الربا ، وكانت نسبتها تتراوح عادة ما بين ٨ ٪ إلى ١٠ ٪ حتى القرن الخامس عشر (٢) . ولقد كانت هذه الإيجارات القائمة على الممتلكات الحقيقية مختلفة تماما عن الإيجارات التي كانت قائمة بين المدن نتيجة السلفيات التي كانت معقودة بينها .

Gesta episcoporum Cameracensium Continuata, ed. G. Waitz, (١)
MMGG., SS. t. XIV, p. 215.

W. Arnold, *Zur Geschichte des Eigentums in den deutschen* (٢)
Städten (Basle, 1861). G. Des Marez, *Etude sur la propriété foncière dans les villes du Moyen Age et spécialement en Flandre* (Ghent, 1894) ; J. Gobbers, *Die Erbleihe und ihr Verhältniss zum Rentenkauf im mittelalterlichen Köln*, in *Zeitschrift der Savigny-Stiftung für Rechtsgeschichte, Germ. Abth.* (1883).

فمن بداية القرن الثالث عشر تفشت في المدن بكثرة عادة بيع الايجارات لأجل أو اثنين ، من أجل رفع المبلغ وزيادته زيادة غير طبيعية ، وتكون فائدة هذه الايجارات على رأس المال المقترض . وتدفع هذه الفوائد للمقرض حتى وفاته أو فاة ورثته (ايجار لأجلين) . وهكذا فلقد كانت هذه الفوائد استثمارات تفتش عنها البرجوازيون منذ وقت مبكر ، ولما كان مسموحاً لأي شخص بشراء الايجارات من هذا النوع ، صار في كل مدينة عدد كبير من المستأجرين موزعين في أنحاء كثيرة . ولمنع الاحتيايل في هذا الأمر والغش ، وعد المستأجرون الجدد للدين العام الذين يشبهون الدائنين القدامى بجوائز خاصة اذا ما أبلغوا عن وفاة مستحق هذه الايجارات . وفي بعض الأحيان ، أيضا ، تختار حكومة المدينة وكلاء خاصين لها لحصر مستأجري هذه الديون الأحياء (١) . ولقد تنازلت مدن معينة عن ادارة جزء من دخلها لصالح دائنيهم ، عوضا عن أرباحهم المستحقة . ولقد شاعت هذه العادة كثيرا في ايطاليا في منتصف القرن الثاني عشر . وفي سنة ١١٦٤ تنازلت جنوة عن مواردها لمدة أحد عشر عاما مؤسسة (monte) التي تألفت من أحد عشر شخصا . وبحلول القرن الثالث عشر جمدت المدينة دينها واعترفت لدائنيها بحقوقهم في بيع استحقاقاتهم من الديون لطرف ثالث . وقد نشأ بنك سان جورج الشهير (casa di S. Georgio) ، الذي صار بنكا قويا للغاية في القرن الخامس عشر ، عن هذا الطريق .

وبرغم أن الصورة السالفة للديون والاتجار في المال ، كانت صورة باهتة وأيضا غير مكتملة ، الا أنها أعطتنا بعض الأفكار عن أهميتها وعن اشكالها المتعددة التي ظهرت عليها قبل نهاية القرن الثالث عشر . وبدون هذه الصورة كانت الحياة الاقتصادية في العصور الوسطى ستصبح غير مفهومة ولا مدركة لنا . لكن ، عدا في المدن الإيطالية الكبرى ، حيث النظم المالية الحكومية للأسواق وبنوك المستقبل التي كانت قد أخذت شكلها ، فإن نشاط هذه الديون كان أكبر بكثير من بلوغها حد الكمال اصطلاحا . ومن الثابت حقا ، أنه لم تكن هنالك أسسواق مال ، بالمعنى الحقيقي للمدلول اللفظي ، في هذه الفترة . فكل عملية اقتراض كانت في حقيقتها موضوع تعاقد تم لظروف خاصة باتفاق خاص بين المقرض والمقترض .

(١) أوجدت الأديرة أيضا ايجارات الدائنين منهم الحية ، انظر ، على سبيل المثال ، في سنة ١٢٦٧ قائمة :

Pensiones que post vitas hominum ad ecclesiam revertentur, in Le Livre de l'abbé Guillaume de Ryckel, ed. H. Pirenne, p. 68.

وعن الديون القائمة في المدن انظر : G. E. pinas, Les finances de la commune de Douai, p. 321 et seq (Paris, 1902).

وفى الحقيقة لم تكن القروض التجارية تختلف عن القروض الاستهلاكية (١) .

ومن الطبيعى أن يقود ذلك الأمر الى التساؤل عن مدى نسبة هذه النقائص والمآخذ الى تحريم الفائدة . والحقيقة أن هذا التحريم الذى مر من الكنيسة الى التشريع المدنى من المؤكد أنه كان عائقا كبيرا باقيا . ومع ذلك ، فإنه فى التعامل الحقيقى ، كان من المستحيل مراعاة ذلك حرفيا . ولكن التحريم طبق فقط بشدة على حالات (الربا الواضح) ، بمعنى السلف المرتهن بشرط تعيين معدل زائد من الفائدة . ولقد كانت الحاجة للقروض كبيرة للغاية وعادية بالنسبة للناس الذين لم يفكروا أصلا فى تشبيط حمة المقرضين . ومنذ ذلك القرن الثالث عشر فصاعدا بحث المشرعون فى تعديل التحريم المطلق للفائدة الذى وضع فى نص : *mutuum dale nihil indesperantes* بحيل مختلفة (٢) . ولقد اكتشف أنه فى أى سلفيات احتوت على خسارة كاملة (*damnum emergens*) أو انقطاع المكسب (*lucrum cessans*) أو ضياع رأس المال (*periculum sortis*) فالقرامة ، أو بمعنى آخر ، الفائدة ، ممكن تبريرها . وهكذا فإن الفائدة كانت ربا شرعيا حلالا لا غير ، ومن السهل أن نفهم الى أى مدى كانت دقة الفرق بين هذا الربا المباح والربا المحرم وأى مساحة قد ترك لتفسير القضاة . وفى التجارة فإن « تهريب » المال كان مباحا بالتعامل النقدي . وقد كان ذلك القاعدة فى أسواق شيمانيا وشائعا فى عمليات المجتمعات التجارية . وفى القرن الرابع عشر يذكر المعلم اللاهوتى الفاريوس بالاجيوس *Alvarus Palagius* أن تحريم الربا لم يمكن تطبيقه أخيرا (٣) .

على أن الحقيقة التى ظلت باقية ، هى أن انتقاد الكنيسة كان قد ظل على الدوام عالقا كتهديد دائم على كل أولئك المتعاملين بالديون . وفى أحوال كثيرة كان المستدينون يعفون من جانب الكنيسة من التزامهم بدفع

Bigwood, op. cit., t. I, p. 456.

(١)

W. Endemann, Studien in die romanisch-Kanonistischen Wirtschafts — und Rechtslehre, 2 vols. (Berlin, 1874-83). E. Schreiber Die Volkswirtschaftlichen Anschauungen der Scholistik seit Thomas von Aquin, Jena, 1913. A. Fanfoni, Le origini del spirito capitalistico in Italia, Milan, 1932. A. Saporì, Il giusto prezzo nella dottrina di S. Tomaso e nella pratica del suo tempo in Archivio storico Italiano, 1922.

(٢)

E. Lipson, Economic History of England.

(٣)

فوائد ديونهم • ومن ثم كانت براعة عظمى من جانبها بذلته لمواردية الفوائد الخطيرة • وفى بعض الأحيان كان المقرض يخصم الفائدة من المبلغ المقرض، وفى بعض الأحيان الأخرى كانت تختفى تحت شكل جزاء التأخير فى السداد ، وأحيانا يحرر المدين ايصالا عن المبلغ الذى اقترضه أكبر بكثير من المبلغ الحقيقى الذى تسلمه • عموما فإن التشريعات ضد الربا لاتبدو أنها منعت من التعامل به كثيرا مثلما فعلت التشريعات الأمريكية (Volstead Act) حول الاسراف فى تعاطي الكحول • لقد كان ذلك عائقا لكنه لم يكن مانعا • ولقد اضطرت الكنيسة ذاتها للاقتراض من رجال المال الذين لامت أعمالهم • ولقد كان ذلك لهم بمثابة اعتراف شرعى من الباباوية التى كانت تتدبر ايراداتها من جميع أنحاء العالم المسيحى • وقد كان الباباوات بالطبع لا يجهلون طبيعة الأعمال التى كانت بنوكهم تعمل فيها •

الفصل الخامس
التجارة العالمية حتم
نهاية القرن الثالث عشر

١ - السلع ، واتجاهات التجارة العالمية (١)

من الغريب أن تنشأ تجارة العصور الوسطى منذ بدايتها تحت تأثير التجارة الخارجية دون تأثير التجارة المحلية الداخلية . فالتجارة الخارجية هي التي أنجبت وحدها طبقة التجار المحترفين الذين كانوا العامل الرئيسي لنشاط القرنين الحادى عشر والثانى عشر الاقتصادى . وكانت القصة هي نفسها فى كلا قسمى أوروبا حيث بدأت ، فى شمال إيطاليا وفى الأراضى المنخفضة . ولقد أعطت التجارة ذات المسافات

(١) انظر أعمال هايد وشوب الواردة ضمن قائمة هذه المصادر وأعمال نابك

Höpke ورثولود

Bibliography :

- H. Simonfeld, *Der Fondaco dei Tedeschi in Venedig und die deutsch-venetianischen Handelsbeziehungen* (Stuttgart, 1887), 2 vols. W. Stein, *Beiträge zur Geschichte der deutschen Hanse* (Gießen, 1900). E. Daenell, *Geschichte der deutschen Hanse in der Zweiten Hälfte des XIV Jahrhunderts* (Leipzig, 1897). Id., *Die Blütezeit der deutschen Hanse* (Berlin, 1905-6), 2 vols. — G. A. Kiesselbach, *Die Wirtschaftlichen Grundlagen der deutschen Hanse und die Handelsstellung Hamburgs bis in die zweite Hälfte des XIV Jahrhunderts* (Berlin 1907). P. A. Meilink, *De nederlandse hanzesteden tot het laatste kwartaal der XIV eeuw* (La Haye, 1912). F. Rörig (*Hansische Beiträge zur deutschen Wirtschaftsgeschichte* (Breslau, 1928). Id., *La Hans in Annales d'histoire économique et sociale*, t. II (1930). Id., *Mittelalterliche Weltwirtschaft*, Jena, 1933. A. Arndt, *zur Geschichte und Theorie des Bergregals und der Bergbaufreiheit* (Halle, 2nd ed., 1916). L. Blancard *Documents inédits sur le commerce de Marseille au Moyen Age* (Marseille 1884-5, 2 vols.) A. Germatin, *Histoire du commerce de Montpellier* (Montpellier, 1861), 2 vols. C. Port, *Essai sur l'histoire du commerce maritime de Narbonne* (Paris, 1852). — De Fréville, *Mémoire sur le commerce maritime de Rouen* (Rouen, 1857). 2 vol. L. Mirot, *La colonie lucquoise à Paris, du XIIIe aux XVe siècle*, in *Bibliothèque de l'Ecole des Chartes* (1927-8). Z.W. Snelher, *De ontwikkeling van den handel tusschen Noorderland en Frankryk tot het midden der XVe eeuw*, in *Bydragen voor Vaderl-Geschiedenis* (1929). — A. Schaub, *Die Wollausfuhr Englands vom Jahre 1273*, in *Vierteljahrsschrift für social und Wirtschaftsgeschichte*, t. VI (1909). — E.E. Power, *The English Wool Trade in the Reign of Edward IV*, in *The Cambridge Historical Journal*, t. II (1926). E. E. Power and Postan (ed.), *Studies in English Trade in the Fifteenth Century* (1933).

البعيدة الحركة الدافعة لهذا النشاط (١) . وسوف يتضح لنا ذلك بجلاء اذا ما تفحصنا طبيعة البضائع المنقولة ، التي كان جميعها ذات أصول اجنبية ، وبالطبع فقد تشابهت تجارة العصور الوسطى المبكرة مع تجارة المستعمرات .

ولقد كانت التوابل أول مطالب هذه التجارة ، ولم تتوقف التوابل عن احراز المكانة الرئيسية بين سلع تلك التجارة حتى النهاية . ولقد تسببت هذه التوابل ليس في ثراء البندقية فحسب ، ولكن في ثراء وازدهار كل موانئ غرب البحر المتوسط الكبرى . وخلال القرن الحادي عشر كانت الملاحة البحرية قد قامت مباشرة بين البحر التيراني ، وأفريقيا ، وموانئ الشرق ، ولقد حملت السفن التي كان يملكها التجار عبر هذا الطريق بالبضائع المرتفعة القيمة . والموانئ السورية ، التي كانت تفتد إليها كميات من هذه البضائع عبر القوافل من الجزيرة العربية ، والهند والصين ، كانت المقصد الرئيسي للسفن الأوروبية ، وقد استمر الأمر على هذا الحال حتى اكتشاف البرتغاليون طريقاً بحرياً جديداً مكنهم من الحصول على هذه السلع بواسطة مباشرة . ولقد توافقت الظروف لاعطاء التوابل التفوق ، في السهولة التي يتم شحنها بها ، والأسعار المرتفعة التي يطلبها التجار فيها . وهكذا فإن تجارة العصور الوسطى بدأت كتجارة في السلع الكمالية المرتفعة القيمة ، بمعنى ، أنها تجارة تجلب ربحاً كبيراً لحمولات خفيفة ، وقد ظل هذا مظهرها ، كما سوف نرى ، حتى نهاية تاريخها . ولم تعرف في تلك الأيام رسالات البضائع من المواد الخام أو من أدوات الاستهلاك العام بأجرة شحنها المرتفعة وتزايد المبالغ المطلوبة لذلك ، وهنا نجد التناقض المذهل بين تجارة العصر الوسيط والتجارة الحديثة . ولقد كان تجهيز ميناء العصور الوسطى يتكون من أرصفة خشبية متواضعة ، مزودة برافعة أو رافعتين ، بجانبها تستطيع أن ترسو سفن حمولتها من ٢٠٠ الى ٦٠٠ طن . وهذا كل ما كانت تحتاجه عملية تفريغ حمولة بضعة مئات الأطنان من الفلفل ، والدارصيني (القرفة) والقرنفل ، وجوز الطيب ، وقصب السكر ، وغيرها ، التي كانت تمثل أغلى السلع لتجار السفن .

ولقد أقبلت الشعوب الغربية ، التي كانت قد توقفت عن استعمال التوابل منذ العصور الميروفينجي ، على استعمالها بشغف زائد . وسرعان ما استعادت هذه التوابل مكانتها في وجبات طبقات المجتمع الراقية ، وكما ازدادت الكمية المصدرة منها شمال الألب ، تزايد الطلب نايها . ومع سرعة وصول شحنات التوابل ، لم يكن هنالك تخوف من قلة المشترين للبضاعة ، ولم يكن أي مالك سفينة في العصور الوسطى

(١) انظر ما سبق .

يخشى من تراكم المخزون ، أو مخاطر تدهور الأسعار ، لأن كل مالك سفينة يرسو بسفينته في أحد الموانئ يجد في سجلاتها زيادة أكيدة في الربح . إلا أنه كانت هنالك أخطار كثيرة على هؤلاء التجار مواجهتها ، فهناك غرق السفن الدائم وتحطمها في وسط البحر ، كذلك القرصنة ، التي كان نشأتها قائما في وضع النهار كعمل مشروع ، والحرب الدائمة بين المدن الإيطالية . وتصميم كل منها على تدمير تجارة منافستها ، لتستفيد من خرابها . ولقد حاربت المدن الإيطالية بعضها البعض خلال العصور الوسطى في البحر المتوسط بشراسة وكان على أسبانيا ، وفرنسا وإنجلترا أن تصارع في الأطلنطي والباسيفيك منذ القرن السادس عشر حتى القرن الثامن عشر . وبصعوبة بالغة بدأت جنوة وبيزا الاتجار مع الشرق قبل أن يصبح هدف البندقية طردهما من منطقة كانت تعتبر نفسها حتى ذلك الوقت سيدة لها ، سيادة مسلما بها . ولقد أعطاهما تأسيس إمبراطورية القسطنطينية اللاتينية ، التي وجهت إليها كل نشاطها ومهارتها ، سيادة مؤقتة على منافسيها . وقد فقدت هذه السيادة بعد الإصلاح البيزنطي (١٤٦١) ، الذي كانت أعمال جنوة جزءا منه . ومنذ ذلك الوقت ، تقاسمت المدينتان التجاريتان الكبيرتان السيادة على البحر الأيوني ، وكانت كل منهما تراقب الأخرى وتعمل على عرقلة تجارتها . أما عن بيزا ، فإنها توقفت عن أن تكون مصدر خوف وذعر بعد الهزيمة التي حاققت بأسطولها على يد الجنويين عند ميلوريا Meloria سنة ١٢٨٤ . ومع ذلك فإن طول هذه الصراعات وعناد أصحابها لم تعرقل ولو للحظة ثراء وازدهار المتنافسين ، وقد كان ذلك دليلا لافتا للنظر لهذا النشاط التجاري الكبير الذي كان قائما ، ولتلك الأرباح الطائلة التي حققوها من جراء هذا الصراع التجاري المرير .

ولقد أعطت التوابل الباعث والمحرك لتجارة البحر المتوسط ، لكنها لم تستوعبها جميعها . ولما كانت العلاقات بين الشرق والغرب ، بين المسلمين والمسيحيين ، صارت وطيدة ومستمرة ، فإن نوعيات كبيرة ومتزايدة من السلع الخام والمصنعة تبوؤت بينها . ومنذ بداية القرن الثالث عشر ، كانت الصادرات إلى أوروبا تتألف من : الأرز ، البرتقال ، المشمش ، التين ، الزبيب ، العطور ، العقاقير الطبية ، ومواد الصباغة ، مثل خشب البرازيل (الذي يأتي من الهند) ، والقرمزي أو الشب . إلى هذه السلع يضاف القطن ، الذي كان البنداقية يسمونه (bombacinus) باسمه اليوناني والجنوبيون يسمونه (Coton) باسمه العربي ، الذي اشتقت كل اللغات اسمه منه . ولقد استوردت أوروبا خام الحرير منذ نهاية القرن الثاني عشر ، ومثل القطن ، عندما تزايدت كمياته ، فإن تصنيع القطن والحرير قد قام في أوروبا ، أولا في إيطاليا ، ومنها بعد ذلك إلى بقية قارة أوروبا . كذلك كان هنالك الطلب على الأقمشة الشرقية

المصنعة ، التي قلدت بعد ذلك مؤخرا في أوروبا ، فجاءها الدمقس من دمشق ، والبلدشين baldachins من بغداد ، والموسلين من الموصل والغزى gauzes من غزة . ولا تزال قواميس اللغات الأوروبية الحديثة مملوءة بكلمات عربية الأصل ، جلبت مع تجارة الشرق وتظل شاهدا على نشاطها وتنوعها آنذاك . في الانجليزية ، لدينا مثلا كلمات من أصل عربي مثل : divan بمعنى ديوان ، و bazaar سوق ، و artichoke خرشوف ، Spinach سبانخ ، و tarragon الطرخون ، و orange برتقال ، alcove مظلة في حديقة ، و arsenal (دار صناعة السفن - ترسانة) ، و jar جرة ، و magazine مجلة ، و Syrup شراب ، و taffetas التفتاه (نسيج حريري رقيق) ، و tare طرح (نبات) ، و tariff تعريف جمركية ، وفي الفرنسية : douane, darse, gabelle, goudron, jupe, quintal, recif وغيرها كثير ، جاءت من العربية بواسطة الإيطالية .

وفي مقابل كل هذه الواردات الى أوروبا ، التي بواسطتها سرعان ما انتشر تدريجيا مستوى معيشى رفيع في غرب أوروبا ، فان الايطاليين امدوا مؤانئ الشرق البحرية بالخشب والأسلحة ، كذلك امدتها البندقية لبعض الوقت بالرقيق . لكن سرعان ما أصبحت الملابس الصوفية هي أهم ما يستورد الى الشرق من أوروبا ، أولا استوردت الفساتين الصوفية المصنعة في إيطاليا ، ثم منذ النصف الثاني للقرن الثاني عشر الملابس من اقليم الفلاندرز وشمال فرنسا . وليس هنالك شك في أن تردد التجار الايطاليين على أسواق شمبانيا قد نبههم الى القيمة العالية لهذه الملابس وأوحى اليهم بإمكانية التجارة المربحة فيها . ولقد كان ميناء جنوة في وضع طيب يمكنه من تصديرها الى الشرق ، وسرعان ما قام الجنويون بدور كبير في سرعة تقدم هذه التجارة . وتزودنا المراسيم الموثقة في أرشيفات جنوة بمعلومات مفادها أن الجنويين قبل بداية القرن الثالث عشر قد استوردوا ملابس من أراس ، ولبيل ، وغنت ، ويرييس ، ودواي ، واميان ، وبوفيه ، وكمبراي ، وتورناي ، وبروفانس ، ومونتريل (١) ، وغيرهم . ومن الملاحظ أن هذه القائمة ، تحتوى على أسماء عدد من المدن الفرنسية . لكن خلال القرن الثالث عشر ، تركت هذه المدن مكانتها لمدينة الفلاندرز البرابانت ، التي أصبحت آنذاك مناطقي

(١) انظر ما سبق ، ص ٣٨ .

الملابس الممتازة وملابس الطبقة الراقية في أوروبا (١) . ويرجع سبب تفوقهم الى دقة واتقان ملابسهم ، التي لا مثيل لمرونتها ، ونعومتها وجمال ألوانها . وكانت هذه الملابس منتجات ترف بمعنى الكلمة ، وكانت لها سمعتها التجارية الواسعة بسبب الأسعار العالية التي طلبت ثمنها لها . ولقد لعبت المنسوجات الدور الذي لعبته التوابل بين المواد الغذائية ، ومن القرن الثالث عشر ، تبعا لسيطرة رؤوس أموال الجنوئين وحنكتهم التجارية صار لهم الاحتكار في تصدير الملابس الفلمنكية الى الجنوب . وبعد تدهور أسواق شمبانيا ، أقامت الشركات الإيطالية التجارية الكبرى « وكلاء » لهم في بروجز ، مكلفين ببيع كل الملابس الفلمنكية والبرابانتية . وكانت هناك بطاقات من الرصاص مثبتة في هذه الملابس تحدد أسعارها ونوعيتها وقت التصدير . ولقد طلبت فلورنسا كمية كبيرة من هذه الملابس على يد بيت كاليمالا الشهير للأزياء (٢) .

وهكذا فإن الصناعة الفلمنكية والبرابانتية قد لعبت منذ وقت بعيد دورا حيويا في تجارة البحر المتوسط ، وكانت هي نفسها على علاقة مستمرة وثابتة مع بروجز . ولقد أعطت هذه الحقيقة بروجز وضعا لم تستطع أن تفتخر به أى مدينة أخرى في أوروبا العصور الوسطى . ولقد أطلق على هذه المدينة اسم « بندقية الشمال » ، وهي تسمية غير صحيحة ، لأن البندقية لم تحرز الأهمية الدولية التي انفرد بها هذا الميناء الفلمنكي . ولقد ادخرت قوة البندقية الجوهرية في شحن سفنها ، ولا تدوين بشيء للأجانب، عدا الألمان الذين كان لهم متجر دائم هناك Fondaco dei Tedeschi الذى كان نشاطه محدودا في ابتياع السلع التي تصل على سفن البندقية . أما بروجز ، فعلى العكس من ذلك ، فانها كانت تشبه الدور الذى لعبه ميناء أنتويرب Antwerp في القرن السادس عشر بطريقة مذهلة ، عاشت أولا وأخيرا على عملائها الأجانب . وكانت الغالبية العظمى من السفن التي ترددت على مينائها تخصص ملاك سفن من الخارج ، وقد قام سكانها أنفسهم بدور محدود في النشاط التجاري وانحصر في قيامهم بدور الوسيط بين التجار الذين احتشدوا فيها من كل الأنحاء . ومن

(١) كانت آتما ازدهار صناعة الملابس في هذه المدن مع بداية القرن الرابع عشر . وفي ذلك الوقت لعبت الملابس الفلمنكية والبرابانتية دورا مهما في التجارة الواسعة أكثر من تلك التي في فرنسا أو إنجلترا . وفي إنجلترا ، كانت الشكوى أن الفلمنكيين والبرابانتيين باعوا أصباغا وامشاطا واقمشة داخل الملكة مما أضر بالحرفيين أهل البلاد .
Lipson, op. cit., t. I, p. 399.

(٢) A. Saponi, Una compagnia di Calimala ai primi del trecento; A. Doren, Die Florentiner Wollentuchindustrie vom XIV bis zum XVI Jahrhundert (Stuttgart, 1901).

القرن الثالث عشر: قصصاً عدل، كان لكل من البنادقة ، والفلورنسيين ، والكتلان ، والأسبان ، والبيونيين ، والبريطانيين والهائز مخازن أو مكاتب محاسبية وعقد صفقات . ولقد كانوا هم الذين تكفلوا بالنشاط في هذا الميناء الكبير ، الذي خلف أسواق شميانيا كنقطة اتصال بين تجارة الشمال وتجارة الجنوب . باختلاف مؤداه ، أن هذا الاتصال بدلا ما كان مؤقتا ، كما كان في الأسواق ، فإنه قد أصبح الآن دائما .

ولم تقم كل من جنوة والبندقية بعمل علاقات بحرية مباشرة مع ميناء بروجز قبل بداية القرن الرابع عشر . وحتى ذلك التاريخ فقد كانوا على اتصال بإيطاليا وجنوب فرنسا فقط بواسطة البحر . ومن ناحية أخرى ، كانت السفن الشمالية ، دائما ما تأتي الى بروجز وسرعان ما تجنب البحارة الاسكندنافيون ورود الى ميناء تايل Tiel بعدما تعودوا على ورودهم . وعندما تحولت سيادة بحر الشمال والبلطيق خلال القرن الثاني عشر الى المدن الألمانية ، أعطت نتيجة عودة النشاط دافعا جديدا لشراء بروجز (١) . ومن المحتمل جدا أن يكون انشاء مينائها الخارجي (دام) Damme قبل سنة ١١٨٠ ، ثم ميناء سليز Sluys عند مصب نهر زوين Zwyn ، قبل عام ١٢٩٣ ، لا يفسر على أنه نتيجة لتزايد تراكم الطمي عند ميناء بروجز ، ولكن بسبب أن المراكب الشراعية الاسكندنافية الخفيفة العدو حلت محل سفن الهائز الثقيلة (coggen) ، التي كانت تحتاج الى مرسى أعمق ، وكما كانت تحتاج الى مساحات أوسع في الميناء بسبب قدومها بأعداد متزايدة . ومنذ مجيء هذه المراكب يمكن أن نؤرخ التدهور النهائي لتجارة الفلاندرز البحرية ، التي لم تكن ، بالفعل ، كبيرة . ولقد أكمل اختفاؤها العمليات ، التي بواسطتها أصبحت بروجز ميناء سلبيا خالصا .

ولقد كان تطور صناعة الملابس في حوض الشيلد السبب الرئيسي الذي جعل الهائز يتركزون في بروجز ، شأنهم في ذلك شأن الايطاليين . ولكن بالنسبة للهائز ، فلقد كانت مزية وجودهم هم أنفسهم على اتصال مستمر مع الايطاليين كان من أقوى دوافع جذبهم لهذه المدينة . وسرعان ما قام كوثات الفلاندرز - دون دراية بمصالحهم - برعايتهم . ففي سنة ١٢٥٢ قامت الدوقه مارجريت ، بناء على طلب لوبيك Lubeck ، نيابة عن عدة مدن من مدن الامبراطورية ، بتعديل جمع المكوس عند دام Damme ومنذ النصف الثاني للقرن الثالث عشر ، فقد ظل الكونتور Kontor الذي جلبه الهائز الى بروجز أو الاسترليني ، أصبح وظل حتى نهاية العصور الوسطى أهم العملات التي كانت في حوزتهم خارج ألمانيا .

A. Bugge, Der Untergang der norwegischen Schifffahrt im (١)
Mittelalter, in Vierteljahrsschrift für Social und Wirtschaftsgeschichte, t. XII (1914), p. 92 et seq.

ولقد احتل الهانز البينوتون مركزا في شمال أوروبا مساويا لبقيس القدر الذي احتله الايطاليون في حوض البحر المتوسط . ومثلهم ، فقد خدم ذلك المركز الوساطة بين غرب أوروبا والشرق . لكن الشرق الايطالي كان مختلفا تماما عن الشرق الهانزي . ففي الأول ، أسس البينوتونيون والمسلمون تجارة قائمة على لوازم الثروة وصناعة متقنة قامت على مدى آلاف السنين من الحضارة . لكن الشرق الذي انطلق فيه الهانز في استغلال يعتمد على الأرض ، كانت الى عهد قريب مستعمرات يسكنها برابرة بدائيون ، كان عليهم أيضا أن يواجهوا في هذه البلاد شدة مناخ الشمال وقسوته ، وتربة لازالت في معظم أجزائها كانت مغطاة بالغابات وبحر جعل تلج الشتاء اجتيازه من الصعوبة بمكان . وعلى طول شواطئ المدن البلطية برزت مستعمرات جرمانية تقدمت وراء الألب . وتحت اغراء ليوبيك الشديدة ، بنيت على ضفاف التريف Trave مستعمرات ضمت اليها الجزر ومصبات النهر . وحوالي سنة ١١٦٠ ، بنيت ويزبي Wisby على جزيرة جوثلاند Gothland ، التي أخذت من الاسكندنافيين . وأسست روستوك Rostock حوالي سنة ١٢١٨ ، كذلك أسست سترالسوند Stralsund ودانزج Dantzig حوالي سنة ١٢٣٠ ، وأنشئت ويسمار Wismar حوالي سنة ١٢٦٩ . وظهرت ريجا Riga عند بداية القرن الثالث عشر ، بينما ظهرت دوربا Dorpat ما بين سنوات ١٢٢٤ ، و ١٢٥٠ ، وأخيرا ، وبعد حوالي عشرين عاما كان ظهور ريفال Reval . وهكذا ، فإن الطبقة الوسطى من التجار ركزوا أنفسهم على ساحل الأراضي السلافية واللتوانية والليتوانية حتى قبل أن تكتمل غزوتهم لها . ولم يكن فرسان النيوتون قد احتلوا كل بروسيا بعد أن أسسوا كونجزبرج Königsberg ، لكنهم كانوا على التوق قد وضعوا أساسات مدينة ايلبنج Elbing . ولقد وضعوا أقدامهم في نفس الوقت على ساحل السويد ، واستقروا في ستوكهولم وتملكوا مصايد سمك سردين شبه جزيرة سكانييا .

ولقد كان بعض أنواع اتفاقيات الحماية العامة ضرورية في هذه الموانئ المتقدمة التي كانت داخل أقطار لا تزال نصف مغلوبة وتقع على شواطئ البحر وقد طرد الاسكندنافيون منها حديثا ، واقتداء ببلويك الذي أنجز في حوالي سنة ١٢٣٠ معاهدة صداقة وحرية تجارة مع هامبورج ، اتحدت مدن البلطيق الصغرى في عصبة ، التي سرعان ما اتحدت مع موانئ بحر الشمال وصارت تعرف بالهانز ، وهو اسم استخدم بشيوع لاتحادات التجار . ولقد أعطاهم اتحاد المدن البحرية الألمانية ، الذي شكل تناقضا ملفتا لحروب المدن الايطالية على حوض البحر المتوسط المستثمرة ، الغلبة على كل مياه الشمال ، التي حافظوا عليها حتى نهاية العصور الوسطى .

وبسبب هذا الاتفاق ، نجحوا في تماسك أنفسهم ضد الهجمات التي قادها
ضدهم ملوك الدانمرك وفي تنمية مصالحهم الخاصة بالخارج .

ولقد كان ميزان لندن القبان هو أساس تجارة الهانز في غرب
أوروبا ، الذي تأسس في منتصف القرن الثاني عشر ، وفوق ذلك كله
كونتور Kontor بروجز . وفي الشرق ، كان لهم ميزان آخر في نوفجورود
Novgorod ، الذي بواسطته صرفوا تجارة روسيا . وعن طريق الويزر
Weser والألب والأودر انتشرت تجارتهم الى داخل ألمانيا ، وعن طريق
القسطنطينية سادوا بولندة ودفعوا عملياتهم الى حدود البلقان . ومن ناحية
أخرى ، فقد أغلق الطريق التجارى الكبير ، الذي بواسطته فى الماضى اتصل
البلطيق بالقسطنطينية وبغداد عبر روسيا ، حتى انشاء باتزيناكس
Patzinaks على شواطئ البحر الأسود وبحر قزوين فى القرن الثانى
عشر ، مما أعطى للبحر المتوسط احتكار العلاقات مع البيزنطيين والشرق
الاسلامى .

وفى تناقض ملفت للنظر مع الموانئ الإيطالية ، نجد أن صادرات
الهانز كانت من المحتمل أن تتكون من منتجات طبيعية ، التى كانت كل
ما تستطيع أن تقدمه المقاطعات الزراعية الخالصة النائية للتجارة . ويأتى
فى مقدمة تلك الحاصلات ، القمح من بروسيا ، والفراء والعسل من
روسيا ، والخشب ، والقطران ، والسمك المجفف والرنجة المملحة من
مصايد أسماك سكايا . ولكن اضافة الى ذلك فانهم أضافوا شحنات
الصوف التى جلبتها سفنهم من إنجلترا وملح بورجنيف Bourgneuf
« مفازة الملح » (Bay Salt) ، الذى حملوه فى خليج بسكاى ، حيث
حملوا من هنالك أيضا حمولات من النبيذ الفرنسى . وقد انجذبت كل
هذه الحركة التجارية حول بروجز ، التى كانت الحلقة الرئيسية لتجارة
الهانز ، فى منتصف الطريق بين البلطيق وخليج بسكاى حيث تتوقف
هنالك . ولقد كانت التوابل من إيطاليا والملابس من الفلاندرز وبارابانت
تعرض على التجار الألمان وتحمل بواسطتهم بعيدا حتى نوجورود وجنوب
بولندة . وفى كل المدن البحرية كدست هذه السلع وفى دكاكين الملابس
الراقية gewandschneider ، التى كانت تبسح الملابس للبرجوازيين
الأغنياء . وكان حجم تجارة الهانز بالتأكيد مساويا ان لم يكن يزيد على
حجم تجارة البحر المتوسط ، لكن من المؤكد أنها كانت تشتمل على رأس
مال أصغر من رأسمالها . ولم تكن قيمة بضائعها التى تعاملت معها تبسح
بالأرباح الكبيرة كتلك التى حققتها مبيعات التوابل ، فلقد كان الصرف
عليها كثيرا والعائد منها قليلا . ولذلك فليس من المستغرب ألا تقابل فى

مدن الهانز هذه البيوتات المالية القوية التي أعطت إيطاليا العصور الوسطى السيطرة المالية على أوروبا . ولقد كانت هناك هوة سحيقة بين البيوت التجارية مثل بيت باردى Bardi أو بيروزي Peruzzi والتجار الأثماء مثل وتنبرج فى ليوبيك وجيلديرنسين Geldernsen فى هامبورج أو تولير Tolmer فى روستوك . وهذا التناقض كان أيضا كبيرا بين التقنية التجارية المتقنة للأولى وطرق الأخيرة الساذجة .

ولم تحرز أى منطقة أخرى فى ألمانيا نفس درجة حيوية الهانز الاقتصادية . وفى القرن الثالث عشر أخذت المدن البحرية أولوية مدن الراين ، التى أدخلت الحضارة المدنية الى الامبراطورية . وكانت كرونيان التى ظلت تحت حكم الهوهينشوفين Hohenstaufen صوب ألمانيا الأكبر ، قد تغلبت عليها ليوبيك منذ حوالى سنة ١٢٥٠ ، ولكن لما كان الراين أحد الطرق الرئيسية ما بين إيطاليا والأراضى المنخفضة ، كما فعلت أوترخت فى اتجاه النهر ومينز وسبايرز وورمز وستراسبورج وبازيل أعلى النهر . وكان هنالك تصدير ملحوظ للنبيذ من كروم الراين والموزل وصناعة مزدهرة فى كل المراكز الرئيسية ، لذلك كانت هذه المنطقة آنذاك منطقة محيط الأنظار .

أما عن جنوب ألمانيا ، فبرغم أنه كانت له صلاته مع تجارة البحر المتوسط من خلال البندقية ، لكنه كان لا يزال بعيدا للغاية عن الازدهار الذى بلغه عند نهاية العصور الوسطى . فان فندق دى تيدشى Fondaco dei Tedeschi ، الذى أقامه التجار الألمان فى مدينة البحيرات ، لا يمكن أن يقارن بأية حال من الأحوال بكنة الهانز القوى فى بروجز . وكان العمل فى مناجم التيرول وبوهيميا قد بدأ فى التو ، والتجارة فى ملح سالزكاميرجور Salzkammergut ولونبورج Luneburg كان لا يمكن أن يدخل فى منافسة مع ملح بورجنيف Bourgneuf الذى كان يحمل بحرا الى كل مكان . ولقد ظل المنفذ العظيم الذى فتحه الدانوب فى البحر الأسود غير مستعمل ، ويخدم فقط الترانزيت بين بافاريا والنمسا عن طريق أوكسبرج ، ريمينسبرج وفيينا ، لأن عدم ظهور دولة المجر واضطرابات البلقان التى لا تتوقف قد منعتا كل حركة تجارية له عند معجراه الأدنى . زيادة على ذلك ، فان تقسيمات ألمانيا السياسية الكثيرة ، وضعف الإباطرة ، وصراعات الأسر الحاكمة المنافسة ، كانت كلها عوامل غير موافقة لنمو النشاط الاقتصادى . وليس هذا بمقام تسبب فيه الحديث عن الفوائد التى حصلت عليها إيطاليا بسبب حضارتها المتقدمة وموقعها الجغرافى الذى مكن داخل بلادها فى كل مكان من الاتصال بالبحر بسهولة .

أما إنجلترا ، فهي وحدها التي كانت في أوروبا لها حكومة قومية
مكنتها من فرض سيطرتها على كل أطراف القطر ، بدون مواجهة عقبة أمراء
الاقطاع ، وتمتعت بنظام اقتصادي عال بالنسبة لكل ولايات الفارة
الأوربية . لكن صناعيتها . وكذلك تجارتها لم تستفد من هذه الظروف المواتية .
وحتى منتصف القرن الرابع عشر ، ظلت قطرا زراعيا رئيسيا . وباستثناء
لندن ، التي تردد على مينائها تجار من القارة منذ القرن الحادي عشر ،
فان كل المدن قبل حكم ادوارد الثالث كانت قانعة بالانتاج المحدود لمطالب
مواطنيها ومطالب الريف المحيط بها . باستثناء ستراتفورد خلال خمسينات
القرن الثالث عشر ، فلقد كانوا ينتجون صوفا جيدا منتجا في المملكة كان
ضروريا لاستهلاكهم الخاص ، ولزبائنهم المحليين . ويوجد سبب هذا
الشذوذ الواضح في تقدم الغلمنكيين غير العادي في صنع الملابس منذ
العصور الوسطى المبكرة . وبسبب تفوق جيرانهم في الأراضي المنخفضة
عليهم في ذلك المجال . اكتفى الانجليز بمدهم بالمادة الخام . فلقد كانوا
لصناعة الملابس الغلمنكية مثل جمهورية الأرجنتين واستراليا لصناعة
الملابس في أوربا وأمريكا اليوم . وبدلا من المنافسة معهم ، كرسوا
أنفسهم لانتاج المزيد والمزيد من الصوف ، حيث كان يجد سوقا لبيعه
دائمة . ولقد أصبحت مواقع أديرة إنجلترا المكان المفضل لمراعي الفلاحين .
وتسببت تجارة الصوف في ازدهار سوق سانت ايف St. Ives
على الأوز Ouse ، وسوق سان جيلز St. Giles في ونشستر Winchester
وستوربريدج Stourbridge ، وسوق سان بوتولف St. Botolph
في بوسطون ، ووستمنستر ، ونورثامبتون وبريستول ، بينما ، في
نفس الوقت ، قدم للتاج جزءا كبيرا من دخله وأدى الى نشاط متجدد
زائد في المواني (١) .

لكن ، الشيء الذي يبدو غربيا ، هو أن السفن الانجليزية لم تكن تنقل
منتجاتها الصوفية . وفي البداية ، كانت أصوافهم تحمل على سفن أوربية
ومنذ القرن الثالث عشر صار نقلها احتكارا على الهانزاتيوتون . ولم يبدل
ملوك إنجلترا أي محاولة لترقية نقل تجارة سلعهم قبل نهاية العصور
الوسطى (٢) . بل على العكس من ذلك ، فلقد أظهروا رغبتهم الثابتة في

(١) A Schaubhe Die wollaussuhr Englands vom Jahre 1273, in
Vierteljahr-ift für Social — und Wirtschaft — Sgeschichte, t. VI,
(1908).

(٢) في سنة ١٢٨١ ، صدر مرسوم يقصر تجارة الملكة على السفن الانجليزية .
لكن وجد انه من المستحيل تنفيذه ، وانه من الضروري العودة لما سبق . هو النقل على
سفن الهانز . ومع ذلك ، يجب أن يعتبر مرسوم ١٢٨١ كبداية سياسة جديدة ، تلزم
بتدخل الدولة في الاقتصاد . انظر : سالتر في :
F. R. Salter
The Economic History Review (1931), p. 92.

جذب التجار الأجانب الى شواطئهم ، بمنحهم كل أنواع التسهيلات . ولقد كانت دوافع سياستهم أساسا بوضوح ، دوافع مالية ، لأنه دخلهم كان يعتمد على الضرائب المحصلة من التجارة الخارجية ومن السلفيات التي حصل عليها التاج من الرأسمالية التي تأسست في لندن . ومع القرن الثالث عشر توافد الايطاليون الى هناك بأعداد كبيرة ، وقاموا جنبا الى جنب ، بعمليات مالية واتجار في الصوف ، الذي باعوه في الفلاندرز ، أو أخذوه مباشرة الى مراكز صناعة الملابس وراء الألب ، وبخاصة الى فلورنسا .

وكان الشكل الاقتصادي لفرنسا أكثر تعقيدا منه لانجلترا . ولقد كانت فرنسا دون جدال وحدة اقتصادية متكاملة قبل نهاية العصور الوسطى . وكانت تتكون من عدد معين من الأقاليم المتجاورة ، التي ليس ما بينها وبين بعضها من علاقة بآكثر مما بينها وبين الأقاليم الأجنبية . ففي الجنوب ، مونتبلييه ، وايجوسمورت ونارون في لانجيدوك Languedoc وفوق كل ذلك ، مرسيليا في اقليم البروفانس ، التي لعبت دورها في تجارة البحر المتوسط والتي في خلال القرن الثالث عشر قامت بتصدير فعل للمبوسات الفلاندرز واستيراد التوابل . ولكن قرب نهاية القرن ، قل فشل حملة القديس الصليبية ومنافسة جنوة لها من انتعاشها ، الذي لم تستعده حتى القرن السابع عشر . ومنذ ذلك الوقت كانت تجارة مرسيليا محصورة عند جنوب فرنسا . ولقد كان تدهورها معاصرا ، تقريبا ، لتدهور أسواق شمبانيا ، والتي ، كما رأينا ، كانت منذ بداية القرن الثاني عشر المركز التجاري الكبير لأوروبا . ولقد استغدت باريس كثيرا من هذا التدهور ، وصارت هي وبروجن المكان الرئيسي للبيوت التجارية الايطالية شمال الألب . وهناك تعرفرا على صناعة الحرير وكرسوا أنفسهم أساسا للأعمال المصرفية . لكن الدور الذي لعبته باريس في تاريخ العصور الوسطى الاقتصادي ليس له صلة بمقام الحضارة الفرنسية وبسيادة فرنسا السياسية في بداية حكم فيليب - أغسطس . وهي كمدينة عالمية بسبب جامعتها ، لم تكن عالمية في تجارتها أو صناعاتها . ولم تجتذب أى أجانب سوى الايطاليين وبعض البزازين من الأراضي المنخفضة ، وبرغم سرعة تزايد عدد سكانها ، فإن ذلك أساسا يعود الى وجود البلاط بها وبتقدم السياسة المركزية . وإن عدد ال ٢٨٢ سلعة التي وجدت بها عند نهاية القرن الثالث عشر (١) كانت قد جلبت على يد عدد

(١) مجموع هذه السلع ال ٢٨٢ سلعة مختلفة قد أخذ من قائمة أعدما :
G. Fagniez, Etude sur l'industrie et la classe industrielle à
Paris au XIII^e et au XIV^e siècle, p. 7 et seq. (Paris, 1877).

محدودا منها المتكرر كذلك الخدم والوصيفات .

قليل من الدكاكين ، كانت تمد المدينة بما تحتاجه ، دون محاولة أن يتوسعوا مع السوق الخارجى . ومن وجهة النظر الصناعية ، لم تكن فرنسا دولة مصدرة للمصنوعات مثلما كان الحال بالنسبة لإيطاليا ولأراضي المنخفضة . ولقد نشر معماريوها ونحاتوها فنهم فى أوروبا ، لكن تقصيرها فى الدور الذى لعبته فى التجارة العالمية يرجع فقط الى استغنائها عنه بسبب وفرة غناها الطبيعى .

وبين تلك السلع ، احتل النبيذ ، دون شك ، المكان الأول . وإنه من المثير للدهشة والمؤسف حقا أن لا يدرس موضوع الكروم وتجارة النبيذ دراسة بطريقة تتوافق مع أهميتهما (١) . وإن الدور الذى لعبه النبيذ فى وجبة أهالى البلاد الذين لا ينتجون النبيذ تبدو كبيرة الأهمية فى العصور الوسطى عما هى عليه فى وقتنا الحاضر . وفى إنجلترا ، وألمانيا ، والأراضي المنخفضة خاصة ، كان عادة مشروب الطبقة الغنية . وفى غيننت ، كان الكييور Keure هم الذين يمثلون الطبقة البرجوازية ويشربون النبيذ الفرنسى (٢) فى القرن الثالث عشر ، طالما أن النبيذ الايطالى كان لا يصلهم وإن إنتاج الراين والموزيل كان محدودا . ولقد حقق النبيذ الفرنسى من القرن الثالث عشر سيادة لا تحتل الشك فى التجارة العالمية للأقطار الشمالية . ولقد بدا أن نبيذ وادى السين وبرجانديا كان يصدر فقط على سفن روان ، لكن نبيذ بوردو ، بسبب وفرة ، ونوعيته الجيدة وحقيقة أنها قريبة من البحر مما جعل تصديره سهلا ، أصبح متزايدا الشهرة حين بدأت حركة النهضة الاقتصادية فى القرن الثانى عشر . ومن مرسى أورليان وميناء لاروشيل (التى نسب إليها نبيذ لاروشيل) ، الذى عرف به فى التجارة ، قامت سفن جاسكون ، وبريتون والسفن الانجليزية ، فى المقسمة " منذ منتصف القرن الرابع عشر ، وقد حمله الهانز الى بحر الشمال والى أقاصى بحر البلطيق . ولقد نفذ الى داخل أوروبا بواسطة النهر . وفى لياج Liège ، عند بداية القرن الرابع عشر ، وصلت كميات منه هناك وبيعت بأسعار أرخص من أسعار نبيذ ألمانيا ، رغم بعد المسافة (٣) . وفى إنجلترا " كانت غنة قونيا تعتمد عليه حتى منتصف القرن الخامس عشر ، وزودهم النبيذ بسوق دائم

H. Pirenne, Un grand commerce d'exportation au Moyen Age : les vins de France, in Annales d'histoire economique et sociale, 1933, p. 225 et seq. — Z.W. Sneiler Wynvart en Wynh and el tusschen Frankryk en de Noordelike Nederlanden in de tweede sociale. 1933, p. 225 et seq. Z.W. Sneller, Wynvart en Wynhandel heft der XVeeuw, in Bydragen voor Vaderl geschiedenis (1924). Warnkoenig — Gheldolf, Hist, de la Flandre, etc., t. III, p. 284. (١) (٢)

Hocsem, Gesfa episcoporum, ed. G. Kurth, p. 252.

مفتوح • ولقد أرسست تجارة النبيذ أساس ثروات معتبرة ، وحتى اليوم فان اشراف الانجليز ونبلاءهم مازالوا يضمون بينهم عائلات تدين بارتفاعها له (١) • ولقد كانت تجارة نبيذ بورديو المحمولة مهمة جدا ، لدرجة ان العرف التجاري في سفن النبيذ أدى الى نشأة قانون شمال أوروبا البحري • وقد تكونت قوائم أوليرون *Rolls of Oléron* ، المصاغة حوالى نهاية القرن الثانى عشر ، من « أحكام » تتصل بسفن النبيذ ، وقد ترجمت هذه الأحكام ، منذ وقت مبكر ، الى الفلمنكية فى دام *Damme* ومنها انتشرت الى انجلترا حتى البلطيق ، حيث عرفت هنالك بقوانين وسبى البحرية الى *Sea Laws of Wisby* (٢) •

وبسبب مصادفة جغرافية سعيدة الحظ ، كانت مناجم ملح بورجنيف *Bourgneuf* ملاصقة تماما للاورشيل ، حتى ان تجار السفن كانوا يستطيعون ان يحملوا النبيذ والملح فى وقت واحد • وفى خلال القرن الرابع عشر ، صدرت سفن الهانز كرهيات كبيرة من ملح المفازات الى ساحل سكاانيا *Skaania* ، حيث تقدمت هنالك عملية صيد أسماك الرنجة • وحتى فى ألمانيا سرعان ما نجحت منافستها فى ذلك مع لونبورج وسالزبورج (٣) •

جنبا الى جنب مع النبيذ والملح ، صدرت فرنسا الغلال من منطقة ارتوا *Artois* ونورمانديا • وكانت النيله ، التى سميت فى العصور الوسطى « خضاب العصور الوسطى » ، تزرع فى بيكاردي *Picardy* ، حيث وصلت تجارتها الى أميان *Amiens* ولانجيدوك *Languedoc* ، حيث أسهمت بشكل واسع فى ازدهار تولوز ، وجدت سوقا جاهزا لها فى مصانع ملابس الفلمنكيين والايطاليين •

وهكذا فان فرنسا العصور الوسطى ككل كان لها نفس طابع فرنسا اليوم وكانت صناعتها تكفيها وتكفى احتياجاتها ، ما عدا القليل من المنتجات الكمالية ، مثل الاوانى المطلية بالميلا ، فقد كان نصيبها قليلا

(١) على سبيل المثال دوقات بدفورد ، انظر :

G. Scott Thomson, Two Centuries of Family History (London, 1930).

(٢)

Th. Kiesselbach, Der Ursprung der rôle d'Oléron und des Seerchels von Damme, in *Hansische Geschichtsblätter*, 1906, p. I et seq.

A. Agais, Der hansische Baienhandel (Heidelberg, 1908).

(٣)

Cf. H. Hau er, Le sel dans l'histoire, in *Revue économique internationale* (1927).

في التجارة العالمية . ولقد كانت تجارة ملابس المدن الشمالية ، حقيقة ، نشطة للغاية طالما كانت أسواق شمبانيا مزدهرة ، لكن بعد تدهورها أخذت منتجات الغلاندرز والبرابانت مكانها فيها . وظلت تورنساي في أقصى شمال المملكة وفالينسيا Valenciennes (التي ، مع ذلك ، تنتمي الى الامبراطورية) ظلتا بالتأكيد مراكز للملابس من الدرجة الأولى ، ولكنهما اتجهتا نحو بروجن وانتمتا لاقتصاد الأراضي المنخفضة المركزي . وتكونت ثروة فرنسا ، فوق كل شيء ، من وفرة ، وتنوع وتميز منتجات تربتها . وقد جعلها نبيلها على الخصوص ، الذي كان لابد من ظهوره على كل موائد المقتسدين جنبا الى جنب مع التوابل ، جعلها ، هي وايطاليا ، المتعهدين الوحيدين لتوريد الطعام الفاخر لأوروبا . لكن يجب أن يلاحظ أن فرنسا على النقيض من ايطاليا لم تصدر بنفسها السلع التي كانت تنتجها للتجارة . وباستثناء سفن مرسيليا وموانئ البروفنس ، التي شاركت بنصيب فعال في تجارة البحر المتوسط ، يمكن القول انها لم يكن لها أسطول تجاري . ولقد تنازلت عن الملاحة في سواحل خليج غسقونيا ، وفي القنال وبحر الشمال تماما للأجانب ، من الباسك ، والبريتون ، والأسبانيارد ، والهانز . ولكن برغم أنه لم يكن عند فرنسا آنذاك تجارة كبرى ولا صناعة مربحة ، فانها تمتعت بما عوضها عن ذلك ، حتى كارثة حرب المائة عام ، بالرخاء والاقتصاد الثابت الذي لا يوجد في مكان آخر ، والذي بدون شك كان له نصيب في ازدهار وتآلق الحضارة الفرنسية في القرن الثالث عشر (١) .

وبمجرد ما طردت مملكة الأسبان الفاتحين العرب لبلادهم بدأت تلعب دورا كبيرا متزايدا في التاريخ الاقتصادي . ولقد عرفت برشلونة في اقليم أراجون منذ القرن الثالث عشر بروجها الجريئة وبملاحيتها الشجعان . ويرجع الفضل لليهود الذين بقوا في أسبانيا بعد (التحرير) ، والذين كانت لديهم مبالغ كافية للقيام بالتجارة البحرية ، والذين سرعان ما تعلموا فن ايطاليا التجاري . وبأدى الأمر ، مثلما فعل البنادقة في الماضي ، انغمست برشلونة في تجارة الرقيق ، لأن الحرب مع المسلمين زودتهم بعدد كاف من أسراهم من البربر . ومن الطبيعي أن تعطى وساطة ملوك أرجون في صقلية باعثا جديدا لعلاقاتها بهذا القطر (٢) ، بينما حركت

(١) وفقا لما أورده لوت : F. Lot, L'état des paroisses et de feuxde 1328, in Bibliothèque de l'Ecole des Charets, t. xc (1929), p. 405.
فإن سكان فرنسا (داخل حدودها الحالية) وصلت سنة ١٣٢٨ الى أعلى رقم سكاني وهو ٢٣ - ٢٤ مليون نسمة .

(٢) انظر مقال Sayous ، الوارد في قائمة المصادر ، ص ١١٨ ، حاشية ١ .

حملات الكتلان المخاطرة الى بلاد اليونان ، وبعد ذلك بقليل الى جزر بحر ايجه ، بالمثل مع التجارة مع الشرق ، حيث قام مواطنو برشاونة بالحرب والتجارة في وقت واحد . ومنذ بداية القرن الرابع عشر خاشرت سفنهم بالنزول الى أسفل جبل طارق . وعند بروجز التقوا بسفن غاليسيا والبرتغال ، التي سارت على الساحل التجارى وحملت التجارة على سواطى الأطلنطى ، مصدرة المعادن بصفة أساسية والأصواف الأسبانية التي حلت مكان الأصواف الانجليزية في مصانع الأراضى المنخفضة عند نهاية العصور الوسطى .

وإذا ما وضعنا في اعتبارنا السلع التي غدت التجارة العالمية في العصور الوسطى ، نلاحظ أن المنتجات الصناعية كانت قليلة بشكل كبير من المنتجات الزراعية والامدادات الغذائية ، والتوابل ، والنبيد ، والقمح ، والملح والسبك والأصواف . وفقط الملابس المصنوعة ، أولا تلك التي كانت للأراضى المنخفضة ومؤخرا تلك التي كانت لفلورنسا ، هي التي كان لها نصيب كبير في التصدير التجارى . ولقد كان استيراد المنسوجات الحريرية والمواد الكمالية في ايطاليا محدودا بالنسبة لكل فروع الصناعة (الألوانى ، الأثاث ، الأحذية ، الملابس ، الآلات والأدوات بمختلف أنواعها) وظل داخل حدود المدن وكان احتكارا لصانعيهم ، ولا يغنى الا السوق المحلي .

ولكن هنالك استثناءات قليلة ممكن أن نشير اليها . ففي ألمانيا ، في هيلديشيم Hildesheim ونورمبرج ، في وادى الميز ، وفي هاى Huy وقبل ذلك في ديناانت Dinant ، تقدمت الصناعة المعدنية الى حد المساهمة في التجارة العالمية . ولقد تمتعت مصنوعات ديناانت النحاسية ، المعروفة بدينااندريس Dinanderies بشهرة أوروبية . ومع ذلك ، فإن أحد أكبر التناقضات بين اقتصاد العالم الحديث واقتصاد العصور الوسطى يوجد في التطور الأساسى في صناعة استخراج المعادن في العصور الوسطى . ولقد كان عمال المناجم في التيرول ، وبوهيميا وكارنيثيا ليس بأقل من مجرد فلاحين ملتصقين بجبل ويعملون بأكثر الطرق بدائية . وليس قبل القرن الخامس عشر قام الرأسماليون للمدن المجاورة لهم بفرض سيطرتهم عليهم وبتطوير العمل في المناجم ، التي كانت حتى ذلك الوقت لازالت قليلة القيمة . كذلك كانت العناية قليلة حتى ذلك الوقت في صناعة استخراج الفحم ، برغم أنه الفحم كان يستخدم عند جيرانهم في لبيع من نهاية القرن الثانى عشر ، وفي القرن التالى اكتسب عمال المناجم في لبيع مهارة ملحوظة في فن التنقيب في باطن الأرض ، وفي حفر آبار المناجم ونزح المياه من الحفر . ولكن لعدة قرون استخدمت الأرض السوداء (الفحم) terra nigra فقط لأعمال منزلية في المناطق التي كان بها

الكثير منها (١) . وليس قبل القرن الثامن عشر حين زاد الطلب عليه في صهر الحديد ، ليفتح بذلك مرحلة جديدة في التاريخ الاقتصادي .

وفي خلال القرن الثالث عشر ، انفتحت كل أوروبا من البحر المتوسط الى البلطيق ومن الأطلنطي حتى روسيا على التجارة العالمية . ومن مركزها الرئيسيين ، الأراضي المنخفضة في الشمال وإيطاليا في الجنوب ، وصلت الى سواحل البحر ، ومنه تقدمت باضطراد داخل القارة الأوروبية . وفي مواجهة كل الصعاب التي كان عليها التغلب عليها " من ظروف التداول والتوزيع التي كانت في حالة يرثى لها ، ووسائل النقل غير الوافية للغرض ، وعدم الأمان العام وعدم كفاية نظام التداول النقدي ، لا يسعنا الا أن نعجب بعظم النتائج المتحصل عليها . ولقد كانت كل هذه الصعاب مدركة لان الحكومات لم تفعل شيئا من أجل التجار سوى حمايتهم لدوافع مالية . ولا يوضح التقدم الذي أنجز في مجال التجارة العالمية سوى نشاط التجار أنفسهم وروحهم العالية وبراعتهم . ولقد تعلم الايطاليون ، الذين كانوا الرواد في هذا المجال لأوروبا ، دون شك الكثير من البيزنطيين والمسلمين ، الذين كانوا أكثر حضارة منهم وكان لحضارتهم المتقدمة النفوذ عليهم مثلما كان لحضارة مصر وفارس النفوذ على بلاد اليونان القديمة . ولكنهم ، مثل الاغريق ، الذين تماثلوا أيضا في صراعاتهم الداخلية العنيف ، سرعان ما استوعبوا وارتفوا بما استعادوه منهم . فأسسوا مجتمعات تجارية ، وأنشأوا مصارف ، وأصلحوا العملة . ولقد كان انتشار أساليبهم الاقتصادية في شمال أوروبا مثيرا للاعجاب مثلما فعلت الحركة الانسانية humanism في القرنين الخامس عشر والسادس عشر .

وفي الختام ، يحب المرء أن يتمكن ، ببعض التدقيق ، من تقدير حجم هذه التجارة العالمية ، الذي نستطيع من خلاله رسم الخواص الرئيسية لها (٢) . ولسوء الحظ فان ندرة معلوماتنا في هذا الخصوص أجبرتنا على أن نفقد الأمل في الوصول الى مثل هذا التقدير . ولقارنة هذه التجارة بالتجارة الحديثة ، يكون ذلك ، بالطبع ، من أعمال العبث . وليست هنالك مقارنة ممكنة بين تجارة العالم العالمية اليوم ، التي تحت يديها كل وسائل العلم الحديثة ميسرة ، وتلك التي كانت في العصور الوسطى " المحدودة في

(١) وكان ذلك في غياب أعمال مناجم الفحم في العصور الوسطى ، في ذلك عهد

الرجوع الى :

J. A. Nef, The Rise of the British Coal Industry, 2 vols, (London, 1932).

(٢) بصدد هذا ، انظر : Kulischer. Op. cit., t. I, p. 263 et seq.

غرب أوروبا والتي استخدمت فقط الأساليب البدائية • وعملاء الأولى كانوا يعدون بالآلاف ، بينما عملاء الأخيرة بعشرات الملايين ، وحمولة سفينة واحدة من سفن القرن العشرين مساوية لحمولة كل سفن البنادقة والجنوبيين في القرن الثالث عشر • ولا شيء نستطيع أن نحزره بمحاولة تقدير أهميته تجارة العصور الوسطى بالنسبة للتجارة العالمية القريبة منها في القرن الخامس عشر • ورغم أن الفرق الملحوظ قليل ، لكنه لا زال معتبرا ، على الأقل بسبب كشف جزر الانديز وأمريكا • ولقد ظن أن تجارة العصور الوسطى ، قياسا لتجارة القرن السادس عشر أو السابع عشر بنسبة خمسة الى واحد ، لكن مع غياب الأرقام تكون المقارنة ليست ذات معنى • كل ما نحتاج اليه هو احصائيات هذه التجارة ، وهذه لا يمكن تخمين تقديرها • كل ما نستطيع أن نقوله ان حجم تجارة العصور الوسطى قد توافقت مع النشاط الإقتصادي الذي شهدت عظمته بشكل كاف موانئ : الهندية ، وجنوة • وبروجز ، والمستعمرات الإيطالية في الشرق • وسفن مدن الهانز ، وتقدم وازدهار أسواق شمبانيا •

٢ - خاصية رأسمالية التجارة العالمية (١)

لقد دافع الاقتصاديون ، الذين أكدوا قلة قيمة تجارة العصور الوسطى ناظرين اليها من الزاوية الخاطئة على ضوء القرن العشرين ، عن رأيهم مستشهدين في ذلك بغياب طبقة التجار الرأسمالية في أوروبا قبل عصر النهضة • وربما عمل هؤلاء الاقتصاديون استثناء لصالح بيوت المال الإيطالية القليلة التي قامت آنذاك ، لكن ذلك الاستثناء هو الذي أثبت حقيقة وجود الرأسمالية التجارية • ولقد تأكد بالبحث أن التبرصيف الحقيقي لتاجر العصور الوسطى " من أنه تاجر صغير ، كل همه كسب معاشه ، وليست لديه طموحات للغنى أو الرغبة في إثراء نفسه • وهذه الحقيقة لا يمكن انكارها ويؤكدنا وجود أعداد من البائعين بالتجزئة من هذا النوع بين بورجوازية المدن الصغيرة ، وسيكون غريبا أن نلقل من

Bibliography. G. von Below, Grosshandler und Kleinhandler (١) imdeutschen Mittelalter, in Probleme der Wirtschaftsgeschichte (Tübingen, 2nd ed., 1926). F. Keutgen, Der Grosshandel im Mittelalter, in Hansische Geschichte shlatte (1901). H. Siveking, Die Kapitalistische Entwicklung in den italienischen Städten des Mittelalters, in Viertel schrift für Social und Wirtschaftsgeschichte, t. VII (1909). J. Strieder, Studien zur Geschichte Kapitalistischer Organisations formen (Munich, 2nd ed., 1925). G. Luzzatto, Piccoli e grandi mercanti nella città italiane del Rinascimento, in Volume commemorativo in onore del prof. Giuseppe Prato (Turin, 1930). W. Sombart, Kapitalismus, see p. ix. H. Pirenne, Les étapes de l'histoire sociale du capitalisme, in Bulletin de la classe des lettres de l'Académie royale de Belgique, 1914.

شأن المصاردين والصيارفة ، الذين وصفنا عملياتهم وحددنا مستواهم .
ولا ينكر أهمية نفوذ الرأسمالية التجارية منذ بداية حركة النهضة
الاقتصادية الا أولئك الذين تحجب أنظارهم نظريات مسبقة تماما .

وبالطبع فإن الرأسمالية والتجارة الواسعة النطاق ، التي لا تعرف
اسبابها ، ونتائجها في الحال ، لا تظهر في نفس التاريخ في كل الأقطار
ولا تنمو في كل مكان بنفس القوة والنشاط . وفي هذه الحالة ، تتقدم
ألمانيا وراء الراين دون تساؤل غرب أوروبا ، ولا تسبقها في ذلك الا إيطاليا .
وليس هنالك شك اذا ما وضعنا خارج الاعتبار أن كثيرا جدا من الدارسين
الألمان قد عمموا ، دون تمحيص ، النتائج الخاصة بهذا الأمر والتي كان
بها جانب من الصحة في الماضي . وقد كان الاهتمام الأول لهم وراء
أعمالهم هو قبول هذه التعميمات ، حتى لوحظ أنه لكي نصحيح تجاوزاتهم
هذه أنه من الضروري علينا أن نطبق نفس الأساليب التي طبقت مع الأقطار
التي كان التقدم فيها أسرع منه في ألمانيا والتي حقق فيها الاقتصاد الوسيط
أقصى تقدم له - ولقلة ما ذكرته مصادر العصور الوسطى عن الرأسمالية
في القرن الثاني عشر صار لذلك وجود الرأسمالية محل شك (١) . ومنذ
ذلك الوقت أحرزت التجارة ذات المسافات البعيدة دون ريب ثروات
ملحوظة . ولقد سبق أن ذكرنا في هذا الخصوص قضية جودريك Godric
وقد كانت الروح التي زرعت فيه النشاط روح الرأسمالية في كل العصور .
لقد تعقل ، وحسب حساباته وكان هدفه الأوحده هو جمع الأرباح (٢) .
وقد كانت هذه ، مع ذلك ، خصائص الرأسمالية الأساسية ، التي تعتبرها
بعض مدارس المؤرخين سرا غامضا ، لكن مع ذلك ، نجد درجات الرقي
تختلف أساسا في كل الفترات بعضها عن بعض وذلك يتناسب مع فطرة
الإنسان المكتسبة . ولا يمكن أن يكون جودريك في هذا الأمر استثناء .
وان الصدفة هي وجدها التي أظهرت لنا قصة هذا الاسكتلندي ، وربما نتاح
لنا فرصة أخرى تكشف عن بنادقة أو جنوين قاموا بما قام بين وتبين لنا
نفس التسهيلات التي انتشرت في بيئته على نحو استثنائي صالحة
لانتشارها . والأهمية الحقيقية في موضوع جودريك تنحصر في نفسيته ،
التي كانت تحمل روح مفامرة تجار عصره (كما تقرر ذلك في ترجمة
حياته) . ولقد كان من طراز أولئك الأثرياء الجدد الذين أثرتهم التجارة ،
أول الأمر على سواحل البحر وانتشروا بأعداد متزايدة داخل القارة . ولقد
وجدنا عددا كبيرا منهم مائلا في كل من إيطاليا والفلاندرز قبل نهاية القرن

(١) انظر ما سبق من ٤٧ وما بعدها .

The Libellus, p. 47.

(٢)

الثاني عشر (١) ، ولم يكن هنالك حينئذ اثبات ملفت للنظر لأهمية
الرأسمالية التجارية في ذلك التاريخ ، وكل ما نتذكر وجوده فقط قلة
من الوكلاء الممثلين للتجار المعروفين لنا .

وكما سبق أن بينا ، فإن هؤلاء الرأسماليين ، والجانب الأعظم منهم ،
قد انبثقوا من حشالة المجتمع ، *déracines* من القاع ، وهم الذين به مجرد
أن انتعشت التجارة سارعوا إليها دون أن يكون في حوزتهم ممتلكات سوى
نشاطهم وذكائهم ، وحبهم للمغامرة ، وكذلك روح الاقدام . وبمساعدة
الحظ ، كون الكثير منهم الثروات وجمعها كما فعل كثير من المستعمرين
وقطاع الطريق نفس الشيء في القرنين السابع عشر والثامن عشر . ولم
يكن هنالك في الأسواق المحلية أكثر من هؤلاء المغامرين البائعين بالتجزئة .
ولقد كان الهدف الوحيد لتنظيمات تجار العصور الأولى ، التي
تجمعوا فيها ، هو الوفاء باحتياجات التجارة الطويلة المسافة . ومنذ
البداية كانت أرباح هذه التجارة بالتأكيد ملحوظة تماما . وقد كان بيع
كمية من التوابل بمئات قليلة من الجنيهات أو بيع كمية قليلة من الملابس
الجيدة كان مبلغا مربحا ، ولم تكن في بيع هذه الأشياء أدنى منافسة أو سعر
محدد في السوق ، في الوقت الذي كان الطلب على القديم كان أكثر من
المعروض . في هذه الظروف ، فإن تكلفة النقل والمكوس الكثيرة ، مهما
كانت مرتفعة ، لم تمنع حقيقة الأرباح المعقولة . ولكي تصير غنيا ، فكل
ما يهم هو أن تكون شركة مع رفاق عازمين على أخذك معهم في طريقهم إلى
البلاد التي تنتج سلع التصدير رخيصة ، ثم تأخذ هذه السلع لتبيعها في
أماكن البيع . والمجاعات ، التي كانت مرضا متوطنا في منطقة وأحيانا في
منطقة أخرى ، هي أيضا تتيح فرصة مؤكدة بكسب مبالغ كبيرة من بضائع
قليلة (١) فالناس الذين يموتون من الجوع لا يساومون على جوال من
القمح والتجار لا يضعون أثناءها خسارتهم في الحسبان (٢) . ومنذ بداية
القرن الثاني عشر لا تترك المصادر شكاً لنشاط هؤلاء البائعين بالتجزئة
في جمع الحبوب في أوقات الشدة .

وللاستفادة من الفرص العديدة التي قدمتها التجارة في تلك الفترة ،
لم يكن المطلوب شيئا سوى الرغبة في العمل ، مدعومة بالنشاط والذكاء .
وليس هنالك مبرر في الاعتقاد بأن رواد تجار العصور الوسطى الكبار

F. Gurschman, Hungersnote im Mittelalter, p. 132 et seq. (١)
(Leipzig, 1900).

(٢) انظر الجملة عن البضائع والتي وردت في النقطة السابقة ، صفحات ١٦٢ -
١٦٤ ، حاشية رقم ٢ .

بدءوا حياتهم معتمدين على أنفسهم . ويجب أن نكف عن التفكير من أنهم كانوا ملاك أراضى خاطروا بمدخراتهم فى التجارة ، أو باعوا أراضيتهم من أجل أن يكونوا رأسمالهم الأولى . ولقد بنى معظمهم رأسماله الأول باشتغالهم كبحارة ، أو عاملين فى الميناء ، أو مساعدين فى القوافل التجارية . وربما اشتغل بعضهم بالاقتراض ، فاقترضوا قليلا من المال من بعض الأديرة أو اللوردات الذين فى جوارهم . والبعض الآخر ، ربما يلبأ كأجراء مرتزقة تم وضعوا فى التجارة ما تحصلوا عليه من السلب والنهب . وتقدم لنا قصص الثروات الكبرى فى أيامنا هذه أمثلة كثيرة عن الدور الذى لعبه الحظ فى بداية تكوينها ، مما يجعلنا أن نقول باطمئنان ان نفس الشيء قد حدث فى عصر كانت الحياة الاجتماعية فيه تدين بشئ كبير لتدخل الحظ فيها . وعلى سبيل المثال ، فإن كونسيدير كان مثالا للشراء الذى تحقق بفعل حملات القرصنة التى قام بها أسلاف تجار بيزا وجنوة . وأخيرا ، فإن التفوق يجب أن يحسب للدور الكبير الذى لعبه التضامن فى تكوين هذا الرأسمال التجارى المبكر . وفى هذه المؤسسات كان البيع والشراء يتم على المشاع وفى الموانى وكانت السفن قد رخصت لعدد من الشركاء . على أية حال ، رغم أننا ربما جهلنا الطريقة الدقيقة التى بدأ التجار المحترمون بها حياتهم الأولى . إلا أن تكوين ثروتهم ، فإننا على الأقل نعرف بكل تأكيد أن نزوعهم للثروة كان سريعا للغاية . وأن عددا كبيرا منهم ، قد أحرز أرباحا كافية ، فى القرن الحادى عشر ، جعلتهم قادرين على أن يقدموا مبالغ كبيرة للأمرأ ، وأن يبنوا كنائس على حسابهم الخاص فى مدنهم وأن يتحروا من مكوس اللوردات . وفى عدد من الكوميونات كانت هنالك اعتمادات مالية أسست وتكفلت بنمو الطبقة الوسطى . ولقد شكلت رابطتهم نوعا من الادارة البلدية الرسمية . وفى سان أومير Saint Omer ، جعلت الرابطة التجارية نفسها مسئولة ، بموافقة القشتاليين (١٠٧٢ - ١٠٨٣) ، عن بعض تكلفة رصف الشوارع وتشييد الحصون (١) . وفى بلاد أخرى ، مثل ليل ، وأودينير Audenarde وتورناى ، وبروجز ، ساهموا فى التنظيم البلدى المالى (٢) . فضلا عن ذلك ، فإن الأرباح التى حققها التجار قد استغلت بالقطع كلها فى تجارة البضائع والسلع . وجنبا الى جنب مع هذه التجارة الأخيرة تاجر الكثير من التجار فى المال . وليس من الضرورى أن نعيد ما قد قيل فى مكان آخر عن العمليات المالية ، التى تعامل خلالها الأغنياء منهم من القرن الثانى عشر فصاعدا ، فى كل من ايطاليا والأراضى المنخفضة .

G. Espinas and H. Pirenne, Les coutumes de la gilde marchande de Saint-Omer, in Le Moyen Age, 1901. (١)

H. Pirenne, Les periores de l'histoire sociale du capitalisme. (٢)
p. 282 et seq.

أظهرتهم بمظهر مجموعة معتبرة عالية القدر للملوك وللأمراء ، الاقطاعيين .
 إضافة الى ذلك ، واصل كل التجار استغلال فائض أملاكهم في الأرض ،
 وهي أسهل وأسلم كل الاستثمارات . وفي خلال القرنين الثاني عشر
 والثالث عشر تملكوا معظم الأراضي في المدن (١) . وان التزايد المطرد
 للسكان ، وبتحويلهم أراضيهم الى أرض بناء ، ضاعفت من أيجارها ، حتى
 أنه بداية من النصف الثاني للقرن الثالث عشر أبطل معظمهم العمل
 بالتجارة وصاروا مؤجرين : (rentiers, otiosi, huiseux, lediggangers)
 وهكذا ، بتزايد رأسمال الأرض المملوكة تكونت وتأسست ثروات رجال
 الطبقة الوسطى (٢) .

وكما يحدث دائما ، فسرعان ما تجمع الأغنياء الجدد في مجموعات
 متمركزة . ولقد منع النظام الأساسي للهانز الفلمنكيين في لندن (قبل
 سنة ١١٨٧) دخول تجار التجزئة في جمعيتهم ، كذلك أولئك « أصحاب
 الأظافر الزرقاء » (٣) ، والمقصود بهم العاملون في صناعة الملابس .
 ودخول التجارة في نطاق واسع اعتمد الآن على المجاميع التي احتكرتها .
 وفي المدن تركزت في أيدي النبلاء المتعجرفين ، الذين عملوا على طرد
 « العامة » وحصرهم في الأعمال اليدوية أو تجارة التجزئة . وفي كل تلك
 المناطق التي أخذت مكان القيادة في اقتصاد عصر النهضة كان هنالك
 تناقض شاسع مذهل بين التجارة الصغيرة والتجارة الكبيرة . وكانت
 صحة الرأسمالية للتجار الكبار صفة محققة لا تقبل الجدل (٤) . وماذا
 نسمى أولئك الذين قاموا بتصدير الصوف الخام الى المدن الفلمنكية
 والباربانتية ، وتجار الملابس الذين باعوا دفعة واحدة مئات القطع ،
 والبنادقة ، والجنوبيين ملاك السفن وملاك السفن البيزين الذين تاجروا في
 عواني الشرق ، ببيوت المال الملمباردية أو الفلورنسية الذين امتدت فروعهم
 داخل كل أوروبا وقاموا بالتجارة أو الصيرفة في نفس الوقت ، ماذا نسمى

(١) انظر ما سبق ، ص ٨٦ ، و H. Pirenne :

Les villes du Moyen Age, p. 168 et seq.

G. Des Marez La propriété dans le villes de Moyen Age, (٢)

p. II et seq. G. Espinas, La vie urbaine de Douai, t. III, p. 578, and
 IV, 4.

كذلك قوائم البيت المستأجرة في المدن لاثنيين من البازين وهما :

Jehan de France and Jakemes li Blons.

H. Pirenne, Le hanse Flamande de Londres, p. 81.

(٣)

(٤) هي الوثائق الإيطالية التي ترجع الى القرن الثالث عشر كانت كلمة رأسمالية

capitat. تستخدم باطراد للدلالة على الأموال المستخدمة في الأعمال التجارية .

كل أولئك غير رأسماليين ؟ (١) حقيقة أن الفرق بين تاجر الجملة وتاجر التجزئة لم يكن تاما ، وكثير من التجار اشتغل في الاثنين ، في ألمانيا ، خاصة ، فإن جماعة الجواندشنييدر Gewandschneider ، الذين استوردوا ملابس من الفلاندرز باعوها بالتجزئة في دكاكينهم (٢) ، وفعل في فلورنسا نفس الشيء وكلاء كثيرون لجماعة الكاليمالا Arte di calimala (٣) ودون شك أيضا فإن التخصص التجاري لم يكن قد اتضح بعد ، فالتجار يستوردون ، حسب الظروف ، السلع التي تعرض عليهم ، بعد أن يتأكد الواحد منهم أنها سوف تحقق الربح المناسب ، لكن كل ذلك لا يبين سوى أن الرأسمالية التجارية قد واصلت نفسها مع الظروف المفروضة عليها من السوق ومن ظروف العصر الاجتماعية .

- (١) ولكن نلقى نظرة خاطفة على ثروة زكريا الجنوى في القرن الثالث عشر . انظر : Bratiann, op. cit., p. 133 et seq., Roberto Lopez, Genova marinara nel duecento Benadetto zaccaria, ammiraglio e mercante, Messina Milan, 1933.
- (٢) انظر ما سبق من ١٢٤ - ١٢٥ .
- (٣) A Saponi, Una compagnia di Calimala.

الفصل السادس
الاقتصاد الحضري
وتنظيم الصناعة

١ - المدن كمراكز اقتصادية

تموين وتزويد المدن (١)

منذ بداية وأثناء القرن الخامس عشر ، كانت المدن هي المراكز الوحيدة للتجارة والصناعة ، الى حد أنه لم يسمح لواحدة منها بالهروب والتسرب الى الريف الشاسع . ولقد كان بين المدن والريف فاصل حاد في العمل ، فالأخير يحترف الزراعة فقط ، والأولى تحترف التجارة والأعمال اليدوية . ولذلك كانت المدن مهمة في نسبة نصف قطر نفوذها الاقتصادي . وهناك استثناءات قليلة لهذه الحالة ، في مدن روما وباريس ولندن ، حيث يقيم في الأولى راعي الكنيسة ، وبسبب كون المدينتين الأخريين عواصم لممالك عظيمة ، فقد أبدوا نفوذاً فاق كل نفوذ تمتعوا به خلافاً لذلك . وفي العصور الوسطى لم تكن المدن قد حصرت بعداً بقدر كاف ، كذلك فإن الحكومات والادارات لم تكن حددت بما فيه الكفاية مما يسمح بتكوين التراكم المدنى كما هو الحال في عواصمنا الحالية ، أو في مدن العالم القديم . وهناك قلة من المدن الأسقفية ، أحرزت مكاسب متزايدة لكونها مراكز أسقفية . وهذه أصلاً مجتمعات اكليريكية استطاعت أن تكفي نفسها بنفسها ، في انجاز تقدم كبير لحياة بلدية . ومهمة الأماكن التي بها تجمع سكانى الوحيدة هي تزويد احتياجات الكاتدرائية أو الدير فهي مجرد مدن ريفية من الدرجة الثانية . وكيف أن لذكر في هذا الصدد

Bibliography G. Espinas, La vie urbaine, Paris (1913), 4 vols.
 W. S. Unger, De levensmiddelen Voorziening der Holland che steden in de middeleeuwen (Amsterdam, 1906). J. G. Van Dillen, Het economisch karakter der middeleeuwsche stad (Amsterdam, 1914) P. Sander, Die reichsstädtische Haushaltung Nurnbergs, 1931-40. (Leipzig, 1902, 2 vols). K. Bücher, Die Bevölkerung von Frankfurt am Main in XIV und XV Jahrhundert (Tübingen, 1886). J. Jastraw, Die Volkszahl Deutscher Städte zu Ende des Mittelalters (Berlin, 1886). H. Pirenne Les dénombremments de la population d'Yvres au XVe siècle, in Vierteljahrschrift für Social — und Wirtschaftsgeschichte, t. I. (1903). J. Cuvelier, Les dénombremments de foyers en Brabant, XIV-XVI siècles (Brussels, 1912. G. Pardi, Disegno della storia demografica di Firenze in Archivio Storico Italiano (1915). Add the bibliography of Kulischer. op. cit , t. I, pp. 164-5,

مثال مدن فولدا Fulda وكوربي Corbie فى ألمانيا ، ومدن ستافيلوت Stavelot وتيروان Térouanne فى الأراضى المنخفضة ، ومدينة ايلي Ely فى إنجلترا ، ومدينة لوكسبيل Luxeuil وفيزيلاي Vézelay ومدن صغيرة كثيرة فى جنوب فرنسا . والحقيقة المعروفة المعتادة هى أن رجال الاكليروس كانوا عناصر أجنبية فى مدن العصور الوسطى . ولقد استثنيتهم امتيازاتهم من مشاركة أهل المدينة . وكان دورهم ما بين التجار من السكان والصناع مجرد دور المستهلك والمستفيد . أما عن طبقة النبلاء ، فقد عاش بعض أفرادها فى المدن فقط فى منطقة البحر المتوسط ، فى إيطاليا ، وجنوب فرنسا وأسبانيا . هذه الحقيقة ترجع ، دون شك ، الى احتفاظ هذه البلاد بالتقاليد الموروثة ، لدرجة معينة ، وللطابع البلدى الذى طبعته به الامبراطورية الرومانية بشكل كبير . ولم تجعلهم نبالتهم يبتعدون بالمرءة عن مواقع المدن القديمة ، حتى فى فترة انحدارهم الكبرى ، وواصلوا العيش هناك عندما بدأت حياة المدن فى الانتعاش . وأعلى أسطح منازلهم العالية ابتنوا أبراجا لا زالت باقية صورتها فى مدن تسكانيا القديمة . وبالطبع ، فانهم غالبا ما كانوا يتدخلون فى العمليات التجارية ويستثمرون جزءا من دخلهم فيها ، وفى البندقية وجنوة لعبوا دورا ملحوظا فى التجارة البحرية ، وليس من الضرورى فى هذا المقام أن نذكر الدور البارز الذى لعبوه فى صراع المدن الايطالية السياسى والاجتماعى . وعلى الجانب الآخر ، فقد ترك النبلاء فى شمال أوروبا العيش فى المدن وعاشوا فى قلاعهم فى الريف . وفى ظروف استثنائية كانت عائلات الفرسان تتواجد هنا أو هناك فى المدن ، معزولين ، وكما لو كانوا ، تائهين وسط المجتمع البرجوازى . وليس قبل نهاية العصور الوسطى ، تبدأ الارستقراطية ، فى الوقت الذى ساد فيه السلام وطلب الراحة ، فى بناء مساكن فخمة لها .

وهكذا كانت مدن العصور الوسطى أساسا موطنًا للبرجوازيين ، فقد قامت فقط من أجلهم وبسببهم . ولقد كانت لمصلحتهم الخاصة ، ومصلحتهم الخاصة فقط ، لأنهم هم الذين صنعوا مجتمعاتها ونظموا اقتصادها . وقد كان ذلك الاقتصاد ، بالطبع ، متقدما بدرجة كبيرة أو قليلة وفقا لعدد السكان المتواجد بها زاد أم قل ، أو كانوا نشيطين فى تجارتهم وصناعتهم أو لم يكونوا . وكان من الخطأ الذى كان يتكرر دائما هو وصف هذه المدن بأنها جميعها كانت على شاكلة واحدة ، ووسمها بشكل واحد منفرد ، كما كانت مدن فرانكفورت على المين والبندقية وفلورنسا وبروجز . ولقد اعتمدت التصميمات التى جاءت فى كتابات « اقتصاديات البلدان » Stadtwirtschaft ، والتى أفاضت فيها المدرسة الألمانية بذلك ومعرفة ، بدون شك ، اعتمدت على بعض ملامح الحقيقة ، ولكنها

أهملت الكثير منها ، مما جعل من المستحيل أن نعرف بالنتائج التي توصلوا إليها دون إجراء تصحيح ملحوظ . ولقد صب مؤلفوها أنكارهم كلية على ألمانيا وعمموا بتعسف على كل أوروبا نتائج لا تنطبق فقط الا على بعض البلاد شرق الراين . ولكي نكون رأيا سيديدا عن الاقتصاد المدني ، يجب ، على العكس من ذلك ، أن نفحص ما جاور هذه المدن حين بلغت أعلى تقدم لها .

وكانت الحاجة الماسة لهذا الاقتصاد بوضوح هي تأمين الطعام للسكان ولسوء الحظ فانه من المستحيل تقدير حجم هذا التأمين بأية درجة بدقة واتقان . ونحن ليست لدينا أية تقارير عنها حتى القرن الخامس عشر ، وحتى تلك التي لدينا جاءت لنا من تلك الفترة كانت غير وافية للفرض وبعبدة عن الصحة . ومع ذلك ، فان الأبحاث الجادة والكاملة التي اعتمدت عليها أكدت لنا الاستنتاج بأن مدن العصور الوسطى كانت قليلة السكان . وربما بدا ذلك أمرا غريبا ، لكن ثبت أن مدينة نورمبرج سنة ١٤٥٠ كان عدد سكانها ٨٧١٩ ساكنا ، وبازيل حوالى ١٤٥٠ ، وراوند حوالى ٨٠٠٠ ، وفريبورج في سويسرا سنة ١٤٤٤ فقط ٢٠٠٠ ، وستراسبورج ، حوالى سنة ١٤٧٥ : ٢٦١٩٨ فقط ، ولوفان وبروكسل في منتصف القرن الخامس عشر كان حوالى ما بين ٢٥٠٠٠ و ٤٠٠٠٠ على أكثر تقدير .

وقد جاءت هذه الأرقام مفايرة لكل الأرقام الوهمية المذكورة في السابق ، وهي التي احتمال القطع بها لا زال قائما . ولذلك ، فاننا ما لم نفترض أن أوروبا منذ القرن الثاني عشر وحتى القرن الخامس عشر كانت قادرة على أن تغذى سكانها الكبيرى العدد مثل العدد الذى في القرن العشرين ، فيكون من المسلم به فى الحال استحالة استخراج توازن بين سكان المدينة حينئذ وسكانها فى الوقت الحاضر . وهذه البيانات ، أيضا ، غالبا ما تنتشر معتمدة على قوة التراث الموروث المكون من معلومات خالية من الدقة العددية ، لكنها بسبب احترام كل ما هو موروث من معلومات لاتحتمل النقد . وفى فترة أحد عشر عاما (١٢٤٧ - ١٢٥٨) هنالك وثيقتان تتعلقان بسكان يبريس Ypres احدهما تذكر أن عدد سكانها ٢٠٠٠٠٠ والأخرى ٤٠٠٠٠٠ ، لكن من المشكوك فيه أن عدد سكانها آنذاك قد وصل الى نصف الرقم الثانى (أى ٢٠٠٠٠) . وهنالك احصاء سكاني حقيقى لا شك فيه يقيدها بأن عدد سكان هذه المدينة آنذاك ، أى فى سنة ١٤١٢ كان ١٠٧٣٦ نفسا لا غير . وأنه أخذ فى النقصان فى تلك الفترة حتى اننا نستطيع أن نؤيد افتراضنا أنها فى قمة انتعاشها الصناعى فى نهاية القرن الثالث عشر . ربما وصل عدد سكانها الى ٢٠٠٠٠ نسمة . أما غينت Ghent ، حيث كان يعمل بها ٤٠٠٠ نساج سنة ١٣٤٦ ربما كان

عدد سكانها ، على وجه التقريب ، ٥٠.٠٠٠ نسمة ، اذا ما افترضنا أن عمال النسيج وعائلاتهم كانوا يشكلون ربع سكان المدينة (١) . ولم تكن بروجز بأقل أهمية عن تلك المدن . وفي إيطاليا ، كانت البندقية « دون منازع ، أكبر مدن الغرب » ، ولم يقل عدد سكانها عن ١٠٠.٠٠٠ نسمة ، ومن المحتمل أنها لم تكن أكبر بكثير من مدن فلورنسا، وميلان، وجنوة (٢) . وكل ما نضعه في اعتبارنا ، هو أنه من المحتمل أنه عند بداية القرن الرابع عشر أن كان أكبر تكديس سكاني في المدن يتراوح ما بين ٥٠.٠٠٠ و ١٠٠.٠٠٠ نسمة ، وأن المدينة التي عدد سكانها ٢٠.٠٠٠ تدخل في نطاق المدن الكثيفة السكان « وأن المدينة القليلة السكان يتراوح عدد سكانها ما بين ٥٠٠٠ و ١٠.٠٠٠ نسمة » .

وإذا كنا قد أخذنا مطلع القرن الرابع عشر نقطة بداية لرحلتنا في هذه التقديرات السكانية ، فإن ذلك لأن بداية هذا القرن تعتبر محطة توقف في ديموغرافية السكان . وحتى ذلك التاريخ ، بدأ التزايد السكاني في المدن في الاضطراد . ولقد نمت ، دون شك ، بسرعة المراكز الأولى للحياة المدنية ، كما يظهر ذلك بوضوح من التوسع المضطرد للحدود البلدية . فمثلا نرى غينت ، توسعت وامتدت في سنوات ١١٦٣ و ١٢١٣ و ١٢٥٤ ، و ١٢٦٩ ، و ١٢٩٩ ، وضمت إليها كل ما حولها من ضواحي ، واستمر هذا التوسع مع الوقت ، حتى أن الأسوار التي بنيت مؤخرا صارت تعد سطحا فسيحا بما فيه الكفاية يكفي لمدة طويلة لتأسيس أحياء جديدة ، لكن هذه الأحياء لم تقم بعد . حيث أن الوضع الديمغرافي قد استقر آنذاك . وعلينا أن ننتظر حتى القرن السادس عشر قبل أن يواصل هذا التوسع مسيرته .

ومن أجل حصول المدن على مؤنتها من الطعام ، كان عليها أن تلجأ الى كل من الريف المجاور لها وللتجارة الواسعة النطاق . ولقد كانوا هم

(١) G. Espinas and H. Pirenne, Recueil de documents relatifs à l'histoire de l'industrie en Flandre, t. II, p. 637.

(٢) وفقا لما ذكره دافيدسون : Davidsohn, Forschungen sur Geschichte von Florens, t. II, 2nd part, p. 171.

فإن عدد سكان فلورنسا كان ٤٥.٠٠٠ نسمة في سنة ١٢٨٠ ، وحوالي ٩٠.٠٠٠ سنة ١٣٣٩ . وفقا لما أورده F. Lot, L'état des paroisses et des feux, loc. cit., p. 300.

في بداية القرن الرابع عشر ، فإنه لم تصل مدينة في فرنسا لعدد أكثر من ١٠٠.٠٠٠ . أما عن باريس ، ربما كان بها ٢٠٠.٠٠٠ نفس اذا ما اعتبرنا أنه كان بها ٦١.٠٠٠ عائلة رقما صحيحا .

أنفسهم غير قادرين على أن يساهموا بأكثر من قدر قليل حيال مؤنتهم . ولم يتميز عن ذلك سوى بعض المحليات القليلة التي تمتعت بامتيازات بلدية في النصف الثاني للصور الوسطى ، والتي احتفظت على الدوام باستقلال شبه ذاتي ، وهي التي كانت قادرة على أن تعيش دون مساعدة خارجية . ولكن من الخطأ الزائد مقارنة هذه المحليات بمناطق التكس التجاري التي كانت مهد الطبقة الوسطى . ومنذ البداية ، اضطرت هذه المدن لاستيراد طعامها . وكانت تلك حقيقة واضحة تماما وغير منكورة ويؤيدها وجود زرائب الأبقار وزرائب الخنازير التي انتشرت في المدن في فترة قمة ارتقائها ، وحيث وجدت في كل المدن حتى القرن الثامن عشر وهي لم تختف كلية حتى اليوم . وقد كان هدفهم الوحيد هو تزويد أصحابها بالطعام ، وبالقطف تزويد العامة به .

ولقد كان مزارعو الضواحي المحيطة هم أول وأسبق المصدريين للبرجوازيين . وبمجرد أن عثر أول مجتمع مدني عن منفذ لمنتجاته ، التي كانت آنذاك لا تملك سوى أسواق المدن المحلية الصغيرة ، أصبح كساد هذا الاقليم الاقتصادي شيئا من الماضي . ولقد قامت علاقة بين المدن الزراعية والمدن الناشئة ، أرضت على الفور حاجات الأخيرة واهتمامات الأولى . ولقد زود كل ريف المدينة المركزية فيه ، وما أن ظهر نمو هذه المدن وظهرت حاجاتها الكبيرة ، حتى أخذ الزيف مقاييس ليكفيها حاجتها ، ولمواجهة أية زيادة ثابتة في الاستهلاك بزيادة في فائض انتاجها .

ومن البداية وجدت حكومة المدينة نفسها مجبرة على تنظيم وارداتها من المؤن الغذائية . ولم يكن عليها مجرد جلبها فحسب ، ولكن أيضا كان عليها حراستها ضد أخطار الاحتكار ومن زيادة الأسعار الجائرة . ولكي يؤمنوا لسكان المدن حاجاتهم الضرورية بأوخص ما يستطيعون استخدموا في ذلك أمرين ، الأمر الأول هو اشاعة الصفقات والثاني منع الوسطاء ، الذين من خلالهم تمر السلع ما بين المنتج والمستهلك . وكان غرضهم من ذلك أن يواجه بائع الريف ومشتري المدينة بعضهم وجها لوجه ، تحت رقابة عامة . وان المراسيم والتشريعات ، التي ، لسوء الحظ ، وصل الى أيدينا القليل منها ، والتي صدرت من القرن الثاني عشر فصاعدا والقرن الثالث عشر ، مليئة بتنظيمات دقيقة تعطينا صورة واضحة للنهج الذي اتبع لتحقيق هذه الغاية . ولقد كان احتكار السلع الغذائية وشراؤها من الفلاحين خارج الأسواق قبل أن يصلوا بها الى المدينة كان ممنوعا ، فكل السلع تؤخذ مباشرة الى السوق وتعرض هنالك لوقت محدد ، خلاله فقط يتم البيع للبرجوازيين . وكان ممنوعا على الجزائين أن يحتفظوا باللحوم في مخازنهم ، كذلك ممنوعا على الخبازين أن يحصلوا

على قمح يزيد عن حاجة أفرانهم ، ولا يسمح للمواطن بشراء أكثر مما يحتاج إليه هو وأسرته . ولقد اتخذت تلك المحاذير الدقيقة والصارمة لمنع أى زيادة غير طبيعية فى سعر الطعام . وغالبا ما كان السعر الأعلى محددا ، كذلك فإن وزن الرغيف كان متناسبا مع قيمة الغلة ، وكان يتولى النظام فى السوق موظفون عموميون كانت أعدادهم تتزايد باستمرار . ولقد كانت المدن محمية من الغش ، كذلك كانت محمية من الإفراط فى المضاربة والاحتكار . ولقد كانت كل السلع فى الأسواق تحت المراقبة التامة ، وتلك التى لم تكن تعاب فى نوعيتها ، أو كانت ، حسبما ورد عنها من الوثائق ، خالصة ، كانت تصدر أو تتلف ، إضافة الى الجزاءات التى كانت توقع على أصحابها وتوجب عليهم العقوبة . وكان يحكم كل هذه الاشتراطات (التى ربما تكون قد تزايد عددها) ، روح المراقبة ومبدأ التعامل المباشر لصالح المستهلك (١) . وقد اتضح هذا المبدأ مرارا وتأكيدا تحت صيغ كثيرة حتى أن بعض الكتاب قد علقوا عليه (مع بعض المبالغة) على أنه الطابع الأساسى للاقتصاد المدنى ، على أية حال فإنه من المؤكد تطبيق هذا التعامل بتوسع من أجل تحقيق (الصالح العام) للمواطنين ، حيث كان المثال المرغوب ولصالح معظم المقاييس الجائرة التى كانت مستخدمة . ولقد كانت حرية الفرد قد اقتضت بهدوء ، وخضع بيع السلع الغذائية لتنظيم جائر وفضول فى معظمه ، مثل ذلك التنظيم المطبق فى النطاق الصناعى الصغير ، كما سوف نرى فيما بعد .

ولا يجب الاعتقاد فى أن الريف المجاور للمدينة هو فقط المسئول عن تمويل المدن . فالتجارة أيضا لعبت دورها فى ذلك الخصوص . وبهاتين الوسيلتين زودت المدن الكبرى بحاجتها الاستهلاكية من الطعام (والمدينة التى كان عدد سكانها ٢٠.٠٠٠ كانت تعتبر آنذاك مدينة كبرى) . ولقد كان ذلك مائلا فى ذهن جى دى دامبيير Gui de Dampierre حين لاحظ ، فى سنة ١٢٩٧ ، أن « الفلاندرز لا تستطيع أن تكفى نفسها دون إمدادات من الخارج » (٢) . أما عن باقى المدن ، فإن هنالك بضائع كثيرة كبيرة الفائدة كان من الضروري استيرادها من الخارج ، مثل التوابل ، والسمك المملح من أقطار داخل

(١) من الطبيعى أن يكون تجار التجزئة قد تواجدوا بأعداد قلت أم كثرت ، كالأما تاجر فى الطعام والأدوات والسلع الاستهلاكية التى أحضرها التجار . ولقد كان التعامل المباشر أساسا وضعا يسمح باستثناءات عديدة ، انظر على سبيل المثال أبحاث : B. Mendel Breslau zu Beginn des XV Jahrnnrert, in Zeilschrift des Vereins für die Geschichte Schlesiens (1929).

H. Pierenne, Histoire de Belgique, t. I, 5th ed., p. 263.

(٢)

القارة ، أم النبيل من الشمال • هنا ، لا يمكن التعامل دون تدخل التجار ، الذين يشترون هذه السلع إما من الأسواق الخارجية أو مناطق الإنتاج • وفي أوقات الشدة والمجاعات ، يدين أهالي المدن للتجار بالبضاعة المستوردة اليهم حين تحرم هذه المدن من موارد جيرانها ، وتنجح هذه البضائع في اطعام سكانها • ولا يمكن أن تخضع تجارة الاستيراد هذه للتنظيم المجمل سابقا الذي لا يتضمن كل الاقتصاد المدني • فهو معمول فقط للسوق البلدي ، الذي يستطيع أن يسود لأنه يؤدي وظيفته خلال فلك أسوار المدينة ، لكنه لا يؤديها مع التجارة الواسعة • ولقد نجح هذا التنظيم تماما في منع الخباز من أن يكس سراً في شونة غلاله عددا قليلا من أجولة القمح ، ليبيعهما عند أول ارتفاع للسعر ، وارجاع المخبأ منها ، أو احباط حيل الوسطاء وتواطؤهم السري مع قلة من المزارعين ، ولكن هذا التنظيم لم تكن له قوته قبل أن يقوم تاجر الجملة ، بتفريغ بضاعة سفنه على أرصفة الموانئ والمحملة بنبات الجودار ، والجبن ، أو براميل النبيذ • وما هو النفوذ الذي يستطيع أن يفرضه في هذه الحالة على الأسعار ، وكيف يشرع في اخضاع مبيعات الجملة لنظام عمل من أجل البيع بالقطاعي ؟ وهنا يبدو بوضوح أنه يواجه وجها لوجه مظهرا اقتصاديا لم يكن موافقا له • وبمجرد أن ظهر رأس المال في الصورة قام باحباط التنظيم البلدي ، عديم الجدوى له • وكل ما كانت تستطيع حكومة المدينة أن تفعله هو أن ترى أن للبرجوازيين نصيبا في أرباح المستوردين وهي تدفع ثمنها للخدمات التي يقدمونها لهم • وبالطبع ، فإن التاجر ، كاجنبي ، من الخارج كان من الضروري له أن يلجأ الى السكان المحليين • ومن خلال وكالتهم يشتري أو يبيع للناس الذين لا معرفة له بهم •

في البداية ، دون شك ، فهو يتخذ صاحب المسكن الذي ينزل فيه مرشدا ومساعدة • وبالطبع فإن مجتمع السماسرة متعود على التدخل • وبسبب الظروف صار ذلك لهم حقا شرعيا ، ووجد التاجر نفسه مجبرا على أن يجرى كل تعاقداته مع البرجوازيين من خلال وساطة سمسار حكومي • وقد بدت البندقية رائدة في ذلك ، شأنها في ذلك شأن باقي الأمور ، ومن القرن الثاني عشر فصاعدا وجد سماسرة حقيقيون هنالك ، تحت اسم *Sensales* المقتبسة من البيزنطيين • وفي القرن الثالث عشر ظهر هؤلاء الوسطاء السماسرة في كل مكان ، فظهروا تحت اسم *makelaeren* في الفلاندرز ، واسم *Unterkauf* في ألمانيا و *brokers* في إنجلترا • ومن حين لحين كانوا أيضا يحتفظون

L. Goldschmidt, Universalgeschichte des Handelsrechts, p. 230 (1)
et seq.

بتسميتهم الأولى كمؤجرين (Gaston) • ولقد تمتعوا في كل مدينة ببعض الحقوق المكتسبة أتاحت لكثير منهم جمع ثروات طائلة واحراز مراتب عالية والوصول الى قمة طبقة البرجوازيين •

ومع ذلك لم يزل هنالك حذر يتخذ ضد غزو الرأسماليين الأجانب بإبعادهم عن تجارة التجزئة • ولقد ظلت هذه التجارة احتكارا على البرجوازيين ، فأبقوها لأنفسهم ودافعوا عنها أمام كل المنافسات • ولذلك فان التشريع البلدي للتجارة الواسعة ألزم أولئك الوسطاء بالتجارة ومنعهم عن تجارة التجزئة • وتفسر لنا مصلحة البرجوازيين هذا التناقض الواضح • ورغم ما نتج عن ذلك من زيادة في أسعار السلع المستوردة ، الا أنه في النهاية شجع التجارة الداخلية • ومن الضروري أن نضيف بأن توسط السماسرة ومنع البيع بالتجزئة قد طبق فقط على « الأجانب » • لكن تجار المدينة الكبار أنفسهم استثنوا من ذلك •

٢ - الصناعة المدنية (١) :

تظهر الخصائص التي لاحظناها ، على التو ، في حقل امداد المدن بالطعام ثانية ، لكن بشكل متغير تماما وواضح للغاية في التنظيم الصناعي • وهنا يختلف الأسلوب أيضا وفقا لأمر البيع ، البيع بالجملة

Bibliography. L. M. Hartmann, zur Geschichte der Zünfte (١)
im frühen Mittelalter, in Zeitschrift für social und Wirtschaftsgeschichte, t. III (1896). R. Eberstadt, Der Ursprung des Zunftwesens (Leipzig, 2d ed., 1915). — G. von Below, Handwerk und Hofrecht, in Vierteljahrsschrift für Social und wirtschaftsgeschichte, t. XII (1914). F. Keutgen, Aemter und Zünfte (Jena, 1903). G. Selliger, Handwerk und Hofrecht, in Historische Vierteljahrsschrift, t. XVI (1913). For the German bibliography, cf. Kulischer, op. cit., t. I, p. 165. G. Des Marex, La première étape de la formation corporative. L'entr'aide, in Bull. de la Classe des Lettres de l'Acad. royale de Belgique (1921). E. Martin Saint Léon, Histoire de corporations de métiers (Paris, 3rd ed., 1922). G. Fagniez, Etudes sur l'industrie et la classe industrielle à Paris, au XIIIe et au XIVe siècles (Paris, 1877). P. Boissonnade étude sur l'organisation du travail en Poitou (Paris, 1899), G. Des Marex, L'organisation du travail à Bruxelles, au XVe siècle (Brussels, 1904) (Mém. Acad. de Belgique). E. Lipson, op. cit., p. VIII. A. Doren Das Florentiner Zunftwesen vom XIV bis zum XVI Jahrhundert (Stuttgart-Berlin, 1908). Id., Die Florentiner Wollentuchindustrie (Stuttgart, 1901). E. Rodocanachi, les corporations ouvrières à Rome (Paris, 1894), 2 vols. H. Pirenne, Les anc. démocr., des Pays Bas, p. 33, n. I. G. Esninas and H. Pirenne, Recueil de documents relatifs à l'histoire de l'industrie drapées du Flandre (Brussels, 1906-24), 4 vol. G. Espina, Les origines du capitalisme, t. I. Sir Jean Boinebroke (Lille, 1930). Id., L'industrie

أو البيع بالقطاعي . ولقد كان العمال الذين يمولون السوق الداخلي يعاملون معاملة تختلف تماما عن تلك التي يتعامل بها العمال الذين يعملون للتصدير . ولنبدأ قولنا بالعمال الأول .

من المعروف أن لكل مدينة كبرت أم صغرت عددا ونوعية من الحرفيين متناسبة مع حجمها ، حيث لا يستطيع سكان المدن العمل دون تواجد أدوات الصناعة . ورغم أن الحرفيين الأثرياء يتواجدون فقط في الأماكن الكبيرة المكسدة بالسكان ، فإن الحرفيين ضرورة لازمة للحياة اليومية ، فمنهم الخبازون والجزارون والحائكون والنحاسون والنجارون والخزافون ، وغيرهم ، وهم يتواجدون في كل مكان . وكما أن الولايات الكبرى ، في فترة العصور الوسطى الزراعية ، قد اضطرت لإنتاج كل أنواع الغلال ، حتى توفر كل مدينة لسكانها وللأقاليم المجاورة لها حاجتها الضرورية منها . ورتبت بيع انتاجها للمناطق التي جردت من طعامها . ولقد أخذ المزارعون الذين زودوا هذه المدن باحتياجاتها من الطعام في المقابل منها منشآت صناعية ، وبذلك استدرج زبائن ورش المدن الصغيرة من كل من عامة البرجوازية ومن سكان الريف المجاور .

ولقد كان التشريع الصناعي بالضرورة أكثر تعقيدا من التشريع الخاص بالطعام . فلقد اعتبر الأخير البرجوازي مجرد مستهلك ، بينما اعتبره الأول في نفس الوقت منتجا . ولذلك كان من الضروري وضع نظام يحمي كل من الحرفي الذي يصنع ويبيع والمستهلك الذي يشتري . ولقد وضع تنظيم لضمان ذلك ، وبرغم الاختلافات العديدة في التفاصيل ، إلا أنه وضع في كل الأماكن على نفس المبدأ : مبدأ النقابات الحرفية . وبرغم اختلاف المسميات ، فلقد سمي في اللاتينية *ministerium* و *officium* ، وفي الفرنسية : *jurande* أو *métier* ، وفي الإيطالية : *arte* . وفي لغة الأراضى المنخفضة *neering* أو *ambacht* ، وفي الألمانية : *Handwerk* أو *Amt, Innung, Zunft* ، وفي الانجليزية : *raft-gild* أو *mistry* ، فإن التنظيم في كل مكان هو نفس التنظيم ،

¹ drapière dans la Flandre Française au Moyen Age (Paris, 1926), E. Coornaert, Un centre industriel d'autrefois. La draperie, L'industrie d'Hondsohoote, XIV-XVIIIe siècles (Paris, 1930). Id., L'industrie de la laine à Bergue — Saint — Winoc (Paris, 1930. N. W. Posthumus, De geschiedenis van de Leidsche lakenindustrie, t. I. (The Hague, 1908). Brogliod, Ajano, Die Venetianer Seidenindustrie und ihre Organisation bis zum Ausgang des Mittelalters (Stuttgart, 1893). E. Wege, Die Zünfte als Träger wirtschaftlicher Kollektivmaßnahmen (Stuttgart, 1932). — F. Rörig, Mittelalterliche Weltwirtschaft (Jena, 1933).

لأنه وضع فى كل مكان لسد نفس الاحتياجات الأساسية . وفى هذا التنظيم وجه اقتصاد المدينة شكله المميز والعام .

ولقد كان أصل الطوائف الحرفية ومازال محل جدل كبير . ولقد اعتقد فى بادئ الأمر ، بموافقة اتجاه العلماء فى بداية القرن التاسع عشر أنه فى *collegia* و *artēs* ، حيث تجمع فيهما حرفيو المدن داخل الامبراطورية الرومانية . وكان من المفترض أنهم خلفوا الغزو الجرمانى وأن حركة نهضة القرن الثانى عشر الاقتصادية قد أحييتهم ثانية . ولكن ليس هنالك ما يثبت قيام هذه الحياة شمال الألب ، وأن ما نعرفه عن التلاشى الكامل للحياة البلدية من القرن التاسع كان كله ضد ذلك . ولم يحتفظ ببقايا آثار لهذه التجمعات القديمة *collegia* إلا فى تلك الأنحاء من إيطاليا التى كانت تحت الاداة البيزنطية فى العصور الوسطى . لكن مظهرها الطبيعى كان مظهرا محليا للغاية وقليلًا للغاية فى الأهمية حتى يكون أصلا لتنظيم كان عاما فى ذلك الوقت مثل تنظيم هذه النقابات المهنية .

وان محاولة إيجاد أصل فى الوحدة الإدارية فى التنظيم القديم للأرياف الانجليزية أصبحت محاولة غير ناجحة . حقيقة أننا وجدنا فى قلب الولايات الكبرى ، أثناء وبعد الفترة الكارولنجية ، حرفيين من مختلف الأنواع جندوا من بين أقنان اللورد ويعملون فى خدمته وتحت اشراف ملاحظين (١) . ولكن لسوء الحظ ، لم يستطع أحد أن يثبت أن فى تلك الفترة فى تكوين المدن أن هؤلاء المواطنين المدنيين الحرفيين كانوا مخولين ليعملوا للعمامة ، وأنه قد انضم اليهم عدد من الرجال الأحرار ، وأنه بالتدريج ، أصبحت هذه المجموعات المستعبدة أصلا جمعيات ذات استقلال ذاتى . وان غالبية العلماء المحدثين محقن فى اعتبارهم أن الجمعيات الحرة تقدم لنا حلا مقبولا للمشكلة . ومنذ نهاية القرن الحادى عشر نرى بكل تأكيد الحرفيين الريفيين يشكلون جماعات منظمة (*fraternitates, caritates*) على أساس حرفهم . وبالنسبة لهم كانت النقابات التجارية هى المثل وكذلك الجماعات الدينية المتنفة حول الكنائس والأديرة . ولقد تميزت الجماعات الأولى للحرفيين بتدينها وميولها للخير ، لكنها فى نفس الوقت أنجزت حاجتهم من الحماية الاقتصادية . ولقد أحسوا بحاجتهم الملحة لوقوفهم الى جانب بعضهم البعض ، لمقاومة منافسة القادمين الجدد ، منذ بداية الحياة الصناعية .

ولكن ، من الأهمية بمكان معرفة ، أن الجمعيات وحدها لم تكن كافية لقيام تكوين الحرفيين . فهناك دور كبير فى ذلك لعبته السلطة العامة

(١) انظر ما سبق فى هذا الخصوص .

أو السلطات • ولم يختلف الشكل المنتظم الذى ساد كل التشريع الاقتصادى للإمبراطورية الرومانية مع سقوط الامبراطورية • فلقد ظل ذلك الشكل ملحوظا وقائما ، حتى فى فترة العصور الوسطى الزراعية ، فى الهيمنة التى مارسها الملوك أو القوى القطاعية على الموازين والمقاييس ، والعمل ، والمكوس والأسواق • وعندما بدأ الصناع يرحلون الى المدن الناشئة ، كان رؤساء البلديات أو العمدة الذين أقاموا هناك قد احتاجوهم بالطبع ليخضعوا لسلطتهم • ولدينا ما يكفى لنذكر أنهم منذ النصف الأول للقرن الحادى عشر ، اكتسبوا بعض الحقوق للهيمنة على بيع السلع وعلى ممارسة كل الحرف • وفى المدن الأسقفية ، قام الأساقفة ، اضافة ، لما يتصل بتطبيق المثل والقيم الكاثوليكية ، بالزام البائعين بتحرى العدالة فى الأسعار وعدم التجاوز فيها مما يعرضهم للوقوع فى الذنب • ومن المحتم أن هذا التنظيم الصناعى المبكر قد ازداد باضطراد واكتمل على يد سلطات الكوميونات ، وقت تكوين المجتمعات المدنية • وفى اقليم الفلاندرز ، منذ النصف الثانى للقرن الثانى عشر ، نشر شيوخ البلد *échevins* مراسيم لا تحتوى فقط على مواد غذائية ، ولكن أيضا سلع أخرى (*in pane et vino et caeteris mercibus*) ومن ثم منتجات صناعية • ووقتئذ اتضح أنه من المستحيل سن قوانين وتشريعات تتصل بالمنتجات دون أن تشمل المنتجين ، طالما أن الوسيلة الوحيدة لضمان النوعية الجيدة للمنتج هى عدم منازعته بالمنتجين • وكانت أكثر الطرق فعالية لعمل ذلك هو فى تصنيفهم فى مجاميع وفقا لحرفهم واخضاعهم لهيمنة السلطة البلدية • وهكذا فإن الاتجاه التلقائى الذى ألجأ الصناع الى النقابات قد قواه اهتمام السلطة الادارية • وربما أكد ذلك انقسام صناع المدينة منذ منتصف القرن الثانى عشر الى جماعات حرفية معترف بها وتقرها السلطة المحلية ، وقد كانت تلك من قبل حقيقة قد أنجزت فى عدد كبير من المدن • وينطبق ذلك فى تلك الفترة على مدن *Pontoise* (١١٦٢) ، و *Hagenau* (١١٦٤) ، و *Swindratzheim, Hochfelden* (قبل سنة ١١٦٤) (١) ، وربما قد أنجز ذلك مسبقا فى كثير من مناطق التكديس السكانى المهمة • زيادة على ذلك ، فنحن فى حوزتنا عدد من الوثائق تظهر أن هنالك حرفا كانت قائمة بالفعل فى فترة مبكرة : فهناك كان يوجد النساجون فى ميننز سنة ١٠٩٩ ، وفى سنة ١١٠٦ كان يوجد بائعو السمك فى وورمز ، والاسكافيون سنة ١١٢٨ فى فرتزبورج *Wurtzburg* ، وفى سنة ١١٤٩ كان يوجد حائكو الأغطية فى كولون ، وكان كل من هؤلاء يشكل مجموعة رسمية قانونية • وفى روان ، عند

F. Keutgen, *Urkunden zur städtischen Verfassungsgeschichte*, (١)
p. 136, (Berlin, 1899).

بداية القرن الثانى عشر ، شكل دابغو الجلود رابطة لهم كان يكتتب بها كل من يرغب فى مزاوله هذه الحرفة . وفى انجلترا ، ذكرت الروابط الحرفية فى عهد الملك هنرى الاول (١١٠٠ - ١١٣٥) فى أكسفورد ، وهنتينجتون *Huntington* ، وونشستر *Winchester* ، ولندن ، ولنكولن ، وسرعان ما انتشرت فى كل المدن .

من ذلك نستطيع أن نستنتج أنه من القرن الحادى عشر فصاعدا قامت السلطات العامة بتنظيم صناعة المدن بتقسيم الصناع الى مجاميع كثيرة حيث كانت تسود فيها حرف ظاهرة . وكان لكل مجموعة منهم الحق فى أن تحفظ لأعضائها حق تنظيم الحرفة التى كرسست نفسها لها . ولقد كانوا لذلك أساسا جماعات مميزة ، بعيدة قدر امكانها عن الليبرالية الصناعية . وقد قامت هذه الجماعات على حماية القصر . ولقد عرفت هذه الشركة المحتكرة فى انجلترا باسم *gild* ، وفى ألمانيا باسم *Zunftzwang* أو *Innung* .

وليس هنالك شك فى أن تلك التنظيمات الصارمة للصناع كانت موضوعا أساسا لصالح العمال أنفسهم . ولحماية المستهلك ضد الغش والتزييف كان يكفى تنظيم الجماعات الصناعية ومراقبة البيع . ولقد كان الاحتكار الحرفى الذى تمتعت به هذه الروابط كان بالأحرى خطرا على المشترين ، الذين كانوا تحت رحمتهم تماما . لكنها بالنسبة للمنتجين فقد قدمت لهم فوائد لا حصر لها بتحريرها من المنافسة ، ولقد كانت دون شك رخصة تحت أيديهم قدمتها السلطات الشرعية لهم . ولكن هذه الروابط التطوعية التى كونها الصناع من نهاية القرن الحادى عشر لم تمتلك ، بالطبع ، حقا شرعيا يسمح لها أن تمنع غيرها من العمل فى الصناعة . وكان سلاحهم الوحيد ضد أولئك الذين لم يكونوا ينتسبون اليهم هو سلاح المقاطعة ، ولكن كان سلاحا غير ثابت وغير واف بالغرض . ولذلك فكرت هذه الروابط منذ وقت مبكر فى أن يكون لها الحق فى الزام كل صانع فى صفهم أو يخلقوا دكاكينهم . ولم تجد السلطات أية صعوبة فى الاستجابة الى طلبهم ، الذى كان فى صالح الأمن العام ، ويعمل على تسهيل انضباط الصناعة . وغالبا ما كانت الحرف عرضة لفرض المكوس عليها من قبل الحكومة مقابل هذه الرخصة القيمة ، ففى انجلترا دفعوا للتاج ضريبة سنوية نظير الاحتكار الذى تمتعوا به ، وهذا يفسر أيضا المكوس التى فرضت على مختلف الحرف فى مدن فرنسا ، وألمانيا ، والأراضى المنخفضة .

وهكذا فان أصل النقابات الحرفية يرجع الى تأثير أحد عاملين :
السلطة الشرعية أو الجمعيات الاختيارية . والعامل الأول توسط على
أكتاف العامة ، أعنى المستهلكين ، والثاني هو نتيجة فكرة الصناعة
أنفسهم ، أى المنتجين . وهكذا كانا فى البداية حركتين متضادتين تماما .
واتحدتا منذ اللحظة التى اعترفت فيها السلطات الرسمية باتحادات
العمال كاتحادات تجارية اضطرارية (١) . وفى جوهرها ، من الممكن أن
تعرف حرف العصور الوسطى على أنها تجمع صناعى. تمتع باحتكار
ممارسة حرف معينة ، بموافقة القوانين المعتمدة من السلطة العامة . وسوف
يكون من الخطأ التام أن نتصور أن للحكم الذاتى حقا ملازم فى طبيعته
الروابط الحرفية . وفى عدد كبير من المدن لم تحاول هذه الاتحادات زعزعة
السلطة البلدية فيها وظلت مجرد عضو عامل تحت سيطرتها (٢) . بهذا
المعنى ، فان كلمة Amt ، التى تعنى (عمل) ، تستوعب صفتهم تماما .
وفى مركز نشط مثل نوريمبرج ، على سبيل المثال ، فانهم لم يتوقفوا عن
أن يكونوا خاضعين تماما للرات (Rath) ، المجلس البلدى ، الذى حرمهم
حتى من حق الاجتماع دون موافقته وتمادى فى أن يفرض عليهم برفع
مراسلاتهم مع صناع المدن الأجنبية اليه .

ومن ناحية أخرى ، فقد بدأ الاتجاه النقابى قويا فى غالبية مدن
غرب أوروبا . وفى الأراضي المنخفضة وشمال فرنسا ، وعلى ضفاف الراين ،
وفى ايطاليا ، يمكن القول ، ان فى هذه المناطق حيث كانت حياة المدينة قد
شهدت قيامها القديم وارتقامها الكامل ، طالبت الجمعيات الصناعية بحكم
ذاتى ، مما أدخلهم فى صراع ليس فقط مع السلطة الحاكمة ولكن أيضا
مع بعضهم البعض . ومنذ النصف الأول للقرن الثالث عشر ، طالبوا بحق
الحكم الذاتى ، وفى حق الاجتماع لمناقشة قضاياهم ، وفى حق أن يكون
لهم صوت وضمان ، كذلك حق مشاركة حكومة المدينة مع التجار الأغنياء

(١) يشرح اتيين بوالو Etienne Boileau الدواعى التى دفعت لجمع التنظيمات

الحرفية فى باريس بقوله :

"Pour ce que nous avons veu à Paris en nostre tans mont de plus, de
contens par la delloiat envie qui est mère de plais et defferenée
convoitise qui gaste soy même et par la non ens as jones et as poi
sachrans, entre les estranges gens et cens de la vile, qui aucun
mestier usent et hantent, pour la raison de ce qu'il avoient vendu
as estranges aucunes choses qui n'estoient par si bone ne si loi
ans que elle deussent ..." Etienne Boileau, Le livre des métiers, ed.
S. Depping (Paris, 1837), p. I.

(٢) انظر على سبيل المثال :

J. Billioud, De la confrérie à la corporation : les classes industrielles
en Provence aux XIVe, XVe et XVI siècles (Marseilles, 1929).

ولقد كانت الصناعة أقل الأشياء مراقبة من قبل « قناصل » المدينة .

الذين كانوا يستحوذون على السلطة في أيديهم . ولقد أصبحت محاولاتهم محاولات هائلة حتى انه في سنة ١٩٨٩ ، منعت جمعيات العمال وعطلت ، وحدث نفس الشيء في دينانت Dinant سنة ١٢٥٥ ، وفي معظم المدن الفلمنكية وفي تورناى Tournai سنة ١٢٨٠ وفي بروكسل سنة ١٢٩٠ . لكن المقاومة لم تشنهم عن عزمهم . وفي خلال القرن الرابع عشر ، نجحوا في بعض الأماكن ، في الحصول على حقهم في ترشيح قضائهم doyens ومحلفيهم jurés ، وفي أن يعترف بهم كمؤسسة سياسية وليتقاسموا السلطة مع طبقة كبار البرجوازيين .

وبرغم أن الحرف اختلفت بشكل ملحوظ من مكان لآخر في حجم الاستقلال الذاتي والنفوذ السياسي الذي تمتعت به ، فإن تنظيمهم الاقتصادي كان متشابها داخل كل أوروبا . وكانت خصائصه الأساسية واحدة . وهنا تكشف روح الحماية الموروثة في اقتصاد مدن العصور الوسطى عن نفسها بقوة بالغة . ولقد كان هدفها الأساسي هو حماية الصانع ، ليس من المنافسة الخارجية فحسب ، ولكن أيضا من منافسة زملائه . ولقد استبقت سوق المدينة مقصورا عليه ، وأغلقته أمام الانتاج الأجنبي ، وفي نفس الوقت ارتأت وراعت ألا يفتنى أحد من أهل الحرفة على حساب الآخرين . وبسبب ذلك فإن تنظيمات دقيقة متعددة حكمت تلك الأمور التي كانت تنطبق على الجميع من : ساعات محددة للعمل ، تثبيت الأسعار والأجور ، منع أى نوع من الاعلان ، تحديد عدد الأدوات والعمال في المصنع ، تعيين ملاحظين مخولين بشدة التحقيق في البحث - قصارى القول ، فإن هذه التنظيمات قد استنبطت لضمان الحماية لكل أفرادها وفي نفس الوقت العدالة المطلقة بقدر الامكان . وقد كانت النتيجة احاطة استقلال كل منها بدعائم قوية . وكان الجانب المكمل لصورة الامتياز والاحتكار الذي تمتعت به الروابط الحرفية هو لفظ كل المظاهر الأولية . فلم يسمي بايذاء الآخرين باتخاذهم طرقا قد تمكنه أن ينتج أسرع وأرخص من غيره . واعتبر التقدم التقنى في العمل على أنه مظهر من مظاهر عدم الولاء للجماعة . ولقد كان الأمر الأمثل آنذاك هو استقرار الظروف في صناعة مستقرة .

ولقد استخدم النظام الذي فرض على الصانع في تأمين نوعية منتجات مصنوعة لا تعاب لفائدة ومصلحة المستهلك . وأصبح من المستحيل على غير المتقن لعمله الحصول على مصنعيته ، وأصبح الاهمال في الصناعة والتلاعب فيها خطرا يماثل خطر الغش في الطعام . ولقد كانت شدة العقوبات على الغش والاهمال ماثرة للاهتمام . ولم يكن الصانع

عرضة فقط لرقابة دائمة من الملاحظين البلديين ، الذين كان لهم الحق فى مدهامة ورشته ليلا أو نهارا ، ولكن أيضا عرضة لرقابة العامة ، الذين كانت عيونهم تراقب عمله من خلف نوافذ ورشته .

وقد انقسم أعضاء كل نقابة حرفية الى طبقات تابع بعضها البعض معلمون ، وصبيان (Lehringen) وعمال باليومية (أجراء و Knechten companons . ولقد كان المعلمون هم طبقة السادة التى تعتمد عليها الطبقتان الأخريان . ولقد كانوا ملاكا لورش صغيرة بها مواد خام وأدوات صناعية من عدد وخلافه . ولذلك فقد كانت المادة المصنعة ملكا لهم ، وكل ما يحصل من أرباح بيعها . أما الصبيان فقد دربوا فى الصنعة تحت اشرافهم ، لأنه كان من غير المسموح به لأحد أن يحترف صنعة ما دون أن يكون ماهرا فيها . وأخيرا تأتى طبقة الأجراء وهم عمال يحصلون على أجورهم مقابل انجازاتهم ، وقد أكملوا فترة الصبيان فى الصنعة ، ولكنهم لم يرتقوا الى مرتبة المعلمين . ولقد كان عدد المعلمين ، بالطبع ، محصورا ، ومحكوما بحاجة السوق المحلى ، واحراز مرتبة المعلم كانت خاضعة لشروط معينة (دخل معقول ، ميلاد شرعى وتملك مواطنة المدينة) ، وكان تقديم هذه الأشياء أمرا صعبا . وكان زبون كل ورشة محددا بعدد سكان المدينة وما جاورها . وكل ورشة كانت عبارة عن دكان حيث يواجه البائع المنتج وجها لوجه . وهنا ، مثلما الأمر فى تجارة الطعام بالتجزئة ، نزل الوسيط الى مكانه الصحيح .

وهكذا ، فإن معلم الحرفة ، كان بكل مدلول الكلية ، مقابلا لصغيرا مستقلا . ورأسماله الوحيد فى منزله وفى الأدوات اللازمة لصنعتهم . ولقد تحددت دائرة مستخدميه تحديدا دقيقا من قبل التنظيم ، وهى تتكون من صبي أو صبيين وعدد من الأجراء ، لايزيدون فى النادر عن خمسة أشخاص . وإذا حدث مصادفة أن أحرز بعض المعلمين بعامل الزواج أو الميراث ثروة تزيد عن ثروة أقرانه من المعلمين ، فانه من المستحيل عليه أن يزيد فى حجم أعماله مما يسبب الضرر لهم ، وبذلك لم يترك النظام الصناعى لهم أى مجال للمنافسة . ولكن علم التساوى فى الثروة كان نادرا للغاية بين أفراد هذه الطبقة البرجوازية الصغيرة . لأنه ، التنظيم الاقتصادى لهم جميعا كان يعنى الكيان الواحد للجميع ونفس الموارد المتساوية : فهو أعطاهم وضعاً آمناً ومنعهم من تجاوزه . ومن الممكن أن يوصف ذلك الوضع ، حقيقة ، بنظام « اللارأسمالية » .

لكن الصناعة المدنية لم تكن متشابهة فى كل مكان . وفى مدن كثيرة ، وبخاصة تلك المدن الأكثر نموا ، فانه جنبا الى جنب مع المقاولين

الحرفيين الذين يعيشون بالقرب من السوق المحلي ، توجد مجموعات مختلفة تماما ، كانت تعمل في التصدير • قبلًا من الانتاج لمجرد زبائن المدينة المحدودين وما جاورهم في الأنحاء ، نراهم المتعهدين الموردين لبضائع الجملة للتجار العاملين في التجارة الدولية • وكانوا يتسلمون من هؤلاء التجار موادهم الخام ، التي يصنعونها لهم ، ويسلمونها لهم في شكل سلع مصنعة • وكانوا على هذا النحو ، فيما يتعلق بمؤجريهم مجرد أجراء • ولقد تمثل هذا الوضع في عمال الحرير في لوكا Lucca (١) ، وطارقي النحاس في دينانت ، والنساجين والمقصرين للنسيج والصبانين في غيننت Ghent ، ويبريس Ypres ، ودواي Douai ، وبروكسل ، ولوفان ، وفلورنسا ، وباختصار ، في كل مراكز صناعة القماش ، التي كانت تنتج أنواعه في العصور الوسطى • وبالفعل فقد قسم العمال الى نقابات ، مثل باقي الصانع • لكن اذا كان شكل النقابات في الاثني واحدًا ، فان وضع الأعضاء فيها كان مختلفًا تمامًا • ففي الحرف التي تتعامل مع التجارة الداخلية ، فان الخبازين ، والنحاسين ، والاسكافيين ، وغيرهم ، وأدوات الصناعة ، والورش ، والمادة الخام كل ذلك يخص العامل ، وكذلك السلعة المصنعة ، التي يبيعها مباشرة لعملائه • لكن في الصناعات الكبيرة ، فعلى العكس من ذلك ، فان رأس المال والعمل كانا مفترقين • فالعامل ، بعيدًا عن السوق ، لا يعرف الا المفاوض الذي يدفع له ، وخلال وكالة هذا المفاوض تباع منتجات هذا العامل ، بعد أن تمر خلال أياد كثيرة ، في موانئ الشرق أو في أسواق نوقجورود Novgorod • وهنا يغيب تمامًا التعامل المباشر ، الذي طالما اعتبره المؤرخون الطابع الأساسي لاقتصاد المدينة •

أما عن أعدادهم ، فان عمال التصدير تتناقض أعدادهم بشدة مع حرف المدن الصغيرة • وقد كان السوق المتنامي الذي يخدم التجارة الدولية في حاجة لتزايد عدد العمال • وفي منتصف القرن الرابع عشر ، كان في غيننت أكثر من ٤٠٠٠ نساج وأكثر من ١٢٠٠ مقصر للملابس ، وهو عدد هائل اذا ما تذكرنا أن مجموع عدد السكان بها كان لا يزيد عن الخمسين

(١) عن شكل الرأسمالية في صناعة لوكا ، يقدّم F. M. Elder بحثًا ظهر ملخص له « لدائرة خاصة » في :

Abstracts of Theses of the University of Chicago : Humanistic Series, t. VIII (1920-1930).

أما عن صناعة دينانت ، انظر :

H. Pirenne, Les marchands-batteurs de Dinant au XI^e et X^e siècles, in Vierteljahrschrift für Social-und Wirtschaftsgeschichte t. II (1904), p. 442 et seq.

الفا • وان التوازن الذى استقر فى بعض العصور الوسطى بالشكل الحادى بين الصناعات المختلفة تلاشى هنا تماما لصالح أحدهم وواجهنا هنا موقفا مشابها لذلك الموقف لمراكزنا الصناعية فى هذه الأيام • وحقيقة واحدة سوف تكون كافية لاثبات ذلك • ففي يبريس Ypres ، فى سنة ١٤٣١ ، بمعنى القول ، انه فى خلال الفترة التى تقلصت فيها صناعة القماش بسرعة ، ظلت هذه الصناعة تمثل ٥١٦٪ من مجموع صناعاتها ، بينما فى نفس التاريخ فى مدينة فرانكفورت على نهر المين ، وهى مدينة الصناعة الداخلية ، كان عمال الملابس يمثلون فقط ١٦٪ من عدد سكانها •

ولقد كانت الجماعات العاملة فى المدن الصناعية الكبرى تحت رحمة الكوارث والتعطيل • حين ، تتوقف المواد الخام عن الورد نتيجة للحرب أو حظر التصدير ، تتوقف الأنوال عن العمل وتملا جماعات المتعطلين الشوارع ، وتتسكع فى البلاد تتسول خبزها • وبعبدا عن تلك الفترات فترات البؤس المحتوم ، فان ظروف المعلمين وملاك الورش أو مستأجرىها كانت مرضية ، ولكنها كانت أبعد من ذلك مع عمال اليومية الأجرا الذين يعملون عندهم • لأن معظمهم كانوا يعيشون فى حارات فى حجرات مستأجرة أسبوعيا ولا يمتلكون سوى الملابس التى عليهم • ولقد تنقلوا من مدينة لأخرى مؤجرين أنفسهم لأصحاب العمل • ولقد كانوا يتجمعون صباح كل يوم اثنين ويلتقون فى الميادين أمام الكنائس ، ينتظرون فى قلق أى معلم (أسطى) يستأجرهم لمدة أسبوع • ويبدأ يوم العامل مع الفجر وينتهى عند منتصف الليل • وتدفع الأجور مساء كل يوم سبت ، ولقد نص التنظيم البلدى ، على أن يكون الدفع نقدا ، لأن تجاوزات نظام دفع الأجور سلعا لا عملة كانت عديدة • وهكذا كون الصناع فى الصناعة الكبرى طبقة منفصلة بين سائر الصناع وحملوا تشابها قريبا للغاية من طبقة البرولييتاريا الحديثة • ولقد تميزوا « بأظافرهم الزرقاء » ، وملابسهم الرثة وأخلاقهم السيئة • ولقد كان المعلمون لا يخشون معاملتهم بخشونة ، لأنهم كانوا يعرفون أنه سرعان ما سيمتلى مكان أولئك الذين يطردون منهم • ولم يكن من المفاجئ آنذاك أن نجدهم ، منذ منتصف القرن الثالث عشر ، ينظمون الاضراب عن العمل • وأقدم هذه الاضرابات وقعت فى دواى Douai ، سنة ١٢٤٥ ، تحت اسم Takehan (١) • وفى سنة ١٢٧٤ تمادى نساجو ومقصرو القماش فى غينيت فى اضرابهم وعزموا على ترك المدينة والذهاب الى برابانت ، لكن رؤساء مدينة برابانت حذروهم من

(١) G. Espinas and H. Pierrenne. Recueil de documents relatifs à l'histoire de l'industrie drapière en Flandre, t. II, p. 22.

ذلك ، ورفضوا استقبالهم (١) . وفى الاراضى المنخفضة بدأت معاهدات المدن تتشكل ابتداء من سنة ١٢٤٥ ، لتسليم العمال الهاربين الى الحكومة والمشتبه فيهم والمشاركين فى المؤامرات . وكانت كل محاولة للثورة تجابه بالنفى والابعاد أو بعقوبة الموت .

ولقد اختلف العمال العاملون فى صناعات التصدير ، فى خاصية أساسية وحيدة تختلف عن العاملين بالأجر فى أيامنا هذه . فبدلاً من تجمعهم فى مصانع كبيرة فلقد وزعوا على عدد من الورش الصغيرة . ولقد كان معلم النسيج أو المقصرين للملابس ، سواء أكان مالكا للأدوات التى يستعملها أم كان مستأجراً لها ، فقد كان عاملاً أهلياً ، يعمل لحساب رأسمالية تجارية كبرى . ولقد كان الاشراف المفروض من قبل السلطة البلدية على الصناعة يعطى حماية أقل للعمال ، طالما كانت السلطة يد كبار البرجوازيين الذين من بينهم تجند سلطات المدينة . ومن الضرورى فى هذا المقام أن نلقى نظرة خاطفة من خلال الصكوك المتصلة بمراث تاجر الأجواخ والملابس الثرى ، السسير يوحنا بوانبروك Sire Jehan Boinebroke (٢) (الذى توفى سنة ١٢٨٥ - ١٢٨٦)

لنلاحظ المدى الذى كان لايزال يسخر فيه صناعات الصناعات الكبرى حتى بداية القرن الرابع عشر . فلقد كان هؤلاء الصناع مطحونين من قبل مستخدميههم ، وكان معلومهم بدورهم مجبرين على اضطهاد الصيبيان وعمال اليومية الأجراء . ولقد ضغط تفوق رأس المال ، الذى استطاع الاقتصاد المدنى من خلاله تحرير بعض الحرف ، ضغط بكل ثقله على أولئك المنتجين لصناعات الجملة التى كان لها التفوق والسيادة .

Ibid., p. 379 et seq.

(١)

G. Espinas, Les origines du capitalisme, Sire Jehan Boinebroke, (٢) Patricien et drapier douaisien, Lille, 1933.

الفصل السابع
التغيرات الاقتصادية
في القرنين الرابع عشر
والخامس عشر

١ - الكوارث والاضطرابات الاجتماعية (١) :

من الممكن اعتبار بداية القرن الخامس عشر نهاية مرحلة اتساع اقتصاد العصر الوسيط . وحتى ذلك التاريخ كان التقدم مستمرا في كل المجالات . ولقد سار التحرير المتزايد لطبقات الفلاحين يدا بيد في حجة اصلاح الأراضي غير المزروعة أو الأراضي البور واصلاح صرفها واعمارها . مع استيطان القبائل الجرمانية للأراضي وراء الألب . ولقد غير قيام الصناعة والتجارة شكل المجتمع وكيانه بالفعل تغييرا تاما . بينما أصبح البحر المتوسط والبحر الأسود من جانب وبحر الشمال والبلطيق من جانب آخر مسارح لتجارة كبرى ، وانبنقت الموانئ والمراكز التجارية على طول سواحيها وفي جزرها ، وتغطت أوروبا بمدن لمع نور نشاط طبقتها الوسطى الجديدة في كل اتجسها . وفي ظل هذه الحياة الجديدة . كان التعامل المالى تعاملات متكاملة ، واستخدمت أشكال التسليف والائتمان وتقدم اقراض رؤوس المال ، وأخيرا ، بدأ النمو السكاني اشارة لا تخطئ لصحة ونشاط المجتمع (٢) .

- Bibliography. H. S. Lucas, The Great European Famine of (١)
1315, 1316 and 1317, in Speculum (Medieval academy of America, 1930). F.A. Gasquet, The Black Death of 1348 and 1349 (London 1908). H. Pirenne, le soulèvement de la Flandre maritime de 1323-1328 (Brussels, 1900). A. Réville, le soulèvement des travailleurs d'Angleterre en 1381 (Paris, 1897). Ch. Oman, The Great Revolt of 1391 (Oxford, 1906). G. M. Trevelyan, England in the Age of Wycliffe (London 3rd ed., 1900). S. Luce, Histoire de la Jacquerie Par's, 1895). G. Franz, Die agrarischen Unruhen des ungehenden Mittelalters (Marburg, 1930). H. Denifle, La désolation des églises, monastères et hôpitaux en France pendant la guerre de Cent Ans (Paris, 1898-9), 2 vols. G. Schanz, Zur Geschichte der deutschen Gesellenverbände (Leipzig, 1877). E. Martin Saint-Léon, Le com(pagnonnage (Paris, 1901). H. Pirenne, Histoire de Belgique, t. II (Brussels, 3rd ed., 1922). S. Salvemini, Magnati e popolari in Firenze dal 1290 al 1295 (Florence, 1899). C. Falletti-Fossati, /I tumulto dei Ciompi (Florence, 1882). L. Mirot, Les insurrections urbaines au début du règne de Charles VI, 1380-1383 (Paris, 1906).

(٢) ليس هناك ما هو أساسى لفهم تاريخ الاقتصاد الوسيط من معرفة الكثافة السكانية لأوروبا في تلك الفترة . ول سوء الحظ ، فإن البيانات التى تحت أيدينا تسمح فقط بأعطائنا تقديرات تخمينية لا فائدة منها . ولقد ذكر لوت في بحثه الحديث :
M. F. Lot, L'état des paroisses et de feux de 1328, in Bibliothèque de l'Ecole de Chartes, t. xc (1929).

والآن خلال السنوات الأولى للمقرن الرابع عشر هنالك إعادة نظر في كل هذه الاتجاهات ولم يكن من المحتمل حدوث تدهور بقدر ما حدث من جمود لكل ما قد سبق . فلقد عاشت أوروبا ، كما يمكن القول ، على ما كانت قد اكتسبته ، بعد ان استقرت جبهتها الاقتصادية . حقا لقد كان هنالك حتى ذلك الوقت بعض الاقطار لم تتأثر بالحركة الاقتصادية العامة ، مثل بولندة وخاصة بوهيميا ، التي كانت قد بدأت تأخذ دورا فعالا فيها . لكن صحوة هذه البلاد المتأخرة لم تستوجب نتائج ذات أهمية كافية في التأثير على كل غرب أوروبا لأى حد معقول . وإذا وضعنا الاقطار الأخيرة في الاعتبار على حدة ، فإنه يتضح لنا أننا ندخل فترة بقاء لا فترة خلق ، عندما بدأ الاستياء الاجتماعى يثبت أن كلا من الرغبة والعجز لن يصلحا الوضع الذى تناسب بعد وقت قصير تماما مع حاجات الناس . والدليل على هذا الانقطاع فى النمو الاقتصادى نجده فجأة فى حقيقة وقف حجم التجارة الخارجية عن الاتساع . وحتى زمن الكشف الجغرافية العظيمة فى منتصف القرن الخامس عشر ، فإن النمو الاقتصادى لم يتجاوز على الإطلاق النقاط القصوى التى وصل إليها على يد البحارة الإيطاليين فى الجنوب وعلى يد الهانز فى الشمال ، ونعنى بذلك ، موانئ بحر ايجيه والبحر الأسود من جانب ومن الجانب الآخر سوق نوفجورود الروسى . ولقد ظلت التجارة ، بالطبع ، نشطة للغاية . وفى أحوال معينة يمكن القول بأنها زادت . ومنذ سنة ١٣١٤ بدأت حقيقة علاقات جنوة البحرية والبنديقية مع بروجز ولندن ، عبر مضيق جبل طارق ، وبدا أن انتصار الهانز على والديمار Waldemar الدانمركى سنة ١٣٨٠ قد أمن تماما سيطرتهم على البلطيق . ولكن الحقيقة التى تظل باقية هى أن التجار الإيطاليين ظلوا يعيشون على الماضى دون اعطاء أى دفعة للأمام .

ان عدد سكان فرنسا (بحدودها الحالية - كان فى ذلك الوقت يتراوح ما بين ٢٣ و ٢٤ مليون نسمة ، شاملة فروضا تخمينية لعدد كل البيوت والاستدلال بالدرجة التى سوف يتكاثرون بها . وليس قبل بداية القرن الخامس عشر نستطيع أن نبدأ فى الحصول على وثائق نستطيع أن نأخذ منها بقدر الامكان الأعداد الصحيحة ولا ينطبق ذلك على كل المدن بل ينطبق على بعضها . وإن الأعداد السكانية القليلة لهذه المدن آنذاك ، مقارنة لما هى عليه الآن تجعلنا نعتقد أن هذه البلاد كانت ضعيفة .فى تزايد أعداد سكانها . ولقد توصل الى معلومات طيبة عن عدد سكان برابانت سنة ١٤٣٧ ، حيث ذكر أنهم كانوا حوالى ٤٥٠.٠٠٠ نسمة . واليوم فى هذه البلدة الآن فى نفس المنطقة حوالى اثنين ونصف مليون نسمة . أى وصلت الى خمسة أضعاف العدد الأول . (J. Cuvelier, Les dénombremments des foyers en Brabant, p. cccxxvii).

ولكن المرء يتردد فى أن يعمم ويستنتج أن المجموع الكلى لسكان أوروبا عند نهاية العصور الوسطى كان خمس ما عليه أوروبا الآن من تعداد سكانى . وإنى أظن أنها كانت أقل من ذلك .

ونفس الشيء ينطبق على القارة الأوروبية ، فلقد توقف الاستيطان الألماني تجاه الشرق ، وبدا مجهدا على حدود لتوانيا ولاتقيا . ولم يجر اى تقدم لا فى بوهيميا ولا بولندة والمجر . ولقد ظلت صناعة الملابس فى الفلاندرز وبرابانت ، تحتفظ بازدهارها التقليدى ، دونما ازدياد ، حتى منتصف القرن ، حيث انهارت وتقلصت سريعا . فى ايطاليا ، غرقت غالبيتها البنوك الكبرى ، التى سادت الاتجار فى المال طويلا ، فى سلسلة من الافلاسات المحزنة : ففي سنة ١٣٢٧ أفلس بنك سكالى Sali ، وفى سنة ١٣٤١ أفلس بنك بوناكورسى Bonnacorsi وأوزانى Usani وكورزىنى Corsini وكثير غيرهم ، وفى سنة ١٣٤٣ أفلس بنك باردى Bardi وبيروزي Peruzzi وأكسياجولى Acciajoli وبدأ تدهور أسواق كمبانيا مع السنوات الأولى للقرن (١) . وحينئذ توقف ، أيضا ، ازدياد عدد السكان . وقد كان هذا التوقف أكبر دليل على استقرار المجتمع وتطوره الذى بلغ أقصى حد له (٢) .

ومن العدالة أن نشير ، أن القرن الرابع عشر لم يواصل تقدمه ، بسبب الكوارث التى اكتنفته وكانت مسئولة عن ذلك . ولقد بدا أن المجاعة المخيفة التى ألقت الخراب على كل أوروبا من ١٣١٥ الى ١٣١٧ قد سببت خرابا عظيما أكثر من أى مجاعة سبقتها . وإن الأرقام التى ذكرت حول مدينة يبريس تجعلنا نقدر اتساع هذه المجاعة . ولقد عرفنا أن حكومة المدينة كانت قد أمرت بدفن ٢٧٩٤ جثة من بداية مايو حتى منتصف أكتوبر ١٣١٦ ، وهو عدد كبير ، إذا ما وضعنا فى اعتبارنا حقيقة أن عدد سكان هذه المدينة كان آنذاك لا يزيد عن ٢٠.٠٠٠ نسمة . وبعد ذلك بثلاث سنوات ، حدثت كارثة أكبر ، وهى انتشار الطاعون (الموت الأسود) ، فى العالم الذى لم يكن قد فاق بعد من ضربته الأولى . ولقد كان هذا الوباء من أكثر الأوبئة التى ذكرت فى التاريخ فظاعة دون نزاع . ولقد قدر أنه من سنة ١٣٤٧ حتى سنة ١٣٥٠ من المتوقع أن يكون قد أباد

A. Saponi, La crisi delle compagnie mercantili dei Bardi e dei (١)
dei Peruzzi (Florence, 1926) ; E. Méanges P. Fabre (Paris, 1902).
Peruzzi (Florence, 1236) ; E. Jordan, La Faillite des Euonsignori,
in Méanges p. Fabre (Paris, 1902).

(٢) فى غياب عدد كاف من العمل الدقيق حول الدراسة السكانية للصور الوسطى ، يمتد فقط انطباع عام . ومن الواضح أنه ليس أكثر من تدقيق تقريبي . عموما ، من الممكن اعتبار الموت الأسود كعلامة ليست فقط للتوقف ، ولكن أيضا لتقلص فى النمو السكانى . ومع ذلك ، فإنه حتى قبل هذه الكارثة ، فلقد استقر العدد السكانى فى كل مكان فى غرب أوروبا . ومن ناحية أخرى ، فإن النصف الأول من القرن الرابع عشر يشهد نموا سكانيا كبيرا فى الاقطار السلافية فى شرق أوروبا ، وبخاصة فى بوهيميا .

ثلث سكان أوروبا وقد تبعته فترة غلاء شديد ، سوف نناقش آثارها مؤخرا (١) .

واضافة لهذه الكوارث الطبيعية اضيفت كوارث سياسية ليست اقل منها . فلقد تمزقت ايطاليا من خلال الحروب الأهلية طوال كل القرن . أما ألمانيا فكانت نهبا لفوضى سياسية دائمة . وأخيرا ، فإن حرب المائة عام دمرت فرنسا وأجهدت انجلترا . كل ذلك كان اثقالا لكاهل الحياصة الاقتصادية . فقد تقلص عدد المستهلكين وفقد السوق جريا من قوته تماسكه .

ولقد زادت هذه النوائب بالتأكيد من حدة المشاكل الاقتصادية التي جعلت القرن الرابع عشر أعنف من القرن الثالث عشر ، ولكن يجب أن نفكر في تأثير هذه النوائب الرئيسية على التنظيم الاقتصادي نفسه ، الذي كان قد وصل الى حد أثارت فيه عملياته الاستياء في كل من سكان المدينة والريف على حد سواء .

وبرغم أن تحرير الفلاحين قد وقع عموما خلال الحقبة السابقة الا أنه خلف وراءه تقريرا جذورا عميقة للعبودية . ففي أقطار كثيرة استمرت السخرة تثقل كاهل الفلاحين وقد جعلهم اختفاء نظام الجفال لا يزالون في بلاء شديد . لأن السيد الاقطاعي توقف عن اعتبار نفسه حاميا لرجال مقاطعته . وأصبح وضعه في العلاقة بمسبتأجريه ليس ذلك الوضع للزعيم الوراثي الذي تقبل سلطته على أساس طابعها الكنسي ، بل أصبحت علاقته بمالك ومحصل للديون (٢) . وطالما أن أراضي المقاطعات الكبيرة الخالية قد أشغلت ، لم تعد تؤسس مدن جديدة ولم يعد هنالك أى دافع لاعطاء الألقان حريتهم ، التي بدلا من أن كانت مربحة للسيد ، صارت تحرمه من الايجارات والخدمات التي كانت تستخلص منهم . ودون شك ، فإن الحاجة للجمال غالبا ما كانت تدفع هؤلاء اللوردات لبيع تراخيص تحرير للألقان بأسعار معقولة ، أو حتى تحرير قرية بأكملها مقابل التنازل عن جزء من الأراضي العامة . لكن الحقيقة التي ظلت قائمة هي أن فترة التحرير هذه التي شملت الفلاح لم تعد تعطيه أملا في تحسين وضعه بالهجرة الى

(١) من هنا جاء ظهور قانون العمال في انجلترا وفرنسا بمرسوم ملكي سنة ١٣٥١ . وكلاهما قام بتنظيم الاجور بقصد خفض الاسعار .

R. Vivier, La grande ordonnance de février 1351, les mesures anticorporatives et la liberté du travail, in *Revue historique*, t. cxxxviii (1921), p. 201 et seq.

(٢) عن كل ذلك ، انظر :

M. Bloch, Les caractères originaux de l'histoire rurale française, p. 112 et seq.

أراض بكر • وفي كل مكان ظلت فيه عبودية الأرض ، فانها أصبحت ممقوتة جميعها ، وأصبحت الآن استثناء ، ذات مظهر مهين • ولقد كان الفلاحون المحررون من جانبهم ضجرين من اختصاصات محاكم الجفالك ، التي بسببها حملوا التزامات اقطاعية ومن خلالها ظلوا خاضعين للاستغلال الاقتصادي للأسبياد الاقطاعيين أسبيادهم في السابق • ومنذ ذلك الوقت ، وخلال القرن الثالث عشر ، فقد الرهبان حماسهم ، وبفقدانه فقدوا مكانتهم ، وفقدوا العشور التي كان معظمها يدفع لهم كرها • ولقد أصبحت المزارع الواسعة التي أقاموها على أراض شاسعة عمنا طاحنا على الفلاحين • ولقد طالبوا بالجزء الأكبر من الأراضي العامة كمراع لقطعاتهم ، وأحاطوا حدود مزارعهم بأسوار بأيدي الفلاحين ، ولقد كان من السهل عليهم أن يجوروا على الفلاحين لأنهم كانوا في الغالب في حماية حجاب البلوريات أو رؤساء المجلس البلدي ، ولهذا كانوا مخولين لارغام عدد من السكان لتسجل لهم كعمال زراعيين • ولكل أسباب القلق هذه تضاف المتاعب الناتجة عن الحروب المستمرة ، ولقد حولت حروب المائة عام على وجه الخصوص ، التي خلالها واصل المرتزقة العيش في البسلاد بعد صرفهم ، منساقين كثيرة في فرنسا الى صحراوات « حيث لم يعد يسمع ديك يصيح أو دجاجة تفرق » (١) •

ولقد كان هذا الخراب ، في حقيقته ، مظهرا خاصا لفرنسا ، وسوف يكون دون شك من الخطأ أن نثبت أن موقف الفلاحين في باقي أوروبا كان أسوأ مما كان فيها خلال القرن الرابع عشر • ولقد أثبت الاستيلاء الاجتماعي الذي كانوا عليه أن هذا الاستيلاء لم يكن في كل مكان بدرجة واحدة • وربما حدث هذا الاستيلاء نتيجة البؤس المتزايد والرغبة في وضع حد لهذه الأشياء المسببة له واعتقاد الرجال في مفديتهم على الخلاص منها • وإذا كانت ثورة سكان جزيرة فرنسا سنة ١٣٥٧ (Jacquerie) كانت ثورة شعبية أثارتها الحقد والكراهية للنبلاء الذين يتحملون مسئوليتها ، فانه على العكس من ذلك تماما بصدد الثورة التي وقعت في غرب الفلاندرز من سنة ١٣٢٣ حتى سنة ١٣٢٨ والتمرد الذي وقع في انجلترا سنة ١٣٨١ •

ولقد كان طول مدة الثورة الأولى التي وقعت في غرب الفلاندرز ، كافيا تماما لاثبات أنها لم تكن من عمل المواطنين البائسين والمستضعفين • ولكنها كانت ، في حقيقتها ، محاولة خالصة لثورة اجتماعية • ووجهة ضد النبلاء لاغتصاب السلطة التشريعية والمالية منهم • ولقد تسبب الشدة التي كان النبلاء يستخدمونها في جمع المكوس وفرض الغرامات الثقيلة في

M. Bloch, Op. cit., p. 118.

اقليم الفلاندرز لصالح ملك فرنسا ، في القيام بشغب بعد الحرب التي بدأت
بمعركة كورتراي Courtrai ، والتي سرعان ما تحولت الى ثورة عليّة
ضد النظام القائم . ولم يستغرق اخماد هذه الفتن وقتا طويلا ، ولكن
الروح الاستقلالية للفلاحى هذه المنطقة الأقوياء والعنيدى ، سلائل
الهنويس hôtes ، الذين أصلحوا أرض المستنقعات هناك وزرعوها
فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، أيقظت فيهم روح الصراع لدرجة
جعلتهم ينظرون للأغنياء وللكنيسة نفسها كأعداء طبيعيين لهم . وكان
يكفى آنذاك ليشيك فى أى شخص يعيش على دخل الأرض (١) . ولقد
رفض الفلاحون دفع العشور وطالبوا الاديرة بتوزيع غلالها على الناس .
ولم يستطع القسيس أن يفلتوا من الكراهية التي استولت على العصاة
حيالهم ، ولذلك أعلن أحد قواد حركة التمرد أنه يتمنى أن يرى آخر واحد
منهم معلقا على المقصلة . وبمزيد من القسوة ، اضطر النبلاء والأغنياء الى
قتل أقاربهم أمام العصاة . ولم نعد نرى ثانية خلال ثورة الجاكيرى
Jacquerie أو خلال ثورة الانجليز سنة ١٣٨١ ، أعمال عنف مخيفة كذلك
التي وقعت فى ثورة غرب الفلاندرز . ويقول كاتب معاصر لتلك الأحداث
فى ذلك : « ان بلاء التمرد وصل لدرجة كره فيها الناس الحياة » . وللقضاء
على هؤلاء الثوار ، « الذين كانوا كالوحوش المجردة من الشعور والعقل » ،
والذين هددوا بالاطاحة بالنظام الاجتماعى ، كان من الضرورى لملك فرنسا
أن يتدخل فى الأمر بنفسه . ولقد تقسم الفلاحون ، المعتدون بأنفسهم ،
لمقابلته وفرضوا عليه الدخول فى معركة معهم على منحدرات مونت كاسيل
Mount Cassel (٢٣ أغسطس ١٣٢٨) . ولقد كانت هذه المعركة قصيرة
كما كانت معركة دموية . ولقد قام الفرسان دون رحمة بوضع السيف
فى الدماء الذين تجرّموا على مقاسومتهم وعدوهم خارجين على القانون .
ورفض الملك أن يستمع الى البارونات ، الذين حرضوه على سحق جيش
الفلاندرز وذبح الرجال والنساء والأطفال ، واكتفى ببصاردة ممتلكات
المتبردين الذين حاربوه . ولقد سحقت الثورة الاجتماعية ، التي
كانت قد انتصرت لوقت قصير . والتي لا تعتبر اتجاهاتها الحقيقية ،
بالطبع ، أكثر من سخط وقتى لتدمير سيرته الظروف الى أقصى مدى له .
ويعزى شدة عناد هذه الثورة وطولها الى حقيقة أن الثوار كانوا قد ساندتهم
الحرفيون فى يبرس وبروجز ، وقد أعطوا بانضمامهم للفلاحين الثائرين
روح ثورة المدن .

"Dicebant enim Alicui diviti : Tu plus diligis dominos quam (١)

communitates de quibus vivis ; et nulla alia causa in coreperta,
talem exponebant morti" Chronicon comitum Flandrensiu, in Cor-
pus Chron, Flandr., t. I., p. 202.

كذلك فان ثورة الانجليز سنة ١٣٨١ ، كانت مثلث ثورة غرب
 الفلاندرز ، كانت ثورة شعبية قام بها سكان المدن وسكان الريف ، ومثلها ،
 أيضا ، من الممكن ان تعتبر كتعبير عنيف وخارج عن الشعور بسبب
 التناقض القائم بين العمال والرجال الذين يعيشون على كدهم . ولم تكن
 ثورة الانجليز ، مثل ثورة الفلاندرز ، نتيجة لبؤس طبقات الفلاحين . ولم
 يكن لها تشابه مع ثورة الباجريين (Jacquerie) ، فان ظروف الفلاحين
 الانجليز كانت قد تحسنت خلال القرن الثالث عشر ، مع نمو فائض أموال
 الإيجارات لخدمة العمال . لكن في كل الجدائل ظلت هنالك تقريبا بقايا
 من عبودية الأرض ، ووجد الفلاحون نصف الأحرار في النظام الإقطاعي
 كل ما هو غير محتمل بسبب الارتفاع في الأسعار والأجور الذي تلا
 الطاعون وتسبب في سوء أحوالهم . وليس هنالك ما يثبت أن سبب
 ثورتهم هي محاولة من جانب مالكي الأرض زيادة مطالب وخدمات العمل .
 ومن ثم بدت هذه الثورة كمحاولة لزعة ما تبقى من نظام الجفالك ،
 لمصلحة الشعب . ومن المحتمل أيضا أن أفكار تصوف اللوردالدين (أتباع
 لولارد وهو أحد أتباع المصلح الديني ويكلف) قد ساعدت في أن تثير فيهم
 كراهية « الأسياد » الذين لم يكن لهم وجود « حين خلق آدم وحواء » .
 ومثلما حدث في الفلاندرز قبل خمسين سنة ، ملأت أذهان الثوار طموحات
 شيوعية غامضة ، وأعطت ثورتهم مظهر حركة موجهة ضد النظام الاجتماعي
 القائم . لكن الرعب الذي انبثق عنها كان قصير العمر . ولقد كان التفاوت
 كبيرا بين قوى المحافظين والفلاحين ، الذين ، في تعطشهم للانتقام وأملهم
 في اليوتوبيا ، أنشأوا صورة أزلية للعالم مبنية على العدالة والمساواة .
 وبعد انقضاء أشهر قابلة استقرار الأمر وعاد الى ما كان عليه . وقد كان
 يكفي أن يظهر الملك نفسه وإن يصطف الفرسان لانها مثل هذا الموقف
 الذي كان بمثابة قعقة أكثر منه حربا .

وتدين ثورات الفلاحين في القرن الرابع عشر حقيقة بمظهرها الخطير
 لوحشية الفلاحين . ولم يكن الفلاحون يستطيعون النجاح في ثوراتهم
 باعتمادهم فقط على أنفسهم . وبرغم أن طبقات المزارعين شكلت بالفعل
 الجزء الأكبر من المجتمع ، الا أنها كانت لا تزال عاجزة عن أى تفكير في إقامة
 عالم جديد ، وكل ما اعتبر هو ، أن هذه التحركات لم تكن سوى تفجرات
 داخلية قصيرة الأمد ، انفجرت بدافع الغضب الوقتي ، وبرغم أن التناقض
 الاقتصادي بين الفلاحين الذين يحرثون الأرض ويزرعونها والنبلاء الذين
 يمتلكونها ، كان كذلك الذي كان بين العمال ورأسمالية المدينة ، الا أن
 الاحساس به كان أقل ، بسبب الظروف التي جعلت فلاح الريف المقيد بقيود
 كثيرة الى الأرض التي يزرعها ، والتي تركته ، رغم كل شيء ، في درجة
 أكبر من الاستقلال الذاتي عن العامل الأجير في الصناعة الكبرى . ولذلك

فليس من المستغرب أن تكون مدة المعاناة ونتائجها في المدينة مناقضة تماما عن تلك المعاناة التي كانت بين سكان الريف في القرن الرابع عشر.

وفي كل أنحاء غرب أوروبا احتكرت طبقة البرجوازية العليا haute bourgeois حاكم المدينة . ومن ناحية أخرى ، إذا ما تذكرنا أن حياة المدينة كانت قائمة أساسا على التجارة والصناعة ، صار من المحتم أن تكون القيادة في هذا المجتمع للتجار على الصناع وهم في الأصل أصحاب السبق في القيادة . ولذلك خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر ، جذبت أرستقراطية من بين مشاهير التجار ، قاموا في كل مكان بأعمال الحكومة البلدية . ولقد كانت حكوماتهم حكومة طبقية بمعنى الكلمة ، ولوقت طويل كان لديها مزايا كل هذه الطبقة من ، نشاط ، وحدة الذهن ، والتفرغ لخدمة المصلحة العامة ، التي كانت بالطبع متطابقة مع مصالحهم الخاصة والضمان الرئيسي لهم . ولقد حمل العمل الذي أنجزته شامدا كبيرا على هذه المزايا . وتحت هذه الطبقة اتخذت حضارة المدينة خصائص ظلت مميزة لها حتى النهاية . ولقد أسست كل أجهزة الإدارة البلدية ، ونظمت خدماتها المختلفة ، وأسست الأمور المالية والائتمانية المدنية ، وبنت ونظمت الأسواق ، ووفرت المال اللازم لبناء أسوار متينة وفتح مدارس ، وبالاختصار ، لسد كل احتياجات البرجوازية . ولكن شيئا فشيئا تكشف أخطاء التنظيم الذي عهد بالتنظيم الاقتصادي للصناعة الكبرى لنفس الناس الذين عاشوا على أرباحها ، والذين دفعوا طبيعيا لإنقاص نصيب العمال إلى الحد الأدنى .

ولقد رأينا على التو أن مدن عالم العصور الوسطى الصناعية الكبرى في المدن الفلمنكية ، أن صانعي الملابس قد بدؤوا يظهرن العداء للعد البطارقة échevins ، التي ظهرت بوضوح في ثوراتهم (١) . ويضاف إلى عدم رضاهم تزايد عدد البرجوازيين الأغنياء . بذلك ، في نفس الوقت ، أصبح النظام الأرستقراطي في مدن كثيرة حكم الأوليغاركية البلوقراطية (حكم الأقلية الغنية) ، الحريصة على منع السلطة عن كل من هو ليس بعضو من أعضاء الأسر القليلة الغنية ، والمستغلة لها بشكل متزايد واضح لصالحها الخاص . وهكذا نمت معارضة اجتماعية وسياسية ضد حكومة المدينة ولقد كانت المقاومة الاجتماعية ، بوضوح ، الأكثر عنفا . وقد أعطت الإشارة للثورة ، التي بتغيرات دموية ، واصلت مسيرتها في القرن الخامس عشر .

(١) انظر ما سبق ، من ١٨٩-١٩٠ .

ولقد دعيت ثورة الحرفيين ضد الأرستقراطية في معظم الأحيان
 بثورة ديمقراطية . ولم يكن التعبير تماما منطبقا على المفظ ، اذا ما قارناه
 بمحتواه اليوم . فلم يكن قصد الساخطين قيام حكومات شعبية ، ولقد
 كان أفقهم محصورا بأسوار مدينتهم ومحدودا بإطار رابطتهم . وبرغم أن
 أصحاب كل حرفة قد طالبوا بنصيب من السلطة لكنها مطالبة لم تكن تهتم
 بمطالب جيرانها وكان عملها محدودا بظروف الأرستقراطية . وقد حدث ،
 في بعض الأحيان ، بالطبع ، أن تتحد روابط عدة من مدينة واحدة ضد
 العدو العام المشترك ، وهي الأقلية الحاكمة Oligarchy of échevins
 لكنهم سرعان ما يديرون ظهورهم لبعضهم البعض بعد احراز النصر . ويجب
 ألا ننسى أن أشباه الديمقراطيين هؤلاء كانوا جميعهم أعضاء في المجموعات
 الصناعية الذين كان في يدهم امتياز الاحتكار الأكبر . والديمقراطية ،
 كما فهموها ، لم تكن سوى ديمقراطية أصحاب الامتياز .

ولم تكن كل المدن يسودها الاضطراب بسبب مطالب الحرفيين .
 فلم تظهر مدينة البندقية ولا مدن الهانز ، ولا المدن الانجليزية أي آثار
 لهياج . ولا شك في أن السبب في ذلك أن حكومة البرجوازية العليا
 لم تنحط هنالك في أوليغاركية أنانية ومغلقة ، فان ، الرجال الجدد ،
 الذين أغنتهم التجارة ، كانوا دائما يجددون حكمهم لهذه المدن . وذلك
 يفسر كيف أن الأرستقراطية هنالك نجحت في الاحتفاظ بالسلطة التي
 جعلتهم قادرين على أن يحتالوا على الجميع بواسطة سيطرتهم المزدوجة على
 التجارة وعلى الحكومة المدنية ، ولعدة قرون ، أعطت الأرستقراطية
 البندقية أمثلة عالية للوطنية ، والنشاط والمهارة ، واليسر الذي حصلت
 عليه للجمهورية وعاد بالنفع على الجميع بالتساوي ، لدرجة أن الناس
 لم يحلوا أبدا أن يطرحوا عنهم خضوعهم لهم . ولقد بدا أن هنالك
 أسبابا مماثلة أبقت على النظام الأرستقراطي في مدن الهانز . وفي
 إنجلترا ، كانت السيطرة المبدولة من قبل السلطات الملكية على المدن قوية
 بدوكة كافية لكبح جهود العامة ، اذا دعت الضرورة لذلك . ونفس الشيء
 ينطبق على مدن فرنسا ، التي منذ نهاية القرن الثالث عشر ،
 تزايدت تبعيتها لسلطة وكلاء التاج ، baillis ، أو القهرمان
 (وكيل الأمير الاقطاعي) . وحيثما كان ، وعلى سبيل المثال في برابانت ،
 فقد اعتبر أمير المقاطعة نفسه حاميا للبرجوازية العظمى .

وفوق كل ذلك فلقد اندلعت الثورات البلدية في أكبر مدن الأراضي
 المنخفضة الصناعية ، وعلى ضفاف الراين وفي إيطاليا . ونستطيع هنا أن
 نحاول اعتلاء رسم الملامح الأساسية ، غاضبين النظر عن الاختلافات
 متعددة التي عادت بسبب ظروف مختلفة ، وبسبب مطالبها وجوانب

أحداثها • والمعتقد أن سببها الأول يجب أن يكون هو تعسف الأوليغارشية الحاكمة • وحيث أن سلطة الأمراء كانت ضعيفة للغاية لتمنع هذه الثورات أو لتسيطر عليها ، فلم يعد يبقى سوى الاطاحة بها ، أو على الأقل إجبارها على اقتسام السلطة التي فكرت في احتكارها • وبالنسبة لذلك ، كان الجميع متفقين ، أغنياء وفقراء على السواء ، ولم يكن التجار الذين كانت بأيديهم الأعمال التجارية في ذلك بأقل من الحرفيين والصالحين في الصناعات الكبيرة • ووصلت الحركة ، التي بدأت في النصف الثاني للقرن الثالث عشر ، إلى نهايتها خلال القرن الرابع عشر • ونتيجة للشغب ، الذي كان دائما ما يرقى إلى صراع مسلح ، يضطر « الكبار » أن يتنازلوا « للصغار » عن زهاء قدر كبير في الإدارة البلدية • وطالما أن غالبية السكان كانت تنظم في حرف ، فإن الإصلاح الضروري كان قد تلخص في إشراك أصحاب هذه الحرف مع الحكومة • وفي بعض الأحيان كان لديهم الحق في الاستحواذ على قليل من المقاعد في هيئته العمودية أو مجلس المدينة ، وفي بعض الأحيان الأخرى تنتخب جماعة أخرى من الحكام بواسطتهم إلى جانب الجماعة القديمة ، كذلك كانت كل المقاييس المتصلة بالأمور المالية أو تنظيمات المدينة السياسية في بعض الأحيان تخضع لموافقة مندوبيهم في اجتماع عام • وفي بعض الأحيان نجحوا في الهيمنة على كل السلطة التي أبعدهم عنها الأرستقراطيون طويلا • ففي لييج Liège ، على سبيل المثال ، في سنة ١٣٨٤ ، حين لم يستطع « الكبار » الاستمرار في المقاومة التي استمرت لأكثر من قرن ، انتهوا بقبول شروط التسليم ، ومنذ ذلك الوقت فصاعدا ، حكم الحرفيون المدينة تماما • ولم يتمتع بالحقوق السياسية سوى أولئك الذين نقشتم أسماؤهم على قوانينهم • وصار المجمع الكنسي ، والمحلفون الذين يعينون بواسطتهم كل عمام ويرأسهم « حكامهم » ، مجرد آلة يديرونها حسب رغبتهم • أما السيدان two mastres (سادة البرجوازية) ، فقد جنسوا من هذا المجمع ، لتنفيذ أوامرهم ، أما عن المسائل المهمة فإنها ترفع للنظر إلى الاثنتين والتلاتين حرفة ويبيت في كل منها بأغلبية الأصوات • ونجد أنظمة مشابهة في ألمانيا وكولونيا تجعل من اتحادات الصناع وسطاء للحكومة البلدية •

ولكن ما كان ممكنا في المدن ، حيث لا تحرز صناعة فوائد على حساب صناعة أخرى ، أصبح مستحيلا بعد أن مال الميزان بجملة لصالح واحدة منهن • ففي مدن الفلاندرز الصناعية الكبرى ، حيث كان يتألف بها أعداد كبرى من النساخين والمقصرين للنسيج ، وحيث كان حرفيوهم يعدون بآلاف كثيرة من الأعضاء ، منعهم ذلك من أن يرتضوا بالدور المحدد

للاتحادات الصغيرة التي لا تتضمن أكثر من مكاسب قليلة . ولقد كان جميعهم قلقين على وضعهم المميز لأن ظروفهم كأصحاب أجور تختلف تماما عن أولئك الحرفيين الذين يخدمون في السوق العام . وبالنسبة لهم ، لم يكن إسقاط الأرستقراطية مسألة سياسية فحسب ، بل هي في المقام الأول مشكلة اجتماعية ، ومن خلالها تطلعوا لنهاية تبعيتهم الاقتصادية ، أملين في أنهم حين يصبح في أيديهم تنظيم ظروف العمل ومعدلات الأجور ، أن تنتهي الظروف غير الثابتة التي خضعوا لها بسبب حرفتهم . ولقد انهمك الكثيرون منهم في كوايس المساواة ، في عالم : « يجب أن يأخذ فيه كل شخص أكثر مما يأخذه الآخرون » (١) . ولقد كان هؤلاء ، في كل المدن الكبرى ، عند نهاية القرن الثالث عشر ، قد أعطوا الإشارة للثورة وأبدوا الصراع الخطير الذي أوصلهم الى النفوذ المؤقت بعد النصر في كورتراي Courtai لكن سرعان ما أثارت سيطرتهم باقى البرجوازيين ضدهم . وان تباين ، أو بالأحرى ، تناقض مصالحهم مع أولئك التجار والصناع كان كبيرا . وبالنسبة للآخرين (الصناع) فقد سلموا بأن يكونوا تابعين لصانعي الملابس .

ولقد اتحدت رأسمالية كبار التجار والسماصرة أو المستوردين ، مع صغار المقاولين المستقلين في الصناعة المحلية ، ضد الأجاء والبروليتاريا . وحتى يرضوا جميع الأطراف حاولوا أن يقيموا حكومة بلدية يحفظ من خلالها نصيب لكل المجموعات الكبيرة التي تقسم اليها السكان ، طبقة البرجوازية العليا (poorleric) ، وكتلة صغار الحرفيين ، وصانعي الملابس . ولكن التوازن الذي كان يؤمل في احرازه في هذه الطريقة لم يكن ، وما كان سوى توازن عاجز . وفي نظر النساجين ومقصرى الثياب ، لم يكن سوى تدليس ، طالما حكم عليهم بالفعل أن يكونوا دائما أقلية في علاقتهم بأفراد المدن الآخرين . ولا حراز مطالبهم ، لم يكن أمامهم سوى احرازها بالقوة . وبالفعل لم يفتشلوا في استخدام القوة . وخلال القرن الرابع عشر ، تراحم في ثورة دائمة ، محرزين لنسطة ورافضين التخلي عنها ماعدا حين يعانون الجوع من حصار أو تبيدهم مذبحه ، فيضطرون للاستسلام الى حزب زعمائهم .

ولم يكن هنالك شيء محزن أكثر من وضع المدن الفلمنكية ، التي ثار الغضب الاجتماعي فيها مع نوبات الجنون . ففي سنوات ١٣٢٠ - ١٣٣٢ ناشد « أهل يبرس الميسورى الحال » الملك بالا يسمح لماعقل المدينة

. Verriest, Le registre de la Loi de Tournai de 1302, in (١)
Bulletin de la commission royale d'histoire, t. LXXX (1911),
p. 445.

الداخلية التي يعيشون فيها والتي تحميهم من « العاعة » أن تهدم (١) .
ولقد اشتمل تاريخ هذه المدينة ، مثل مدن غينت وبروجز ، على صراعات
دموية ، ما بين صناع الملابس « وأولئك الذين يمتلكون أشياء يخشون
فقدانها » . ولقد اتخذ الصراع مرارا وتكرارا مظهر حرب طبقية بين
الأغنياء والفقراء . ولكن ذلك كان في الظاهر فقط . فلم يكن هناك فهم
عام بين طبقات العمال عن الثورة . ولقد عامل مقصرو الثياب ، الذين
طالب النساجون بتحديد أجورهم أو انقاصها ، عاملوا النساجين على أنهم
أعداء لهم ، وحتى يهربوا من استغلالهم ، وقفوا الى جانب « الناس
الميسورين » أما عن أرباب الحرف الصغيرة ، فقد كرهوا جانب
« النساجين المكروهين » (٢) . الذين تدخلوا في أعمالهم وأضروا
بمصالحهم ، والذين أفزعهم طموحاتهم الشيوعية أكثر مما أفزعهم الحاكم
والنبلاء . لكن على الدوام في كل حالات الثورة حيث كانوا ، ازداد سخط
هؤلاء الناس ، حين أدركوا أنه ، رغم كل جهودهم وحتى حينما كانوا في
السلطة ، فإن وضعهم لم يتحسن . ولقد كانوا عاجزين عن فهم أن طبيعة
التجارة الكبرى والصناعة الرأسمالية قد حتمت عليهم خطر طبقة الأجراء
وأنزلت بهم بؤس الكوارث والبطالة ، فاعتقدوا بأنهم ضحايا « الأغنياء »
الذين يعملون لحسابهم وليس قبل أن يضطروهم خراب صناعة الملابس
للهمجة للبحث عن عيش لهم ينتهي هذا الصراع المرير الذي اشتبكوا فيه .

أساسا ، فلقد كان الموقف في مراكز الصناعة الكبرى في اقليم
الفلاندرز مماثلا للموقف في كل المدن التي رجحت فيها كفة الصادرات
الصناعية عن الصناعة المحلية . وفي دينانت أحرز النحاسون نفوذا رائدا
مثل ذلك النفوذ الذي أحرزه نساجو ومقصرو الملابس في غينت
أو يبريس . وفلورنسا ، التي أصبحت فجأة مدينة الصيرفة والحرايرين ،
أيضا شهدت كتلة العمال تحرز السلطة بالقوة من الطبقة الرأسمالية .
ولقد أشعل ثورة سيومبي Ciompi (١٣٧٩ - ١٣٨٢) وقادها
صناع الملابس ، وشكلت ذبلا للاضطرابات الثورية في شمال أوروبا في
نفس الوقت . وليس من المبالغة أن نقول انه على ضفاف نهر الشيلد مثلما

(١) « لقد قام عامة إبرس بخلع أبواب المدينة الخارجية ، وارتكبوا جرائم ومكائد
كثيرة وأثاروا العرب والفرع على أبوابها ... وأذا كانت هذه الأبواب قوية بما فيه
الكفاية لما حدث القتل في المدينة ليلا ولما خلقوا أغراضهم » .

Bulletin de la Commission royale d'histoire, 5e série, t.
VII (1987), p. 28.

Chronique rimte des troubles de Flandre en 1379-1380, ed. (٢)
H. Pirenne, p. 38 (Ghent, 1902).

على نهر الأرنو فكر الثوار في فرض ديكتاتورية البروليتاريا على خصوصهم .

زيادة على ذلك ، فعند حوالى نهاية القرن بدأت البروليتاريا تظهر في الحرف الصغيرة ، رغم الحقيقة المعروفة من أن تنظيمهم قد صمم لحماية الاستقلال الاقتصادي لأفرادها . ولقد استمر خلو الرجل قائما بين رؤساء الحرف وبين صبيانهم أو عمال اليومية الأجراء ، طالما كان للأخيرين حق الوصول الى مكانة أسيادهم . لكن منذ اللحظة التي توقف فيها السكان عن الزيادة ووجهت الحرف بضرورة ثبات الانتاج ، وصار الوصول الى الرئاسة صعب المنال للغاية . ولقد صار أمر بقاء الحرفة عائلية يتحفظ بكل المقاييس ، فعلى سبيل المثال ، أصبح الحرفى يستغرق مددا طويلة كسبى تحت التمرين ، كذلك كان عليه دفع الرسوم المطلوبة للحصول على لقب المعلم فى الصناعة وسحب نموذج العمل الذى يقدم الى نقابة الصناع كدليل على أهلية الصانع لترتبة معلم فى الصناعة ، كضمان البراعة فى أولئك الذين يتطلعون اليها . وباختصار ، فان كل نقابة للصناع تحولت تدريجيا الى عصابة مستخدمين محبة لذاتها ، ومصرة على أن تورث أبنائها أو أصهارها مجموعة العمال الثابتين لدكاكينهم الصغيرة .

ولهذا ، فليس من المستغرب أن نلاحظ من منتصف القرن الرابع عشر ، بين الصبيان وخصوصا بين عمال اليومية الأجراء ، الذين رأوا كل آمال تقدم ظروفهم قد تلاشت ، أنهم أصبحوا فى حالة استياء وتذمر ، أظهر نفسه فى بادئ الأمر فى شكل اضطرابات ، ومطالب برفع الأجور . وانتهت بدعاوى بالمناصفة ومساواتهم مع معلمهم فى نقابة الحرفة . وفى لييج قال جاك دى همريكوت Jacques de Hemricourt (١٣٣٣ - ١٤٠٣) : « أما بعد ٥٠٠٠ فقد اجتمع المعلمون من أجل أداء وظائفهم ، وكان الخدم والصبيان متفقين فى الرأى ويتصرفون على أنهم شركاء المعلمين فى الرئاسة » (١) .

ولايضاح الأمر فقد كان العامل باليومية ، مساعد المعلم متوافقا فى حياته وهو غالبا ما يميل الى أن يتزوج من خلال عائلته وأن يخلفه ابنه فى حرفته ، وبالتدريج يتحول الى مجرد أجير . ولقد عرفت الحرفة بدورها معارضة العمل ورأس المال . وبسبب الطابع العائلى الذى ساد لمدة طويلة صار ذلك بديلا للصراع بين المستخدم وصاحب العمل . وبين الأجراء أدت وحدة المصالح والمطالب الى ميلاد اتحادات تساعد وتدافع

J. de Hemricourt, Le patron de la temporalité des évêques (١) de Liège, p. 56, in t. III of the Oeuvres de J. de Hemricourt, edited by C. de Borman, A. Bayot and E. Poncel et (Brussels, 1931).

عن حقوق العمال امتدت الى عدة مدن • مثل : اتحاد الصحبة *Compagnonnages* أو *gesellenverbande* وهي اتحادات للأجراء غير مترابطة ظهرت لفترة قصيرة مبكرة في فرنسا ولفترة قصيرة متأخرة في ألمانيا ، بهدف ايجاد عمل لأعضائها وحمايتهم ضد استغلال رؤسائهم • وعلى هذه الاتحادات الكريهة أجاب المعلمون من جانبهم بإيجاد حدود رابطة بين المدن للدفاع عنهم • وفي سنة ١٣٨٣ ، تجمع الحدادون في مينز ، وورمز ، وسبير ، وفرانكفورت ، وأشافنبيرج *Aschaffenberg* ، وبنجن *Bingen* وأوبنهايم *Oppenheim* ، وكريزناتش *Kreuznach* في اتحاد ضد مجلس رؤساء حرفهم (*Kuechten*) وبدعوا هياجهم ضده (١) •

وهكذا ، فلقد ظهر بين المدن مقاومة اقتصادية واجتماعية عنيفة ، واسعة مما يشهد أنها انبثقت من دوافع عميقة ومتأصلة ولكن ، برغم قوتها ، فإنها لم تنجح في الاطاحة بالنظام القائم ، الذي كان قويا بدرجة لا يؤثر فيها عليه خطر الحرفيين والعمال • ولقد بحث سكان المدن الساخطون هنا وهناك لجذب أهل الضواحي الى حركتهم • ولقد فصلت سكان المدن عن الفلاحين فوارق عديدة في الروح ، وفي الاحتياجات والمصالح باعدت بينهم وبين الفلاحين في تواجد أى تفاهم ممكن بين اناس ينتمون بالفعل الى عالمين مختلفين • وهكذا حكم على محاولات المدن الثورية بالفشل الأكيد • ولقد قامت المقاطعات والنبلاء بانقاذ كل أولئك الذين كان يتهدد منهم • من كبار التجار ، وكبار البرجوازيين ورؤساء الحرف • وخلال القرن الخامس عشر فان الموح الذي ثار في القرن السابق له ، تراجع على نفسه ، ليهدم تحالف كل المصالح الذي كان قد تلاحم ضدها •

٢ - الحماية (الانتاج الوطنى) ، والرأسمالية ، والمركنتالية (٢) :

ان الفترة التى سادت فيها النقابات الحرفية النظام الاقتصادى فى المدن هى ذات الفترة التى بلغ الانتاج الوطنى للمدينة أقصى علو له • وأيا

Kullischer, Op. cit. t. I, p. 214.

(١)

(٢) راجع كذلك ما سبق فى هذا الخصوص •

Bibliography. W. Schmidt Rimpler, Geschichte des Kommissionsgeschäfts in Deutschland, t. I Halle, 1915). A. Schulte, Geschichte der grossen Ravensburger Handelsgeellschaft, 1380-1530 (Stuttgart, 1923, 3 vols.) W. Stieda, Briefwechsel eines deutschen Kaufmanns im XV Jahrhundert (Leipzig, 1921). A. Grunzweig, Correspondance de la filial de Bruges des Medici, I (Brussels, 1931). H. Prutz,

كان تباعد مصالحهم الحرفية ، فان كل التجمعات الصناعية اتفقت في تصميمها على القضاء على الاحتكار الذي تمتع به كل منهم الى أقصى حد ولسحق كل تفكير فردى أناني والقضاء على كل مجالات المنافسة بينهم . ومنذ ذلك الوقت فصاعدا أصبح المستهلك ضحية تماما للمنتج . ولقد كان هدف العمال الأكبر في التصدير الصناعي هو رفع الأجور ، وجعل أولئك الذين يملكون السوق المحلي أن يرفعوا الأسعار ، أو يعملوا على الأقل على ثباتها . ولقد كانت رؤيتهم محصورة ومحدودة بأسوار المدينة ، وكانوا جميعهم مقتنعين بأن رخاءهم من الممكن أن يتحقق بالوسيلة البسيطة وهي منع أى منافسة قد تأتي من الخارج . ولقد أصبحت تخصصيتهم أكثر سرعة ، ولم يكن في تصورها أن كل حرفة هي ملكية مطلقة لجماعة منفصلة أكرهت على مثل هذه الاجراءات الصارمة كتلك التي كانت في حرف العصور الوسطى هذه . وفي نظرهم أنه ليست هنالك حقوق سوى تلك التي أحرزت ، وأنه لكل مجتمعة يكون رأى الجماعة له الأسبقية عن مصالحها الخاصة .

وتوجد لهذا المظهر شواهد على كل الجهات . ولعل أبرزها ضوابط اكتساب حق المواطنة ، التي كانت لازمة في كل مكان . وقد رغبت كل مدينة في الاحتفاظ لمواطنيها بالفوائد التي تستطيع أن توفرها لهم ، وأعظمها الامتيازات ، التي كان المواطنون أقل رغبة في مقاسمتها مع الآخرين . وذلك يفسر التزايد المستمر في الرسوم المدفوعة للدخول في الامتيازات والحصول على الأهليات المطلوبة ، مثل اثبات الميلاد الشرعي ، والحصول على شهادات الأصل ، أو حسن الخلق ، وما شاكل ذلك . ولهذا ، أيضا ، فإن السياسة التي اتبعتها كل حرفة في إبعاد « الأجانب » وتزايد الاتجاه لخلق فراغ حول أسوار المدن ، كان لتأكيد تفوقها الاقتصادي . وتحت حجة الامتياز ، أو بتأثير اغتصابه من الحاكم بالثورة أو الرشوة ، صار من المنوع فتح دكان أو ورشة خارج حدود المدينة ، أو البيع في المدينة (وقت انعقاد الأسواق) سلعة لم تصنع هناك . ولقد ازدادت هذه التدابير مع نمو الحكومة « الديمقراطية » . وفي غيننت سنة ١٢٩٧ كان إدخال الملابس الصوفية من خارج المدينة لازال مسموحا به ، شريطة أن تقصر في الداخل ، ولكن في سنة ١٣٠٢ سحبت هذه الرخصة ومن

= Jacques Coeur (Berlin, 1911). L. Guiraud, Recherches sur le prétendu rôle de Jacques Coeur, in Mémoires de la société archéologique de Montpellier (1900). H. Pirenne, Les étapes de l'histoire sociale du capitalisme, p. 133, n. 19. J. Strieder, Studien zur Geschichte kapitalistischer Organisationsformen. Monopole, Kartelle und Aktiengesellschaften im Mittelalter und zum Beginn der Neuzeit, 2nd ed. (Munich, 1925).

سنة ١٣١٤ فصاعدا صار ممنوعا دخول ملابس مصنعة الى المدينة خلال نصف قطر قدره ثلاثة أميال حول سور المدينة . ولم يكن ذلك وعيدا لا قيمة له . فخلال القرن الرابع عشر كله شهد هذا القرن حملات عسكرية منظمة ترسل ضد القرى المجاورة ، يتم بواسطتها تحطيم المناول والمناسج فيها وتحطيم الجرار الكبيرة أو الاستيلاء عليها (١) . ومن ناحية أخرى ، قامت كل مدينة صناعية كبرى بتشغيل نساء الريف في غزل خيوط الصوف واحتفظت بعملهن لحاجتها المطلقة . ففي فلورنسا ، مثلما في الفلاندرز ، استخدمت النسوة في خدمة ورش المدينة وأجبرن على أن يحضرن غزلهن الى مخازن أقيمت لهذا الغرض . وقد شاعت هذه السنة في كل مكان . ولقد أخذت المدن الكبرى على عاتقها حق منع جيرانها من تصنيع أقمشة يكون عليها طلب زائد ، أو شكاية من تزيف هذه الخصوصية أو تلك منعا للمنافسة . ولقد أخضعت مدن يبريس ، وغينت ، وبروجز كل صناعة المراكز الثانوية في الإقليم لسيطرتها ، بحجة « الامتيازات » ، التي لم يرها أحد ، ولكن مجرد اعلانها كان كافيا عندهم لاثبات وجودها . وان الدعوة القضائية التي رفعتها بوبيرين Poperingh ضد يبريس سنة ١٣٧٣ أُلقت ضوءا ساطعا على الموقف . وحين توسل البرازون في هذه المدينة باسم الحق الطبيعي لكل انسان في أن يكسب عيشه ، أنكرت يبريس « الحق المدني » الذي يؤيد امتيازهم (٢) . ولقد كان موقف الحرفيين المتشدد تجاه الرأسمالية واحدا من أكبر عوامل الارتياح والشك . وقد أجبر التجار الكبار الذين نظموا صناعة الملابس ليسجلوا أنفسهم في نقابة النساجين وأن يخضعوا لتنظيمات أنزلتهم الى مجرد مركز رؤساء الورش . وبالطبع فان طبيعة « الصناعة الكبرى » من المحتمل أنها حفظت هذه التنظيمات داخل حدود لا تتجاوز أحداث خراب سريع . ولقد كان من المستحيل منع هؤلاء الرؤساء الأغنياء من الدخول في أعمال لها علاقة بالجماعات الإيطالية أو تجار الهانز ، الذين أخذوا مكانهم في كل المدن الفلمنكية كمصدرين للصوف ومستوردين للملابس . وحقيقة أنهم أجانب حميتهم هذه الحقيقة من القوانين التي يخضع المواطنون تحت طائلتها . ومع ذلك تعلق الصناعة تدريجيا ، نتيجة للارتفاع المستمر للأجور ، والمطالب المتزايدة للعمال ، والعدوان الدائم للنساجين والمقصرين ، والمحافظة المتشددة للعمليات التقنية التي لا يمكن لها أن تتغير بدون نقض الامتياز . وحوالي سنة ١٣٥٠ بدأ العمال يهاجرون الى فلورنسا ، وقد أغرتهم ، دون

G. Espinas and H. Pirenne, Recueil de document' relatifs (١)
à l'histoire de l'industrie en Flandre, t. II, p. 606 et seq.

G. Espinas and H. Pirenne, Recueil de documents relatifs (٢)
à l'histoire de l'industrie en Flandre, t. III, p. 168 et seq.

شك ، وعود وسطاء التجار الايطاليين ، أو يهاجرون في أعداد كبيرة أيضا إلى انجلترا ، التي استفاد مليكها بمهارة وحظ من الوضع القائم لترويج صناعة الملابس الوطنية (١) . وبدأت الجزيرة التي كانت لقرون طويلة تزود اقليم الفلاندرز بالمادة الخام ، بدأت الآن تنافس بها ومع بداية القرن الخامس عشر أصبحت المنافسة لا تقاوم . وفي برابانت ، أيضا ، جاءت الأسباب المشابهة بنفس النتائج . وحين أخذت بعض الملاحظات مؤخرا عما يحدث ، كان ذلك قد جاء متأخرا وفي سنة ١٤٣٥ عبثا حاولت بروكسل أن تحرر بائعي ملابسها بالجملة من اجبارهم على الانضمام إلى رابطة النساجين (٢) .

ولقد قادت الاقليمية المدنية المدن إلى عرقلة التجارة الواسعة بنفس الطريقة تماما التي عرقلت بها الصناعة الواسعة . ولم يكن لتدهور الأسواق العالمية خلال القرن الرابع عشر أدنى صلة بكرهية الصانع لمجتمع غير متناقض تماما مع حماية إنتاجه الوطني . إضافة إلى ذلك ، فإن « الحق الأساسي » الذي بموجبه أجبرت مدن عديدة التجارة بالمرور عبرها لتفريغ وعرض حمولتها للبيع للبرجوازيين قبل الاقلاع ، كان عائقا خطيرا للنقل العالمي . وفي كل مكان طالب ملاحو المراكب بحقوقهم في قطر كل المراكب الغذائية والرائحة في المياه المجاورة للمدينة وفي بعض الأحيان حتى في تفريغ حمولتها من البضائع وتحميلها في قواربهم (٣) .

ولقد كان هنالك بالطبع استثناء للقاعدة . فلم يكن نمو المدن في كل مكان بنفس السرعة في مكان آخر ، كذلك لم يكن تسلط وسيطرة الحرفيين قائمة في كل مكان بحدود متساوية ، فلقد كانت هنالك فوارق دقيقة في درجة الحماية المدنية . فمثلا ، فانها كانت تلاحظ بدرجة ضئيلة في جنوب ألمانيا ، حيث لم تكد الصناعة الواسعة والتجارة تبدأ

(١) عن هجرة العمال الفلمنكيين والبرابانتيين إلى فلورنسا ، انظر :

- A. Doren, *Deutsche Handwerker und Handwertrüderschaften im mittelalterlichen Italien* (Berlin, 1903). M. Battistini, *La confrérie de Sainte-Barbe des Flamands à Florence* (Brussel, 1931). M. Grunzweig, *Les soi-disant statuts de la confrérie de Sainte-Barbe de Florence*, in *Bulletin de la Commission royale d'histoire*, t. XCVI (1932), p. 333 et seq.

أما عن هجرتهم لانجلترا :

- E. Lipson, *English Economic History*, t. I, pp. 309, 399. H. de Sagher, *L'immigration des tisserands flamands et barbancons en Angleterre sous Edouard III.*, in *Mélanges ...*, Pirenne (Brussel, 1926).
- G. des Marez, *L'organisation du travail à Bruxelles*, p. 484. (٢)
- G. Bigwood, *Gand et la circulation des grains en Flandre du XIVE au XVIIIe siècle*, in *Vierteljahrsschrift für Social- und Wirtschaftsgeschichte*, t. IV (1906), p. 307 et seq. (٣)

فى الانتعاش فيها خلال القرن الرابع عشر ؛ عنها فى الأراضى المنخفضة أو فى أراضى الراين ، ذات التاريخ الاقتصادى الطويل • وفى فرنسا وانجلترا منعت السلطات الملكية نتائجها من النمو والوصول الى كمالها (١) • بالإضافة الى ذلك ، فان قوة رأس المال فى إيطاليا كانت دائما كافية تماما فى فرض قيود عليها • وكل ما نستطيع قوله بدون تحفظ ، انه فى القرن الرابع عشر ، بالمقارنة بالقرن الثالث عشر ، فان الصناعة قد دفعت الى أقصى حد لها روح الحق المحلى فى بيع سلعة معينة فى منطقة معينة كانت على الدوام موروثه فيها •

ولكن دون جدوى فقد تابعت المدن سياستها فى تحصيل الضرائب واستغلال التجارة الواسعة ، ولم تستطع أن تستغنى عنها ، ولم تكن لديهم الرغبة فى ذلك لأن المدينة لا تستطيع أن تكون مدينة نشيطة أو مزدهمة بالسكان ما لم تكن التجارة أساسية لها • فضلا عن ذلك ، فان التجارة تزود المدن وسكانها بنصيب كبير من طعامها المستورد وتزود الحرفيين بكل ما يحتاجونه من مواد خام • وبواسطة التجارة تحصل الفنادق على نبيذها ، ويحصل تجار السمك على الرنجة والسردين ، ويحصل تجار التوابل على سكرهم ولفلفلهم والقرفة والزنجبيل ، ويحصل الصيادلة على عقاقيرهم الطبية ، ويحصل الاسكافيون على الجلود ، وصناع الأوانى على الرصاص والصفائح ، والنساجون على الصوف ، والمقصرون للنسيج على الصابون ، والصباغون على النيلة والشب وصنع خشب البرازيل • وبواسطة التجارة تصدر صناعة المدينة الى الأسواق الخارجية • وكل ما على المدينة من عمل هو أن تنظم الأشكال التى يتخذها داخل أسوارها هذا النشاط الحيوى المتنوع • وكانت هذه المدن غير قادرة تماما على فرض أبة سيطرة على توسعها وانتشارها ، على المصادر التى تغذيها ، أو الأموال التى تستخدم فيها ، وبالطبع فقد كان التنظيم الاقتصادى الذى كان يعتمد على التجارة بالجملة قد تملص من ذلك • وفوق هذا الحقل الواسع ظل رأس المال هو صاحب القوة ، متحكما فى كل من التجارة البحرية الواسعة والنقل البرى ، وفى كل من تجارة التصدير والاستيراد • ولقد انتشر رأس المال على كل أوروبا واحتضن المدن كما احتضن المحيط الجزر المحيط بها •

ولقد كان النمو السريع للجمعيات التجارية واحدا من أهم الظواهر الملفتة للنظر فى القرنين الرابع والخامس عشر ، كل بمؤسساتها الفرعية ،

(١) انظر ما سبق • ولقد قصد المرسوم الذى صدر سنة ١٣٥١ فى فرنسا ، لقمع النقابات ، تقليل تحفظاتهم على حرية العمل مقابل تخفيض الاسعار •

وهراسيليا ووكلائها التجاريين فى أجزاء مختلفة من القارة . ولقد حذا
 حذو الجمعيات الايطالية القوية فى القرن الثالث عشر جمعيات أخرى فى
 شمال الألب . ولقد قامت هذه الجمعيات بتعليم الناس كيفية ادارة رأس
 المال ، ومسك الدفاتر وكل أشكال الائتمان ، وبرغم أنهم واصلوا الهيمنة
 على الاتجار فى النقود والعملة ، الا أنهم وجدوا أنفسهم فى مواجهة عدد
 متزايد من المنافسين فى الاتجار فى السلع . ويكفى أن نوجه النظر الى وجود
 شركات تجارية فى ألمانيا مثل شركة Hildebrand Veikinchusen فى ليوبيك
 Lubeck ، التى امتدت تعاملاتها من بروجز الى البندقية والى الأطراف
 البعيدة للبلطيق ، أو مثل شركة Grosse Ravensburger Gesellschaft
 التى انتشرت فى كل وسط أوروبا ، وفى ايطاليا وأسبانيا . أما عن فرنسا
 وانجلترا ، فان الأولى خربتها حرب المائة عام والثانية استغرقتها الحرب ،
 مما أدى الى ضعف دورهم ونشاطهم فى توسع رأس المال .

ومع ذلك ، فان ايطاليا قد أحرزت المكانة الأولى بسبب حيويتها
 غير العادية . فلقد انبثقت شركات جديدة على أنقاض تلك التى كانت قد
 أفلسيت فى منتصف القرن الرابع عشر ، وكان أعظمها تلك التى أقامتها
 أسرة ميدتشى Medici ، فى القرن الخامس عشر لتصبح قوة مالية لم
 ير العالم مثلبا من قبل .

ولقد أظهر قيام وقوة الرأسمالية نفسه فى آخر العصور الوسطى
 واضحا فى اتجاهات عدة . ومن مطلع القرن الخامس عشر ، تنازل سعر
 الفائدة الذى كان قد فرض نفسه فى سائر الأنحاء من ١٢ الى ١٤ ٪ الى
 ٥ الى ١٠ ٪ ولقد صار نظام الاقراض نظاما محكما بفضل بعض التدابير مثل
 تقنية قبول الحوالات والاعتراض على الكمبيالات . وفى جنوة من الممكن
 اعتبار Casa di S. Georgio ، الذى أسس سنة ١٤٠٧ كأول بنك
 حديث ، وتقارن المضاربة فى أسهمه فى أهميتها وفى نفوذها على الوضع
 المالى بتلك التى كانت لسندات دين الحكومة البريطانية الموحد فى القرنين
 السابع عشر والثامن عشر (١) . وهناك بنوك أخرى مثل : بنك
 سورانزو فى البندقية Saranzo وبنك مديتشى فى فلورنسا ، اللذان
 تعاملتا فى النقد وفى تجارة السلع ، لم يكونا أقل منه بكثير فى حجم رأس

J. ūlischer, Op. cit., t. I, p. 347.

(١)

المال ودائرة عملياتهما (١) • ولقد قامت كل هذه الحركة على يد طبقة رجال جدد ، ظهوروا في اللحظة التي كان فيها الاقتصاد المدنى كان قد تحول تحت نفوذ الحرفيين • ولم يكن ذلك بالقطع بمحض الصدفة • فلقد أصبح نبلاء المدن وأشرفها القدامى ، الذين أبعدوا عن السلطة الى البطالة في ظل الظروف الجديدة التي سادت الحياة الاقتصادية آنذاك ، أصبحوا عدا قلة مستثناة ، طبقة مؤجرين يعيشون على ايجار المنازل والأرض ، التي استثمروا من ريعها جانبا من ثرواتهم • وبدلا منهم كون محدثو النعمة جماعة جديدة من الرأسماليين ، لم تكن تحكمهم تقاليد وكانوا قادرين على تقبل دون صعوبة التغيرات التي حلت محل النظام القديم • وأهم ما قاموا به هو دور « وكلاء التجار » ، أو في بعض الأحيان صناع أثرياء ، فتح لهم تقدم نظام الائتمان والمضاربة والصرف تقسما ونشاطا ملحوظا (٢)، لكن كثيرا ممن اغتنوا من خدمة الأمراء خاطروا بثرواتهم في الأعمال التجارية •

وبالطبع ، فإن التقدم الادارى وزيادة النفقة على الحفاظ على جيوش المرتزقة وتسليحهم بالمدافع ، قد اضطر الملوك وكبار اللوردات ملاك الاراضى كذلك الى أن يحيطوا أنفسهم بشخصيات من المستشارين والوكلاء من كل الأنواع ، وهم الذين تعهدوا بالقيام بالأعمال التي ترفع النبلاء عن

(١) تظهر سجلات التاجر فرانثيسكو داتيني Francesco Datini (ت ١٤١٠) المحفوظة في تكية براتو ، بالقرب من فلورنسا ، والتي تحتوى على أكثر من ١٠٠.٠٠٠ خطاب ، تمثل مراسلاته مع « وكلائه من التجار » أو زبائنه في ايطاليا وأسبانيا والمغرب وفرنسا وانجلترا ، تظهر وتشهد ، لكثرتها ، توسع تعامل البيوت التجارية الإيطالية في ذلك العهد • انظر :

G. Livi, Dall' Archivio di Francesco Datini (Florence, 1910). Enrico Bensa, Francesco di Marco da Prato (Milan, 1928).

(٢) انظر G. Yver, De Guadagnis, mercatoribus florentinis Lugduni commorantibus (Paris, 1902); M. Jansen, Studien zur fuggengeschichte. I. Die Anfänge der Fugger (Léipzig, 1907); A. H. tion of the Royal Historical Society, new Series, XV, 63. E. Coor-Johnson, English Nouveaux-riches in the XIV Century. in Transac-naert, La Draperie-Sayetterie d'Hondschoote, pp. 362. 411, 445.

(يشير الى أن بزائى وتجار القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، الذين كانوا في المقام الأول من الصناع قد جاءوا من عائلات فقيرة وفقيرة جدا • ومن بداية القرن الرابع عشر بدأ النبلاء ينشغلون في الأعمال التجارية في الاراضى المنخفضة •

A de chesoret, Renaud, de Schoenau, Memoire S de l'Académie royale de Belgique (Brussels, 1892).

وفي بداية القرن الخامس عشر طلب هنرى دى بورسيلين ، سفير دى فيير Henri de Borssele, sire de Veere أن تبني له سفن وقام بالتجار بها • Z.W. Sneller, Walcheren in de XVe eeuw (Utrecht, 1916).

القيام بها أو عجزوا عن القيام بها . ولقد كان شاغلهم الرئيسى الادارة المالية ، وطالما حصلوا على المال الذى كان يحتاج اليه اسيادهم ، كانت لهم سلطة بالآ يستفسر أحد عن الأرباح التى يحصلون عليها ، من جراء التعامل النقدى أو الاتفاقات التى يبرمونها مع المتفقين معهم ، ومع الصيارفة والمقرضين الذين يتعاملون من خلالهم . ولقد كان جاك كوير Jacques Coeur أشهر وكلاء هذه الطبقة الجديدة من الأثرياء . ولقد كان هنالك الكثيرون من حوله ، مثل : غليوم دى ديفينفورر Guillaume de Duvenvoorde ، المستشار المخلص لدوق برابانت ، الذى أسست ثروته بيت ناسو Nassau ، أو نيقولا رولين Nicolas Rolin وبيير بلاديلين Pierre Bladelin ، الذين يدينون بثرواتهم لمكاتب أنجزت لخدمة فيليب الطيب دوق برجانديا ، أو للسيمبلانسين Semblancays والدورجيميبيش d'Orgements فى بلاط ملك فرنسا (١) . ولقد كان تزويدهم بالمؤنة للبلات الملكى ، الذى ازدادت بفضلهم رفاهيته وأعمالهم فى التعاقدات للجيش كائنا مصدر ربحهم الواسع . وفى سنة ١٣٨٨ ، تعاقد التاجر الباريسى ، نيقولا بولارد Nicolas Boullard على تزويد القوات التى جندوها شارل السادس لحملة جيلدرز Guelders ، بمقدار ١٠٠.٠٠٠ دينار ذهب (٢) . ولقد صار دينو رابوندى اللوقى Dino Rapondi of Lucca المقرض الرئيسى للبلات البرجاندى (٣) . وأينما كان فقد أحرز كبار رجال المال الأهمية فى بلاط الحكومات وكانوا موضع ترحيب من كبار الأرستقراطيين ، الذين منحوهم المكانة والمنزلة فى مقابل خدماتهم .

وبالطبع ، فانه مهما اختلفت أصولهم ، فان رأسمالىي القرنين الرابع عشر والخامس عشر كانوا جميعهم مضطرين للدخول فى علاقات مع الأمراء بسبب ما نشأ بينهما من مصالح متلاحمة . فمن جانب فان الأمراء كانوا لا يستطيعون مقابلة نفقتهم العامة أو الخاصة دون الرجوع الى رجال المال ، ولكن على الجانب الآخر فان كبار التجار ، والصيارفة وملاك السفن نظروا الى الأمراء كحماة لهم ضد الاستثناءات البلدية الجائرة ، كذلك لآخمد ثروات المدنيين ، ولضمان دورة رأسمالهم من مال وبضائع وطالما أن

J. Cuvelier, Les origines de la fortune de la maison d'Orange (١)
Nassau, in Mémoire de l'Académie royale de Belgique (1921); L.
Mirot, Une grande famille parlementaire au XIVe et au XVe siècle.
Les d'Orgement, leur origine, leur fortune, etc. (Paris, 1913) ; A.
La bourgeoisie financière au début du XVIe siècle (Paris, 1895).

Chronique du Religieux de Saint-Denis, ed. Bellaguet, (٢)
t. I, p. 533.

Ibid., p. 265. وفى سنة ١٣٨٣ قام بتزويد الجيش بالدقيق

L. Mirot, Etudes lucquoises (Paris, 1930). (٣)

« أولئك الذين يمتلكون أشياء يخافون من فقدانها » كانوا في حالة قلق من الفورات الاجتماعية أو الحركات الشيوعية ، كلما ارتموا في أحضان السلطة الملكية كملجأ وحيد لهم . حتى الصناع ، حين جاء دور التهديد لهم من جانب العمال الجوالين ، لجأوا إلى حمايتها ، لأنها هي التي كانت تحمي النظام .

ولقد كانت الإقليمية المدنية ، مكروهة من قبل الأمراء لأسباب سياسية ، كذلك كانت مكروهة أيضا لأسباب اقتصادية لكل من تأثرت أعمالهم ومصالحهم بها . وفي إقليم الفلاندرز ناشدت المدن الصغيرة الكونت ضد طغيان المدن الكبرى . ومن الأشياء المميزة للكونت تدخله في مصالح الصناعة الريفية التي ضايقها المدن بتعسف شديد . ومنذ عهد حكم لويس العفيف Louis de Mâle (١٣٤٦ - ١٣٨٤) منح كثير من الفلاحين اللوردات حق تصنيع الملابس . وجنبا إلى جنب مع صناعة الطبقة الغنية ، التي كانت قد انحدرت بسبب منافسة صناعة ملابس المدن الكبيرة ، ظهرت آنذاك طبقة « البرازون الجدد » التي اختلفت عن القدامى في كل من التقنية والظروف التي عاشت فيها . وفي هذه الطبقة حل الصوف الأسباني محل الصوف الانجليزي ، الذي أصبح قليلا ولا يفي بحاجة الطلب التي تزايدت في المنازل ، ولقد حلت الملابس الخفيفة المنخفضة الثمن محل « الملابس القيمة القديمة » . لكن فوق كل ذلك ، فإن امتياز حل محل امتياز في عالم صناعة الملابس ، فهذه الصناعة الريفية صارت صناعة رأسمالية خالصة ، وفيها حل محل التنظيم البلدي الصارم نظام أكثر مرونة ، تمتع خلاله المستخدم بحرية كاملة في التعاقد وتحديد أجره مع مستخدمه . ولم يعد هناك أي شيء من نظام الاقتصاد المدني . وإن رأس المال الذي اعتقد في أنه قد يكون قيذا وعائقا ، سرعان ما أظهر اشارات ، في هذه الصناعة الريفية ، للقوة التي يستخدم نفوذها بنجاح في القرن السادس عشر (١) . ومن الممكن ملاحظة نفس العمليات في كل الصناعات الجديدة التي ظهرت في القرن الرابع عشر ، مثل صناعة السجاد ونسج الكتان وصناعات الورق الأولى ، التي انبثقت في أجزاء كثيرة من أوروبا في نفس الوقت (٢) .

(١) H. Pirenne, Une crise économique au XVI^e siècle. La droperie urbaine et la nouvelle draperie en Flandre, in Bull. de la Class des Lettres de l'Acad. royale de Belgique (1905). E. Coornaert, La Draperie-Sayetterie d'Hondschoote.

(٢) انظر من ١٤٨ حاشية (٧) .

قارن الهيمنة التي كانت لمنتجات الملابس الانجليز على صناعة الملابس منذ E. Lipson, op. cit., p. 714 et seq. نهاية القرن الرابع عشر .

A. Blum, les premières fabriques de papier en Occident, in (٧) Comptes rendus des séances de l'Académie des Inscriptions, 1932.

هذا ولم يتحرك الملوك والأمراء لصالح تقدم الرأسمالية فقط من منطلق اعتبارات مالية . لكن فكر الدولة الذى بدأ يظهر بأن قوتهم قد زادت ، قادهم الى اعتبار أنفسهم حماة « للصالح العام » . ونفس هذا القرن الرابع عشر الذى شهد التخصيصية المدنية فى أوج قمتها ، شهد أيضا جلوس تدخل السلطة الملكية فى مجال التاريخ الاقتصادى . وحتى ذلك الوقت كان هذا التدخل قد طرأ هنالك فقط بطريق غير مباشر ، أو بالأحرى فى متابعة امتيازاتها القضائية والمالية والعسكرية . وبحكم أنها حامية للأمن العام فلقد حمت التجار ، وخففت المكوس على التجارة ، وفى حالة الحرب وضعت حظرا على سفن الأعداء وأعلنت توقف التجارة ، وتركت نشاط عناصرها الاقتصادية لهم . واقتصرت عمل المدن على وضع القوانين والتنظيمات لهم . لكن تنافس المدن كان محدودا بالحدود البلدية، ولقد تسببت تخصيصيتهم فى أن يكونوا باستمرار فى معارضة بعضهم البعض وجعلت من المستحيل عليهم اتخاذ مقاييس ومعايير لحماية الصالح العام ، الى الحد المعقول المناسب لمصالحهم الشخصية . ولقد كان الأمراء وحدهم قادرين على تحمل اقتصاد مقاطعاتهم ، التى تشكل وتهيمن على الاقتصاد المدنى . وعند نهاية العصور الوسطى ، كان الناس لا يزالون بعيدين عن اللحظة المحددة ، أو السياسة الواعية ، الموجهة حول هذه النهاية . وبوجه عام فقد لوحظت الاتجاهات المتقطعة نحو ذلك ، لكنها كانت كما لو أنها قد أوضحت ، أنها أينما كانت لها السلطة والقوة فى كل مكان ، فان الدولة تكون متجهة نحو المركنتلية التجارية . ومن الواضح أن الكلمة كانت تستخدم آنذاك فى نطاق محدود ، ولكن ، الأمر الغريب هو تصور بقاء الاقتصاد القومى لحكومات أواخر القرن الرابع عشر وأوائل الخامس عشر ، ويتضح ذلك من تصرف هذه الحكومات الرامى الى حماية الصناعة والتجارة من عناصرها ضد المنافسة الأجنبية ، كذلك لتقديم صيغ وأشكال جديدة للنشاط هنا وهناك داخل أقطارهم . وفى ذلك فقد كانوا ملهمين بأمثلة المدن ، ولم تكن سياستهم فى حقيقتها بأكثر من كونها سياسة مدنية بأوسع معانيها . وهى ما زالت تبقى على الخصائص الرئيسية لهذه السياسة ، كشاهد ، على حماية انتاجها الوطنى . ولقد كان ذلك بداية العملية التى قدرت على المدى الطويل لتلقى جانبا عابرة العصور الوسطى ، وتصبغ علاقات الولايات مع بعضها البعض بالتخصيصية الدقيقة التى صارت للمدن الأوروبية لعدة قرون .

ولقد ظهرت أول بوادر التحول نفسها فى إنجلترا ، البلد الذى تمتنع بأقوى حكومة متحدة عن غيرها . وفى النصف الأول من القرن الرابع عشر حاول الملك إدوارد الثانى أن يمنع استيراد الملابس الأجنبية ، ما عدا تلك المخصصة لاستعمال النبلاء . وفى سنة ١٣٣١ دعا الملك إدوارد الثالث

نساجى الأراضى المنخفضة للاقامة فى انجلترا • وأشهر ما تم فى هذا الخصوص ذلك المرسوم الذى صدر سنة ١٣٨١ الذى احتفظ بحق تجارة القطر للسفن الانجليزية ، السابق لمرسوم كرومويل البحرى ، الذى كان بالطبع من الصعب تطبيقه • وظلت الحركة نشطة فى القرن الخامس عشر • وفى سنة ١٤٥٥ منع استيراد السلع الحريرية من أجل حماية الانتاج الوطنى ، وفى سنة ١٤٦٣ منع الأجانب من تصدير الصوف ، وفى سنة ١٤٦٤ عكست سياسة المنع من استيراد الملابس المصنوعة فى القارة سياسة الملك هنرى الثالث (١٤٨٥ - ١٥٠٩) ، أول ملوك انجلترا المحدثين ، الذى فى عهده صارت انجلترا دولة صناعية أكثر منها دولة زراعية (١) •

ولقد أثارت هذه الاجراءات بالطبع الحنق فى الأراضى المنخفضة ، التى تأثرت وعانت صناعاتها المهمة من جرائها • ولقد أجاب على ذلك الملك فيليب الطيب ، دوق برجانديا (١٤١٩ - ٦٧) ، الذى وحده عدة مقاطعات تحت حكمه ، بمنع دخول الملابس الانجليزية الى بلاده • وقد كان يحكم بلاده واسعة سمحت له بأن يتخذ لنفسه سياسة اقليمية تخصصية خالصة • وشرع فى رفع مكانة البحرية الهولندية والارتقاء بها وتشجيعها فى المنافسة مع الهانز التيوتون ، التى صارت ناجحة تماما فى القرن التالى (٢) • ولم يقتصر الملك على تشجيع الهولنديين على الاتجار وحمل المنتجات الصناعية (وقد كانت الصناعة قد تقدمت آنذاك باختراع براميل سمك الرنجة سنة ١٣٨٠) ، ولكنه ساعد فى قيام ميناء أنتورب ، الذى احتل مكانة بروجز السابقة ، وأصبح ، بعد قرن من الزمان ، أكبر محطة تجارية فى العالم •

أما فرنسا فقد خربتها حرب المائة عام ، ولم تعد لها يقظتها الاقتصادية قبل تولى لويس الحادى عشر عرش البلاد • ونشاط هذا الملك وكفاءته التى تابع سياسته بها فى هذا المجال معروفة تماما • ولقد تكفل بتفوق سوق ليون على سوق جنوة • وحاول أن يؤقلم تربية دودة القز فى المملكة ويدخل صناعة استغلال المناجم فى دوفينى Dauphiné ، كذلك فكر فى تنظيم نوع من المعارض فى سفارة فرنسا فى لندن ، حتى

E. Lipson, Op. cit., p. 502.

(١)

وعن سياسة حماية الملك ادوارد الرابع للصناعة انظر :

F. R. Salter, The Hanse Cologne and the Crisis of 1468, in the Economic History Review (1931), p. 93 et seq.

E. Vollbehr, Die Holländer und die deutsche Hanse (Lübeck, 1930).

(٢)

« يثبت للانجليز أن صناعة فرنسا صارت متقدمة مثل صناعة غيرها من
سائر الأمم » (١) .

ولقد حرمت الفوضى السياسية التي عاشتها ألمانيا في غياب الحكومة
المركزية ، من تقليد جاراتها الغربيات . وان حركة الرأسمالية التي نمت
في تلك الفترة في مدن جنوب ألمانيا ، وبخاصة في نورمبرج واوكربرج ،
والتي يرجع اليها ازدهار مناجم بوهيميا والتيرول ، لا تدرك بشيء لنفوذ
الدولة . أما إيطاليا فقد تقسمت ما بين الأمراء والجمهوريات وكل منهم
صارع على السيادة فيها ، وواصلت ذلك الصراع لتسقط في مساحات
اقتصادية مستقلة ، كان اثنان منهما على الأقل ، وهما البندقية وجنوة ،
كانتا بسبب اعتمادهما على الشرق ، قوتين اقتصاديتين كبيرتين . وبالطبع ،
فان تفوق إيطاليا في الأعمال المصرفية والبنكية وصناعات الترف والرفاهية
كان لا يزال واضحا وله المكانة الناجحة على كل باقى أوروبا ، برغم فرقتهما
السياسية ، وذلك حتى اكتشاف الطرق الجديدة الى الهند الذى حول الاتجاه
الرئيسى للملاحة والتجارة من البحر المتوسط الى المحيط الأطلنطى .

De Maulde, Un essai d'exposition internationale en 1470, (١)
in Comptes rendus des séances de l'Académie des Inscriptions (١٨٨٩).

وعن سياسة الملك لويس الحادى عشر الاقتصادية انظر :

De la Roncière, Première guerre entre le protectionnisme et le libre-
échange, in Revue des questions historiques, t. LVIII (١٨٩٥), P. Bois-
sonade, le socialisme d'Etat.

L'industrie et les classes industrielles en France pendant les deux pre-
miers siècles de l'ère moderne (١٤٥٣-١٥٥١) (Paris, ١٩٢٧).

تأليفه ومصادر (بيليو جرافيا) عامة

قائمة مصادر (بيليوغرافيا) عامة

لا توجد هنالك مجموعة متخصصة من المصادر للتاريخ الاقتصادى والاجتماعى . لكن هنالك وثائق عديدة تختص : بالمدن ، وبتنظيم الصناعة ، والسجلات المدنية العامة والسجلات الخاصة والمراسلات وغيرها ، وقد نشرت هذه الوثائق فى أماكن كثيرة ، وما يزال نشرها يتزايد بأعداد كبيرة . وليس من الفائدة ذكر هذه الوثائق فى هذا المقام . وسوف يجد القارئ اشارات لهذه الوثائق ولمصادر أخرى مختلفة لأقطار مختلفة ولحقب زمنية مختلفة خلال هذا البحث .

بالإضافة الى الوثائق التى تختص مباشرة بالنشاط الاجتماعى والاقتصادى ، فلا بد للمؤرخ الذى يتعامل مع هذا الموضوع أن يكون عارفا بالمصادر العامة لتاريخ تلك الحقبة الزمنية التى يتعامل معها . وحقيقة أن جانبا كبيرا من مصادر تاريخ العصور الوسطى مشتق من الحوليات والمصادر القديمة ومن المذكرات العامة والخاصة ومن السجلات وغيرها . لذلك فإن وجود قائمة مصادر كاملة للتاريخ الاقتصادى والاجتماعى سوف تكون ضرورية وسوف تتألف هذه القائمة من قائمة كل مصادر تاريخ العصور الوسطى .

ولقد قام المؤلف بإيراد الأعمال الحديثة المتصلة بالنمو الاقتصادى فى أوروبا خلال العصور الوسطى عامة أو فى إقليم بعينه محاولة منه لتتبع آثار النهوض الاقتصادى فى أوروبا العصور الوسطى . كذلك أورد قائمة بالمصادر المتخصصة فى بداية كل فصل من فصول الكتاب .

مراجع عامة (General Surveys)

- K. Bücher, Die Entstehung der Volkswirtschaft (1893), Tübingen, 7th ed., 1910.
- W. Cunningham, An Essay on Western Civilisation in its Economic Aspects, Cambridge, 1898-1900, 2 vols.

- M. Kowalewsky Dieo Konomische Entwicklung Europas bis zum Beginn der kapitalistischen wirtschafts form (German trans.), Berlin, 1901-14, 7 vols.
- A. Dopsch, Wirttschaftliche und soziale grundtagen der Europaischen Kulturentwicklung aus der Zeit von Caesar bis auf Karliden Grossen, Vienna, 2nd ed. 1923)4, 2 vols.
- R. Kotzschke, Allgemeine Wirtschaftsgeschichte des Mittelalters, Jena, 1924.
- J. Kulischer, Allgemeine Wirtschaftsgeschichte des Mittelalters und der Neuzeit, Munich-Berlin, 1928-29, 2 vols.
- J. W. Thompson, An Economic and Social History of the Middle Ages, New-York, London, 1928-31, 2 vols.
- M. Knight, Economic History of Europe to the End of the Middle Ages, Cambridge (Mass.), 1926.

اعمال متصلة باقطار خاصة

المانيا

- K. T. Von Inama-Sternegg, Deutsche Wirtschaftsgeschichte, Leipzig 1978-1901, 4 vols. New edition of t. I, 1909.
- K. Lamprecht, Deutsches Wirtschaftsleben im Mittelalter, Untersuchungen über die Entwicklung der materiellen Kultur des platten Landes ... zunacht des Mosellands, Leipzig, 1886, 4 vols.
- Th. von der Goltz, Geschicht der deutschen Landwirtschaft, Stuttgart, 1902, 3, 2 vols

انجلترا

- W. Ashley, An Introduction to English Economic History and Theory, London, 1888-93, 2 vols.
- W. Cunningham, The Growth of English Industry and Commerce, vol I, Middle Ages, Cambridges 5th ed., 1910.
- E. Lipson, Economic History of England, London, Vol. I, 5th ed., 1929.

- J.E.T. Rogers, History of Agriculture and prices in England, vols. I-III, Oxford, 1866-92.
- L. F. Salzman, English Industries of the Middle Ages, Oxford, 2nd ed., 1923.

بلجیکا

- L. Dechesne, Histoire économique et sociale de la Belgique, Paris-Liège, 1932.

فرنسا

- H. Pigeonneau, Histoire du Commerce de la France, Paris, 1885-9, 2 vols.
- E. Lavasseur, Histoire du Commerce de la France, t. I, Paris, 1911.
- Id., Histoire des classes ouvrières et de l'industrie en France avant 1789, Paris, 2nd ed., 1901.
- H. Sée, Esquisse d'une histoire économique et Sociale de la France, des origines jusqu'à la guerre mondiale, Paris, 1929.
- Id., Les classes rurales et le régime domanial en France au Moyen Age, Paris, 1901.
- Id., Französische Wirtschaftsgeschichte, Jena, 1930-36, 2 vols.
- G. d'Avenel, Histoire économique et propriété du salaire et des prix (in France), Paris, 1894-8, 4 vols. française, Paris, 1931.
- M. Bloch, Les caractères originaux de l'Histoire rurale française, Paris, 1931.

إيطاليا

- G. Arias, Il sistema della costituzione economica e sociale italiana nell'età dei comuni, Tunin-Rome, 1905.
- G. Yver, Le commerce et les marchands dans l'Italie méridionale au XIII^e et au XIV^e siècle, Paris, 1903.
- A. Doren, Italienische Wirtschaftsgeschichte, I, Jena, 1934.

مصادر في موضوعات متخصصة

- W. Heyd, Histoire du commerce du Levant au Moyen Age, ed. Furcy — Raynaud, Leipzig, 1885-6, 2 vols. (new impression, 1923).
- A. Schaub, Handelsgeschichte der romanischen Völker der Mittelmeergebiets bis zum ende der Kreuzzüge, Münche-Berlin, 1906.
- L. Goldschmidt, Universalgeschichte des Handelsrecht, t. I, Stuttgart, 1891.
- P. Huvelin, Essai historique sur le droit des marchés et des foires, Paris, 1897.
- P. Boissonnade, Le Travail dans l'Europe chrétienne au Moyen Age, Paris, 1921.
- A. Schulte, Geschichte des mittelalterlichen Handels und Verkehrs Zwischen Westdeutschland und Italien, Leipzig, 1900, 2 vols.
- W. Sombart, Der Moderne Kapitalismus, Leipzig, 2nd ed., 1916-27, 4 vols.

دوريات

- Vierteljahrschrift für Social-und Wirtschaftsgeschichte, herzg. von L. Aubin, Leipzig, (1893-1900, Zeitschrift für Social-und Wirtschaftsgeschichte) : تحت العنوان :
- Revue d'histoire économique et sociale Paris, first published in 1903, by J. M. Keynes and D. H. Macgregor, London, first published in 1926.
- The Economic History Review, ed. by E. Lipson and R.H. Tawney, 1927-34, and by : M. M. Postan from 1934, London, first published in 1927.
- Journal of Economic and Business History, ed by : E. F. Gay and N.S.B. Gras, Harvard University, 1928-32.
- Annales d'histoire économique et sociale, ed. by : M. Bloch and L. Febvre, Paris, first published in 1929.
- prix (in France), Paris, 1894-8, 4 Vols.

ومن المهم إضافته هنا هو أن التاريخ الاقتصادي يشغل مكانة مهمة متزايدة في كل الحقب التاريخية .

اقرأ في هذه السلسلة

برتراند رسل	احلام الاعلام وقصص اخرى
ي . رادونسكايا	الالكترونيات والحياة الحديثة
الدس هكسلي	نقطة مقابل نقطة
ت . و . فريمان	الجغرافيا في مائة عام
رايموند وليامز	الثقافة والمجتمع
ر . ج . فوريس	تاريخ العلم والتكنولوجيا (٢ ج)
ليسترديل راى	الأرض الغامضة
والتر ألن	الرواية الانجليزية
لويس فارغاس	المعرض الى فن المسرح
فرانسوا دوماس	آلهة مصر
د . قدرى حنفى وآخرون	الانسان المصرى على الشاشة
أولج فولكف	القاهرة مدينة الف ليلة وليلة
هاشم النحاس	الهوية القومية فى السينما العربية
ديفيد وليام ماكداول	مجموعات النقود
عزيز الشوان	الموسيقى - تعبير نغمى - ومنطق
د . محسن جاسم الموسوى	عصر الرواية - مقال فى النوع الأدبى
اشراف س . بى . كوكس	ديلان توماس
جون لويس	الانسان ذلك الكائن الفريد
جول ويست	الرواية الحديثة
د . عبد المعطى شعراوى	المسرح المصرى المعاصر
أنور المعداوى	على محمود طه
بيل شول أدبى	القوة النفسية للأهرام
د . صفاء خلوصى	فن الترجمة
رالف ثى ماتلو	تولستوى
فيكتور برومير	ستندال

- رسائل وأحاديث من المنفى
الجزء والكل (محاورات في مضممار
الفيزياء الذرية)
التراث الغامض ماركس والماركسيون
فن الأدب الروائي عند تولستوى
أدب الأطفال
أحمد حسن الزيات
أعلام العرب في الكيمياء
فكرة المسرح
الجسيم
صنع القرار السياسي
التطور الحضارى للإنسان
هل نستطيع تعليم الأخلاق للأطفال
تربية الدواجن
الموتى وعالمهم في مصر القديمة
التحلل والطب
سبع معارك فاصلة في العصور الوسطى
سياسة الولايات المتحدة الأمريكية ازاء
مصر ١٨٣٠ - ١٩١٤
كيف تعيش ٣٦٥ يوما في السنة
الصحافة
أثر الكوميديا الإلهية لدانتى في الفن
التشكيلى
الأدب الروسى قبل الثورة البلشفية
وبعدها
حركة عدم الانحياز في عالم متغير
الفكر الأوربى الحديث (٤ ج)
الفن التشكيلى المعاصر في الوطن العربى
١٨٨٥ - ١٩٨٥
التشئة الأسرية والأبناء الصغار
- فيكتور هوجو
فيرنز هيزنبرج
سندى هوك
ف ٠ ع ٠ أدنيكوف
هادى نعمان الهيتى
د ٠ نعمة رحيم العزاوى
د ٠ فاضل أحمد الطائى
جلال العشرى
هنرى باربوس
السيد عليوة
جاكوب برونوفسكى
د ٠ روجر ستروجران
كاتى ثير
٠ سبنسر
د ٠ ناعوم بيتروفيتش
جوزيف دامموس
د ٠ لينوار تشامبرز رايت
د ٠ جون شندلر
بيير البير
د ٠ غبريال وهبة
د ٠ رمسيس عوض
د ٠ محمد نعمان جلال
فرانكلين ل ٠ باومر
شوكت الربيمى
د ٠ محيى الدين أحمد حسين

ج . دادلى أندرو	نظريات الفيلم الكبرى
جوزيف كونراد	مختارات من الأدب القصصى
جوهان دورشر	الحياة فى الكون كيف نشأت واين توجد
طائفة من العلماء الأمريكيين	حرب الفضاء
د . السيد عليوة	ادارة الصراعات الدولية
د . مصطفى عنانى	الميكروكمبيوتر
صبرى الفضل	مختارات من الأدب الديبائى
فرانكلين ل . باومر	الفكر الأوروبى الحديث ٢ ج
جابريل باير	تاريخ ملكية الاراضى فى مصر الحديثة
انطونى دى كرسبى	اعلام الفلسفة السياسية المعاصرة
دايت سوين	كتاية السيناريو للسينما
زافيلسكى ف . س	الزمن وقياسه
ابراهيم القرضاوى	أجهزة تكيف الهواء
بيتر رداى	الخدمة الاجتماعية والانضباط الاجتماعى
جوزيف داهموس	سبعة مؤرخين فى العصور الوسطى
س . م بورا	التجربة اليونانية
د . عاصم محمد رزق	مراكز الصناعة فى مصر الاسلامية
رونالد د . سمبسون	العلم والطلاب والمدارس
ونورمان د . اندرسون	
د . انور عبد الملك	الشارع المصرى والفكر
ولت وتيمان روستو	حوار حول التنمية الاقتصادية
فريد س هيس	تبسيط الكيمياء
جون بوركهارت	العادات والتقاليد المصرية
آلان كاسبيار	التذوق السينمائى
سامى عبد المعطى	التخطيط السياسى
فريد هويل	البذور الكونية
شانرا ويكراما ماسينج	
حسين حلمى المهندس	دراما الشاشة (٢ ج)
روى روبرتسون	الهيرويين والايدز
هاشم النحاس	فتحيب متحفوت على الشاشة
دوركاس ماكلينتوك	هصور افريقية

بيتر لورى
 بريس فيدروفيتش سيرجيف
 ويليام بينز
 ديفيد الدرتون
 جمعها : جون ر ٠ بورر
 وميلتون جولد ينجر
 ارنولد توينبى
 د ٠ صالح رضا
 م ٠ ه ٠ كنج وآخرون
 جورج جاموف
 د ٠ السيد طه أبو سديرة
 جاليليو جاليليه
 اريك موريس و آلان هو
 سيريل الدريد
 آرثر كيسلر
 توماس ا ٠ هاريس
 مجموعة من الباحثين
 روى أرمنز
 ناجاي متشيوي
 بول هاريسون
 ميخائيل ألبى ، جيمس لفلوك
 فيكتور مورجان
 اعداد محمد كمال اسماعيل
 الفردوسى الطوسى
 بيرتون بورتر
 جاك كرابس جونيور

المخدرات حقائق اجتماعية ونفسية
 وظائف الاعضاء من الألف الى الياء
 الهندسة الوراثية
 تربية أسماك الزينة
 الفلسفة وقضايا العصر (٣ ج)
 الفكر التاريخى عند الاغريق
 قضايا وملامح الفن التشكيلى
 التغذية فى البلدان النامية
 بداية بلا نهاية
 الحرف والصناعات فى مصر الاسلامية
 حوار حول النظامين الرئيسيين
 للكون
 الارهاب
 اختاتون
 القبيلة الثالثة عشرة
 التوافق النفسى
 الدليل الجيولوجى
 لغة الصورة
 الثورة الاصلاحية فى اليابان
 العالم الثالث هذا
 الانقراض الكبير
 تاريخ النقود
 التحليل والتوزيع الاوركستراالى
 الشاهنامة (٢ ج)
 الحياة الكريمة (٢ ج)
 كتابة التاريخ فى مصر

عن النقد السينمائي الأمريكي	ادوارد ميرى
ترانيم زرادشت	اختيار / د. فيليب عطية
السينما العربية	اعداد / موني براح وآخرون
دليل تنظيم المتاحف	ادامز فيليب
سقوط المطر وقصص اخرى	نادين جورديمر وآخرون
جماليات فن الاخراج	زيجمونت هبner
التاريخ من شتى جوانبه (٣ ج)	ستيفن اوزمنت
الحملة الصليبية الاولى	جوناثان ريلى سميث
التمثيل للسينما والتلفزيون	توني بار
العثمانيون في اوربا	بول كولنر
صناع الخلود	موريس بير براير
الكنائس القبطية القديمة في مصر (٢ ج)	الفريد ج. بتلر
رحلات فارتيما	رودريجو فارتيما
انهم يصنعون البشر ٢ ج	فانس بكارد
في النقد السينمائي الفرنسي	اختيار / د. رفيق الصبان
السينما الخيالية	بيتر نيكولز
السلطة والفرد	برتراند راصل
الازهر في الف عام	بيارد دودج
رواد الفلسفة الحديثة	ريتشارد شاخ
سفر ثامة	ناصر خسرو علوي
مصر الرومانية	نفتالي لويس
كتابة التاريخ في مصر القرن التاسع عشر	جاك كرابس جونيور
الاتصال والهيمنة الثقافية	هربرت شيلر
مختارات من الاداب الاسيوية	اختيار / صبرى الفضل
كتب غيرت الفكر الانساني (٣ ج)	احمد محمد الشنوائى
الشموس المتفجرة	اسحق عظيموف
مدخل الى علم اللقمة	لوريتو تود

اعداد / سوريا عبد الملك
 د . ابرار كريم الله
 اعداد / جابر محمد الجزار
 ه . ج . و . ل . ز
 ستيفن رانسيما
 جوستاف جرونيباوم
 ريتشارد ف . بيرتون
 ادمز متز
 ارنولد جنزل
 بادى اونيمود
 فيليب عطية
 جلال عبد الفتاح
 محمد زينهم
 مارتن فان كريفلد
 سوندارى
 فرانسيس ج . برجين
 ج . كارفيل
 توماس ليههارت
 الفين توفلر
 ادوارد وبونو
 كريستيان ساليه
 جوزيف . م . بوجز
 بول وارن
 جورج ستاينز
 ويليام ه . تبوز
 جارى ب . ناشى
 ستالين جين سلومون
 اعداد محمود سامى عطا الله
 يانكولا فرين

حديث النهر
 من هم القطار
 ماستريخت
 معالم تاريخ الانسانية (٤ ج)
 الحملات الصليبية
 حضارة الاسلام
 رحلة بروتون ٣ ج
 الحضارة الاسلامية
 الطفل ٢ ج
 افريقيا الطريق الآخر
 السحر والعلم والدين
 الكون ذلك المجهول
 تكنولوجيا فن الزجاج
 حرب المستقبل
 الفلسفة الجهورية
 الاعلام التطبيقي
 تبسيط المفاهيم الهندسية
 فن المايم والبانثومايم
 تحول السلطة
 التفكير المتجدد
 السيناريو فى السينما الفرنسية
 فن الفرجة على الافلام
 خفايا نظام النجم الأمريكى
 بين تولستوى ودستويفسكى (٢ ج)
 ما هى الجيولوجيا
 الحمر والبيض والسود
 انواع الفيلم الأمريكى
 الفيلم التسجيلي
 الرومانتيكية والواقعية

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١١٧٧٩/١٩٩٥

ISBN — 977 — 01 — 4652 — 8



ففي هذا الكتاب، يلقي المؤرخ المتميز الشهير، هنري بيرين، نظرة شاملة على خاصية العالم الغربى الاقتصادية، وعلى تطوره الاجتماعى منذ نهاية عهد الإمبراطورية الرومانية حتى منتصف القرن الخامس عشر [الميلاد]. ولقد اهتم المؤلف، فى المقام الأول، بأن يصف خاصية البنية الأساسية لحركة الإحياء الاقتصادية فى أوروبا. ولذلك ركز المؤلف كثيرا على أقطار إيطاليا والأراضى المنخفضة، وهى الأقطار التى نمت فيها النشاط الاقتصادى أسرع بكثير من غيرها من الأقطار خلال العصور الوسطى. ويحتوى هذا المؤلف على حواشى قيمة تحيل الباحث إلى المصادر والمراجع الهامة المتصلة بكل فصل من فصوله المختلفة.

والكتاب يعد، كما قال أحد كبار المؤرخين المشهورين: «فحص رائع كامل متكامل قام به واحد من أحسن وأعظم المعلمين المعروفين المؤثرين فى جيلنا.. وهو كتاب ضرورى لكل باحث فى التاريخ وفى السياسة وفى الاقتصاد». «ولابد أن يكون فى يد كل معلم ويد كل طالب من طلاب التاريخ الوسيط».